

أَمَلُ الْفَارَانِ

# غَوَاصُّ الْأَحْقَافِ

رَوَايَاتُ



أمل الفاران

# غواصو الأحقاف

رواية

**غواصو الأحقاف**

الكتاب: غواصو الأحقاف .. رواية

المؤلفة: أمل الفاران

## جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637

ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

## الطبعة الأولى

أيلول / سبتمبر 2016

ISBN 978-614-418-316-8

## جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

## طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L.

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2016 Beirut

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

«خذ لك أعطارًا: ميعَةً وأظفارًا وقتَ عطرة، ولبانًا نقيًا،  
تكون أجزاءً متساوية، فتصنعها بخورًا عطرًا صنعة  
العطار مملحًا نقيًا مقدسًا وتسحق منه ناعمًا وتجعل  
منه قدام الشهادة في خيمة الاجتماع»

سفر الخروج

الإصحاح 30



## (1)

لأيام بأول الخريف يرن اسم البحرين كدانة في مجالس أحياء العقيق  
 الثلاثة، ويطفو كحسرة في قلوب نسائها. يعلن الراغبون الذهاب نيتهم،  
 ثم يحرر المتزوجون نساءهم من قيد الانتظار إن شئن؛ ففي الغيبة  
 الطويلة سيقطعون بركايبهم الجزيرة العربية من جنوب نجد للحسا، ومن  
 ميناء العقير للبحرين ينيخون بالشط أسماءهم بحمولاتها ويعرضون  
 على النواخذه عافيتهم وخبراتهم ليضموهم لرحلات الغوص، وإن لم  
 تخطفهم مخالبا الموت في الصحراء أو في الماء فلن يعودوا قبل ثلاثة  
 أشهر.

في خريف الواحة المغروسة في صحراء الأحقاف تعوي الريح بين بيوتها  
 محاكية هواجس تخشى النساء النطق بها. أما حفيف جريد النخيل في الليل  
 فأشبه بابتهالات الأمهات.

تخشى النساء على رجالهن موتاً يتربص بهم خارج الواحة وهو رابض بين  
 جداول مائهم يثور في وجوههم مرة على سن رمح نزق ومرة كأنفاس عفنة  
 لمرض ينتقي أهشهم أجساداً فيفتك به، ومرات يجتاحهم سيولاً طاغية.

الرجال يحتاطون للموت الوحيد الذي يستطيعون التعامل معه؛ لا  
 يقطعون الدرب حتى تتعاهد الأحياء الثلاثة على تناسي ثاراتهم عند بعضهم  
 بعضاً طوال أشهر الغوص، هي أشهر حُرم من قلب الواحة حتى عمق  
 البحر.

مطر العقيق يتزامن مع مواقيت رحلتهم الحولية، ولأن غيم الصحراء ابن الندرة فإن زيارته لها نبؤها العظيم، وسيرة السحب الممطرة تبدأ قبل أن تزور واديههم ولا تنتهي بعد أن تغادره، فإن أقبلت كعروس يسبقها بخورها معطرًا شعابهم خرجوا لملاقاتها في أطراف الوادي. ومطر العقيق يتأمر مع الرحلة على ذاكرتهم، يزفر شيئًا كرطوبة البحر في أحيائهم فتفتق محارات اللؤلؤ في صدور غواصيههم.

في أوسط الأحياء وعيونهم على قطيع سحب بعيدة أكد أحدهم قبل أن يرتد إليه طرفه أنها ستتحرف عن واحتهم، أتمن على قوله آخر: ما دام وجهها شرقًا فلن تمطرنا، لكن رجلًا ثالثًا أشرع للآمال نافذة صغيرة: كُله بأمره!

مع نجمة الصبح كانت قد مضت دون أن تهبهم قطرة، بعد الفجر تحزّم كل بالغ في الواحة، وخرجوا لشجرة السمر في جهتهم الشمالية الغربية، ليجددوا عهد الأمان بينهم حتى يُختتم موسم الغوص.

أخذ أبناء العقيق من أشجار السمر حول واحتهم صبرها، لكنهم أخذوا منها خصلة أخرى. لا تزهر السمرة حتى تسقط أوراقها، وعهد أمانهم لم يُنسج حتى أكلتهم الحرب بينهم، وبعد أن أنهكوا قواهم خفتت أصوات النعرات، ونبتت أصوات تذكّركم بأصلهم الواحد وتبلبل ألسنتهم عما سواه. لقنهم ناطقوهم عهدًا قصيرًا مرتجلًا، والعهد صقلته السنين وزخرفت كلماته ثم تثبت مواعده ومكانه.

ظل لغارات أحياء العقيق على بعضها بعضًا أكثر من ثلثي السنة، تمتد قبل لقاح النخيل حتى ينضج القبط الرطب، ومع صرام النخيل يكنزون التمر والرماح.

فجر اليوم جمعتهم مجالسهم، وعلى القهوة الأولى أحصت ألسن لم



تشيع قتلاً أفعالهم منذ عهد العام المنصرم: من قتل منهم أحدًا من الحيين الآخرين؟ ومن كسر فارسًا سيجلس اليوم أمامه بعد أن شفي؟ ومن يتمنون لو خطفته أيديهم من قبل؟

بعد القهوة يسيلون عكس مجرى سيولهم، يقطعون شعابها التي تلتقي عند أكبر أشجار السمر «مريفة»

زحفوا صوب الشجرة الأم: خرج آل هذال من حيهم، ونزل آل فواز عن جبلهم، وسبقهم البنيانيون الأقرب إلى مكان الشجرة.

عرض جذع مريفة - من أي جهة استندوا عليه - أطول من رمح، وظلال عمامتها الغبراء يكفي رجال المعاهدة، وأوتادها في الرمل أضعاف فروعها. جاءوها وآخر قرون ثمارها بين أوراقها المغبرة تنتظر مثلهم المطر لتستسلم وتخر مخلية الفروع لأوراق موسم جديد.

أيدي رجال الأحياء بنادق ورماح، وتحاياهم تستر خفايا صدورهم، السلام يدور في حلقات كلما انتهت أعيدت، سلام سيجردون تفاصيله بعد العودة لمجالسهم، مع القهوة سيحصون من أطال السلام ومن قصره؟ من اسودّ وجهه حين رأى آخر؟ ومن ارتاحت يده في كف مصافحه رغم ثارات حيهما؟ كيف قيلت كل تحية؟ وكيف تم الرد عليها؟ من بدأ بالسلام؟ وكيف تلقى وجه الآخر سلامه؟ أي أسماء الأهل مرّ؟ ومن استثنى؟

تحت الشجرة ثنى كل رجل ساقًا ونصب أخرى وسلاحه رابض قربه، لولا ذاكرة الشجرة وقسماتهم المتشنجة لظنت أشجار السمر الفتية أن حلقة الرجال تستدير حول وليمة أو على وشك أن ترقص سامرية.

قبل أن توأد آخر التحايا نطق أسنهم: نقول بسم الله.

بعد المعاهدة انصرفوا وقد علّقوا في فروع الشجرة شطر قسمهم الأهم:  
«علينا عهد الله وأمانه والخاين يخونه الله».

وثّقوا معاهدة تأجيل الغضب، وبقيت الشجرة تنتظر مطراً يأتي بنساء  
وعشاقهن، وتظلّلها شمس رحيمة أنهكها زجر ديمة الأمس.

\* \* \*

الأرض التي يتمون إليها أقدم مما يتخصونه عن عمرها، لكن سيرتها  
التي تعنيهم تبدأ ببيت غرسه جدهم الأكبر في جبين الأحقاف؛ أنبت مانع  
بن هادي واحتهم (غرس نخله وخط بعقبه مسكنه الطيني) وبعد موته بسنين  
امتد ذراع قصره غرباً ليصنع قصر ابنه الأصغر بنيان.

عيال مانع من الابنين الأكبرين يفتحون بخروج أبيهم عن أهله سجل  
عظمته، لكنهم ما زالوا يستنكرون على أخيهام غير الشقيق أن يتبع نهجه، لا  
اعتبروا خروجه حقاً له ولا تسامحوا معه. ومع الأيام تبرعت الظنون في  
المسافة بين قصره وبينهم، ولسنين اشتعلت بُغضاً ودمًا.

لأبناء الحي المنفرد يبدو أن الشقيقين هذال وفواز ظلا يتساقيان كره بنيان،  
وكأس الضغينة المترع بقيت فيه بقية جرعها عيالهم فسممت صدورهم على  
بعضهم بعضاً.

بعد سنين أخرى ارتقى فواز بعياله الجبل شرق قصر الأب، وظل قصر  
مانع لهذال وعياله، وظلت أحشاء كل قصر تندلق بيوتاً ومزارع، وتكفل  
السيل برسم حدود الأحياء الثلاثة، وظلت الغارات تتعدى عليها وتحميها.

درب العودة صامت بانتظار المجالس لتحل ألسنتهم. مع دورة القهوة  
الثانية تساقوا تاريخ واديهم، ولكل حيّ نسخته الخاصة حتى في حكاية  
الشجرة مريفة التي كان الأب يقضي جزءاً من يومه تحت ظلها: آل هذال

سيزعمون أن هذال هو من ألصق الاسم بالشجرة بعد ولادة أخيه غير الشقيق بنيان، سماها على اسم أمه ليغيظ ضررتها.

الفوازيون لن يشككوا مثل آل بنيان في اسم امرأة مانع الأولى، لكن جبلهم الواقف عن يمين حي شقيقهم هذال يحلف أن تسمية الشجرة لم تكن خياراً أرضيًّا، وأنها جاءت بعد أن بليت عظام مانع، وأن أحد أحفاد جدهم فواز مرضت له ابتنان بالجدرى، وحين خاف العدوى على بقية أهل بيته أسند الصغيرتين لجذع شجرة سمر ومضى، وبعد ثلاث ليال هتف في أذنه هاتف يستفرعه بقطرة ماء عند «مريفة» للسقيمتين، حمل قربته واتجه للموضع الذي تركهما فيه، وجد إحداهما ميتة والأخرى على وشك أن تلحق بها.

حي آل بنيان سيتمسك بحكايته عن حبيبة عشقها جدهم بنيان، جاءته في المسيل فأذهلته، قالوا أنه لم يعرف لها أهلاً ولا حياً، ولم ينجح في وصفها لأمه، انعقد لسان الشاب على اسمها وكلما سئل عن حاله ردد اسمها «مريفة»، فأدركت أمه أنها جنية عرشيّة، ثم صنعت من العزائم ما شفاه الله بها ورد عليه بصيرته.

الرجل الوحيد في العقيق الذي لم تشغله الشجرة هو عمّوش الفوازي، تاجر العقيق وابن شيخ آل فواز مذ خط شاربه تسلّم قوافل تجارة أبيه وعرف عالمًا أوسع من الواحة والرمل المحيط بها. اعتاد العقيق من عمّوش كل عام قبل عهد الأمان أن يعطي مريفة ظهره ويغادر للجنوب. ينفذ من جنب الأحقاف إلى جنبها الآخر حتى يصل حضرموت، ويعود بحمولته من البن والعبيد فيشق النفوذ ونجد حتى يصل حایل.

يتذكر الوادي أن عمّوشاً يتجنب معاهدات الغوص ولا يدري أن الشجرة استحوذت على ذهنه مرة واحدة في صباه، ابن الشيخ الفوازي سأل أمه عن

سرها، نظرت في وجهه النحيل وتبسمت: هي شجرة سمر يتعاهدون تحتها لأنها كبيرة وظلها وافٍ.

من وقفة الغلام ونظرته الثابتة على شفيتها خمنت الأم أنه لم يقتنع بتفسيرها البسيط، فتحت عينيها الصغيرتين الحيتين وسعهما، ومن قاع حلقها أخرجت صوتاً مبحوحاً: الشجرة فيها جن، يقضمون رجل الولد إذا أبعد عن بيت أهله (الجملة التي بدأت هامسة رتيبة تسارعت وعلا آخرها قبل أن تباعته فتقبض على ساقه) سحب عَمَوش رجله وأدار لأمه ظهره، فلم تر رعشة الخوف في ذقنه الدقيق.

يخرج منها للمطبخ ليسأل إحدى قيانهم عن مريفة وسبب تسميتها بهذا الاسم، تنفث المرأة في جيبها وهي تسمي: «أنا فداك يا عم! ما لك وللشجرة وسيرتها؟!».

يصر فتعطيه ما لديها: جدك الكبير مانع أوقظ من منامه باسمها.. قيل له: «احفر تحت مريفة ولا تسم بالله، وستجد رقبة بعير محشية فرانسي».

في مجلسهم روى له أحد عبيدهم حكاية: كان جدك الكبير مانع يبحث عن منزل ناءٍ عن منازل حيه في الطرف البعيد من الوادي، جال في أطراف العقيق، وذات يوم أخذ اثنين من رفاقه وسار بهما مسافة أبعد، صاد وعلاً وعلّقه في فرع شجرة «وبعد أن تغدّوا وعيّنوا من الله خير رجعوا لحيهم»، وصلوا وانتبه أنه نسي خنجره في فرع الشجرة، تحداه رفاقه أن يستعيده «أين تجد خنجرًا في شجرة في الخلاء» بعد شهر سار بهم دون أن يفصح عن نية، وبلا تردد وقف عند الشجرة واستله من فرعها وعرضه أمام أعينهم!

يلمع الفخر في عين الصبي فيكرر العبد: وجده كأنه تركه أمس! ثم شاكس العبد سيده الصغير: لو نسيت حاجة في البرّ أتجدها - يا عم - بين آلاف الشجر؟!

مد الصبي يمينه: الأرض أحفظها كما أحفظ راحة يدي.. آتي به ولو بعد سنة.

ربت العبد على منكب عمّوش: «بعدي والله أبو فواز»

أقبل أخوه الأصغر على المجلس فلاحظ يد العبد على عاتق عمّوش والابتسامة التي تجمعهما، بصوت خفيض مررت شفتاه انتقاده: جعيرش لا يشبع من حكي العبيد!

في العقيق لا يسلم لأحدهم اسمه؛ يكون للولد - قبل أن يُفطم - لقب يبرز أسوأ صفاته، ويظل سلاحاً يستله الآخرون في خصومات لا تنقطع. لقب «جعيرش» دحرجه الأخ الأصغر بصوت خفيض لا تلتقطه أسماع المحاسيين، وأوضح من أن تخطئه أذن عمّوش. جحظت عيناه وطار في إثر أخيه.

أم عمّوش صرخت في وجه ابن ضرثها الهارب وضحكاته تفرق مع تكراره للقب السوء: أخوك عصابة رأسك.. ذا خيرك له؟!

مرق أمامها قبل أن تتم كلامها، لكنها حالت بين ولدها عمّوش وملاحقته، ثبتت ولدها وتفادت رغبة عارمة في الضحك وهي تنظر لشعره المنتفش. انتحت به في حجرتها ونصحته ألا يشبع رغبة أحد في استفزازه: ما دمت تجن إن رماك أخوك بهذه الكلمة فلن يدعها، وغدا يلتقطها كل غرّ في الجبل ويطاردك بها.. كن رجلاً يا عمّوش لا تهزه كلمة، ألا ترى أباك؟ «لو أطبقت الخضراء على الغبراء ما بان في وجهه شيء»

الروايات المتعارضة حول مريفة صرفت عمّوشاً عن الانشغال بحكايتها، لكنه ظل ينظر باحترام لعهدا حتى رأى دماء الوادين تسيل فجأة ولا يستطيع عهد الشجرة أن يمنعها.

ضحى ثار غبار الخبر، صيحات خيال رجل مقبل وعمارته تلوح بها يمينه  
قتلت طمأنيتهم، اتضح خيال الرجل وهو يتجه لحي آل هذال: يا أولاً لاااااا  
هذال.. يا ربعي يا أهلي.

- علمك؟

- لحقونا وذبحوا ربعي..

- من ذبحهم؟

- آل فواز.

- ذبحوهم كلهم؟!

- السبعة.. ما بقى إلا أنا.

مرارة حلوق الهذالين صبغت أحاديثهم، ينظرون جهة الجبل ويتعجبون:  
بيننا وبينهم عهد مريفة ألا يعدو أحدنا على الآخر حتى يعود مسافرونا  
ومسافروهم من البحرين!

- طمعوا فينا فخانوا العهد.. ولو لم أنج لما علمتم من قتلنا.. ولضاع  
دمننا.

- عز الله إنه ظلم.. وما أفلح من ظلم.

تعلو صيحات الشباب: فأفْلِحوا إذن.. اذبحوهم حتى لا يلزمكم بها  
العقيق في كل خِصْمة..

ويتلو مسنو آل هذال عهدهم تحت الشجرة، يحكونه كما لو لم يكن  
السامعون حاضريه، إنصاتهم لا تشوبه غير همهمات تأمين أو تذكير بتفاصيل  
أهملوها، ثم انفلت اعتراض فتى في طرف حلقته: لا خير في كلامنا إن لم  
نُفْنِهم اليوم قبل الغد.

آل هذال لم يهاجموا الفوازين من غدهم، انتظروا رجعة باقي غواصيههم، وكى لا يشيع خبر نيتهم أخرجوا حديث الحرب من البيوت للمسيل، على رمله الأبيض نثروا قلوبهم المشخنة، وبدأت ألسنهم ترسم ملامح انتقامهم، شفاههم تقصر عن أنيابهم، ووجوههم شطر جبل آل فواز، يمسح كبيرهم عارضيه يديه مقسمًا: «حرام عليّ أن يساق لي الفنجان حتى آخذ ثأر قتلائنا».

تقشعر جلود الرجال، وتعلو صيحات التوكيد، وينبري شاب فيخبط وجه الرمل: فوعدنا عند مريفة مثل ما خانوا عهدهم عندها.

تتبارز الأفكار في حلقتهم حتى تنضج خطتهم، يقول أحدهم: يعرفون أننا نريدهم، وسيستعدون لنا، وآل فواز أكثر رجالًا وسلاحًا.

يرفع آخر رأسه للسماء: الله معنا!

يأتي أحدهم باقتراح صادم: نستدرجهم لحينًا.

تجحظ عيونهم: تأتي بهم بين نساتنا؟!

يسم صاحب الفكرة مومئًا برأسه: نستدرجهم فإذا صاروا بين نخيلنا كان قنصهم أسهل.

- كيف نستدرجهم؟

- الحرب خدعة؛ نوهمهم أننا نريد الإبل، فإذا أخذناها ولحقوا بنا أدخلناهم الحي وشتناهم.

اكتملت خطة الغارة لتبدأ فجر اليوم التالي، توزّع الرماة بين الأبراج في أطراف الحي، عدا العبيد على إبل آل فواز، استاقوها لحيمهم، ورعيان الفوازين يذودونها ليردوها. في المسيل تتابعت الإبل عائدة من مرعاها ثم في وسط المسيل حادت على عادتها لترتقي سفح الجبل. يهجم فتیان

آل هذال ويوجهونها صوب حيهم وتتشتت، ورعاتها يذودونهم، وكي لا تفشل الخطة جرى أحدهم صوب ناقة مُطفل، أولج رأسه بين قوائم حوارها، أسند بطن الصغير على ظهره، وضم قوائمه المليئة بالوبر حول عنقه، ورفع يجرى به بين النخيل، والناقة التي أخذ فصيلها لحقته فتبعتها الإبل.

استفزع العبيد بأسيادهم: آل هذال. أخذوا الإبل، والتقط الفوازيون أسلحتهم. انحدروا من الجبل منشدين، ولفظهم المسيل على أول نخل آل هذال. انطلق الرصاص من البرج الشرقي، وتنادى الفوازيون: شَرَقْ شَرَقْ.

مال بعضهم نحو الرصاص، يرمون برصاصهم ورماحهم عدوا لا يرونه، حتى ينطلق الرصاص من البرج الغربي فيصيح أحدهم: قَبْلة. تزعزع الجمع وانشطروا: شَقْ شَرَقْ، وشَقْ غَرْبْ.

قبل أن تصل كل سرية لوجهتها انطلق الرصاص من البرج الجنوبي، عقيد حرب آل فواز أفزعه تشتت رجاله، وفهم بعد وهلة خدعة الهذاليين، صاح برجاله والرماح والبنادق تنوشه وإياهم.

بعد ساعة ارتدوا لجبلهم، ومن طارد من الهذاليين فلول آل فواز بلا حماسة تركهم حين صعدوا عاليه، شقت الشمس جيها الأحمر حسرة على العقيق فتلمست البلدة جسدها، أحصت عيالها فإذا قتلى آل فواز ستة ولا قتلى في آل هذال غير واحد انكسرت يده.

تعليقات كثيرة في مجلس آل فواز: جمل مبتورة تحاول استيعاب ما حدث. ثالث ليلة قال أبو عَمّوش: هذا عدد من قتلنا منهم غدرًا، لا زاد ولا نقص.

آل هذال أرسلوا بنيائًا لأهل الجبل: نريدك مندوبًا لهم.

– ماذا أعرض؟



يسوي شيخ هذالي وجه الرمل بقدمه: قل لهم «دمدوم وجرف مهدوم .. وننتهي عند ذا الحد، هم بدأوا ونحن استوفينا».

المندوب البنياني اعترضه حيه، وقفوا في وجهه يذكرونه ظلم الحيين لأسلافهم: الآن يريدون تدخلنا؟! أما أخرجوا جدنا بنيان من قصر أبيه؟ أما أرادوا أن ينهبوا نصيبه من النخيل؟ أما ظلوا سنين يحاربونا صفًا واحدًا؟! لا تسع لهم في صلح ..

يصد عن أولهم فيقف الثاني في وجهه: تريد آل هذال وآل فواز يدًا واحدة؟ هؤلاء ما كانوا متفقين إلا ولدغونا.

تعج أصوات الرجال فيخاطب المندوب شيخهم: أفتركهم يفسدون عهد مريفة؟! ومن يأمن أن يخرج الموسم القادم للغوص إن لم نقطع دابر الفتنة؟!

شيخهم الذي كان معارضًا قبل هذه الحجة رفع يدين كجناحي جارج: بل نُصلح بينهم ونزدم حفرة السوء.

يتحزم المندوب وبرمحه يصعد الجبل، يبسم في وجوه عابسة: يا بني فواز كلنا أبناء مانع، وأنتم وآل هذال أقرب إلى بعضكم بعضًا منا لكم أو لهم، كان بيننا عهد عند مريفة ونقضتموه، إن كانوا قد أغاروا عليكم فما تركتم لهم غير هذا الدرب .. أطفئوا نار حرب كلكم فيها تخسرون.

شيخ آل فواز يدق نجره بنغمة مختلة، وأصوات من حوله في المجلس كأنفاسهم تعلو وتهبط. قبل مجيء البنياني كانوا يحكون عن الغارة التالية، ويتخير كل منهم الرأس التي سيقطفها فيها.

دارت القهوة دورتين في حضرة المندوب، ودورة بعده، قال أحدهم: ما أرسلوك إلا لأنهم خافوا هجمة نكسرهم فيها كسرًا لا ينجبر.

قال البنياني: غدرتم بغواصين آمنين فقتلتم ستة، أما هم فقد جاءوكم في الضحى من النهار.. فقتلوا ستة.. ألا ترون أن هذا عدل الله؟! أما فيكم عاقل؟!

يومها اجثت الشجرة من وجدان عمّوش، وأقتنع أن مريفة لن تكون ضماناً ماداموا يتعاهدون ثم يخرقون عهدها متى شاءوا.

بعدها بعامين كان شارب الفتى قد خط تحت أنفه الرهيف، وغدا شعره المنفوش جديلتين تنسدلان على صدره النحيل وباتت التجارة هاجسه الوحيد، تولى قوافلهم عن أبيه، وكل عام قبل عهد الغواصين بليلة يقود حملته المغادرة جنوباً أو شمالاً، ولو ذكره أحد بمريفة فلن يزيد على أن يتحسر على بلدة أعجل ضربات أهلها في أجسادهم.

\* \* \*

يسمونه جبل فواز، وهو ثلاث جيالات متلاصقة، لكنها تبدو من بعيد كثلاث قمم لجبل واحد. على سفوحها تتراص بيوت الفوازين، يتسيدها على القمة الأعلى قصر وثيل، سمي القصر بهذا الاسم حين بناه أحد أحفاد فواز وغرس على حوافه أشجار الأثل لتحيط بالقصر كسوار أخضر.

سيد القصر أبو عمّوش، زاد حجراته لتضم زوجته وأخته الأرملة وحيالهما وزوجاتهم ومن يلتزم القصر من عبيدهم. ووثيل رحب ما دامت الخواطر طيبة فإن ضاقت ضاق. مجلسه مبني على يمين مدخل القصر، وكفي لا ينفلق بابه غرز بانيه وتدّاً في جدار المجلس الملاصق للبواب وشد منه حبلاً ثبته في إحدى عوارض الباب، ثم نظم في الحبل قطعة حديد مجوفة، تشد الباب باتجاه الجدار ليظل مشرعاً دائماً.

مجلس وثيل حجرة مستطيلة نوافذها المثلثة أشبه بمناخر صغار نائمين،

تستنشق النور وتزفر دخان وجار النار العريض، في صدره بنيت أرفق طينية بقباب كأسنمة، واصطفت عليها دلال القهوة الذهبية. على جدران مساند لظهور الرجال محشوة بالتبن، رائحتها تمتزج بعبق السمر في الوجار فتصنع له بصمة في ذاكرة مرتاديه.

يتسع المجلس لآل فواز ومثلهم معهم، ويتناوب رواده إحضار القهوة والهيل كل فجر، لا لأن تكلفة قهوة الجماعة ستعجز أهل القصر بل لأن إحضار القهوة وتحضيرها تأكيد على أنه مجلس الجميع، ومرتادوه سواسية في الحقوق كما هم سواء في الواجبات.

قبل الفجر يجلب العبد المسؤول عن إيقاد النار حطبه، يرتب بعضها في الوجار ويركن الباقي في طرفه. يستعر اللهب فيه فيرسل أنفاسه البيضاء باتجاه الباب. وتخالط رائحة السمر في الوجار ريح زيت السراج المشنوق بالسقف بين جذوع الأثل وجريد النخل المتعامدة.

يدخل فيحان الابن الأصغر لشيخ آل فواز، وجهه المثلث الصغير تؤطره سواف خفيفة، مع قصر قامته يتأمر وجهه الذي يتأخر في إنبات شعره ونزق طبعه في جعله هدفًا لمكايدات العبيد وتملصهم من تلبية أوامره. يدخل مجلس وئيل فيعطيه العبد ظهره، والفتى الضئيل مستعد دومًا لصراع قوة. رفع صوته: أما علموك أن تطفئ السراج متى اشتعلت النار؟! إنها تكفي أم أنك أيها العبد لأنك لم تملك حلالًا في حياتك لا يهملك أن تبذر حلال أبي؟! بعد هذا التقرع بلحظة قد يشير لدلال القهوة المصفوفة ويأمر العبد بأن يعد له قهوة حتى يأتي الرجال، يتشاغل العبد بالنار يذكيها، فإذا كرر فيحان طلبه تتمم معتذرًا بأن الشيخ لا يترك القهوة في يده، وإن كانت ليلة الفتى سيئة فسيكون نصيب العبد واقيا من النكد بعد أن يأتي فيحان من أمه بطبخة قهوة يجهزها العبد رغم أنفه.

على قهوة الجماعة تسرد الأخبار العاجلة على ندرتها، ثم تحصى أخبار النخيل والإبل قبل أن تجتر ألسنة الغواصين القدامى خيالات السفن التي ركبوها واللؤلؤ الذي جمعه، يتخرون ما يساوي من دراهم ويحسبون بإحباط ما أعطاهم نواخذة البحرين منه.

في حجرة أمه يكتحل عمّوش لرحلة طويلة، تحل أمه ضفيريته، تضمخهما بدهن العود وتضفرهما ويرخيها على جانبي صدره.

قلب الأم يعضه الألم، وتلوم نفسها لأنها لم تكثر في طفولته من حكايات الجن في أطراف النخيل، لم تقنعه أنها تقنص روح من يتعد. يقعد معها ساعة وينهض دون أن تسمع منه غير إجابات موجزة على بعض أسئلتها. تمطره بدعواتها وتحذيراتها ويجيبها بقبلة على رأسها وشيء كابتسامة.

ترتفع الشمس فيقف بباب المجلس متبينًا ظلال أشباح الجلاس، وتلتقط أذنه أطراف حكاية نوخذة يحذر أحدهم الباقين من ركوب سفينته: «من ركب معه خالفه طيب الفأل»

يرحب الرجال به فيتحرر ما علق بأفواههم من هيل، بعينه يتخير الشاب الرهيف كسيف مقعده بينهم، يشرق وجه فيحان: يا مرحبا! ويشير لمكان شاغر بجواره ليجلس فيه، يتجاوران فتعقد أذهان الفوازيين مقارنات بين الشابين، عمّوش الرجل الذي كل ما فيه دقيق حاد، عيونه، أنفه، أسنانه، شارب المهبذ وأصابعه، وربع ابتسامته المسحوبة لشقه الأيمن تطبع فيمن يراه ذكرى لا يمكن نسيانها، وفيحان الذي يلقبونه «الجبعة» لقصر قامته بعينه الجاحظة وجبهته الناتئة وذقنه الحادة.

يلتقط فيحان طرف قطعة سمر ترمد رأسها، يضغط طرفها لينكسر ويرفعها على بقية الحطب، يقرب دلة القهوة جهة اللهب، وينشد بيتي شعر لأخيه:

«تلقى مجالسهم مدهيل خطار ودلال صفر تعجب اللي نظرها  
هذي مراكاة وهذي على النار وهذي يدار بها على من حضرها».

علاقة الأخوين اجتازت أزमत طيشها، لكن مجيئهما من رحمين  
مختلفين مآزق سيمتحن أخوتهما دائماً، اليوم وعمّوش عائد من سفر  
سيكونان أخوين من ظهر رجل واحد.

ثناء الرجال على الشعر يطرب فيحان فيلتفت لأبيه الغارق في فنجان  
قهوته، يخبره أنه سمع هذا ليًا يقسم أن عمّوشاً أشبه أهل العقيق بجدهم  
مانع، يرشف الأب رشفة أخرى من فنجانه ويضج بعض رجال القصر بأن  
تاجرهم حسب وصف الأولين أقرب شبهاً لفواز منه لمانع.

أفحهم الشيخ: في ذمتي إن مانعاً وولده لو خرجا من قبريهما ما ميزتم  
ذا من ذاك (ثم حدّق في وجه ابنه فيحان) الشبه ليس أنفًا وعيون.. على  
الرجل أن يختار من يريد أن يشبه، ويترك عنه الحكي.

الكلام أحمى وجه فيحان الذي تدفق فيه الدم فانكمش ملتصقاً بالجدار  
ليستره عن الأعين، وبعد لحظات انشغل الرجال بحكاية أخرى وبقي هو  
ينعي حظه مع والد لا تعجبه منه كلمة، حتى حين يمدح أخاه المحبوب  
يخرسه الأب أمام الرجال.

أما تاجرهم العائد من الرياض فيشغله عن هذا الحوار تخطيطه للرحلة  
التالية للجنوب.

عمّوش يحرص دائماً على أن تضم قافلته رجالاً من كل الأحياء، يضع الشمس على حاجبه الأيسر ويمضي قليلاً حتى يجاوز أشجار السلم، وفي غبار القافلة تبدو قصور أهله كوجوه أرهقتها الحصبة، بعدها تستدير الرواحل لتتبع نجم سهيل الجنوبي. وكما يودع العقيق غواصيه تبسط النخيل جريدها على الأحياء الثلاثة فتبدو غابة واحدة، توغل القافلة في الرمل فيصمت حاديها وتبطئ الإبل. قافلة الفوازي هو أصغر من فيها، لكن خبرته في رمل الأحقاف تفوق ما يعرفه مرافقوه، رافق أباه وجده في هذا الدرب مذ كان صبيّاً، فعلمته الأيام ألا يغتر بسكون كثبان الرملية، وألا يرهبه نزق رياحه، يتقدم رجاله منشداً قصائد عديدة، غير أن رفاقه لن يرووا إلا قوله:

«والبحر ما الله كتب لي فيه عيشه      جعل رزقي فوق مومية الجبال».

أظلمت الدنيا، وحين كسلت الريح غفا الرجال، فيما ظلت نارهم ترقص في قلب الرمل مغرية الجن بالعابرين، يهمز أحد الرجال كراع آخر تطل من طرف عباءته، يرفع الغافي رأسه قليلاً، يرخي سمعه فيتأكد من أصوات الطبول العجيبة تقترب، يغطي رأسه مجدداً «يا ليل التراب».

في ليل التراب ينتقي جنّ الأحقاف من الرجال أشدهم خشيةً فيشاغبونه، كلما استدار لناحية حثت أجنحتهم الرمل في فمه. حين طلعت عليهم نجمة الصبح وجد الركب صاحبهم وقد لفظته يد الجن الهوائية بعيداً.

على قهوتهم فجرًا تخرص أمام الرجال عدد الجن مقلّباً يمينه: سبعة.. خمسة.. إن ما خاب ظني فهم تسعة.. كلما رقدت خطفوني بكراعي..

يستحلفه السامعون إن كان قد أحس بهم، ويرد متحشرج الصوت: سأموت وفي قلبي ملمس حراشفهم الأشبه بجلد ضب.

تستل القهوة تالي النوم من أجفانهم، وقبل الشمس يعودون لركائبهم،

طبول الجن تجعل القافلة تتيقن أنها تقترب من برهوت، يحاذون وادياً كشدق ذئب، ويتلثمون ساترين رعبهم وحذر أن يصلهم ريح بثره الأسود. في برهوت تحوم الأرواح الخبيثة، تغريهم بسراب الماء المتراقص حولهم، وتشغلهم بطبولها لتحرف دربهم جهتها.

لا يعرف رجال القافلة للخوف علاجاً أفضل من تجاهله نهائياً وتحديه ليلاً بحكايات الجن، ينفسون بتخويف بعضهم بعضاً عن قليل من هلعهم.

تلك عاداتهم في درب الذهاب والإياب، أما عمّوش فله عادتان لم يكن يخفيهما عنهم: الأولى أن يغيّر المسير الجنوبي الذي يرافق حملته بين وقت وآخر، والثانية أن يزور بيوت البصارات في كل رحلة؛ فإن لم تفتح رحلته بضاربات الودع أو الرمل فلن تختم دون الوقوف على باب عرافة، لكنه لا يسمح لأحد بمرافقته فيها.

بعد أن يصرف عمّوش حملته من التمر، وينتقى القهوة والعبيد، يترك لرجاله مهمة التجهيز للعودة ليميل صوب بيت عرافة.

بيوت العرافات تشابه؛ تنبذها البيوت التي يطمئنها التغافل عن الغد فتسحى في أطراف الأحياء. البيت الذي قصده حجراته ضيقة وجوفه مظلم، بالباب القصير انحنى ليدخل، صفعته الرائحة التي يعرف، خليط لا شيء فيه كبخور نساء الوادي إلا غمامته البيضاء، أما رائحته فغريبة على أنف عمّوش، ومهما اجتهد لا يميز غير الجاوي واللبان. شيء في بخور اليمانيات يريحه ويشوشه، يشرع مغاليق ذكرياته ورغباته مهما كتمها.

تقبل عجوز صامته، تجاوزت الستين منذ أمد لا يمكن تحديده، حفيف ثوبها الكالح واضح في صمبت البيت المطبق. فرشت سفرة صغيرة من جريد النخل، رmqته بذات النظرة التي تسبر بها العرافات جوفه. عروق كفيها الضامرتين خُضر، تبرز تحت جلدها المتغضن، وتملاً الكف بقع زرقاء

ككدمات لا تشفى. وضعت السفرة ورفعت صُرّة جلدية أمامها، سترت بها فمها، وتمتعت:

«يا ضرب فاطمة بنت النبي

عسى كل حاجة تنقضي

وكل همّ عَنّا ينجلي

صلّ على النبي».

رمت خليطاً تبعثر دون أن يخرج عن محيط السفرة: نواة تمر وعظمة ساق حيوان وأصداف بحرية صغيرة، وكِسر فناجين صين. صمتت تفحص ما تناثر في السفرة، فتبه عمّوش نفسه: كلهن سواء.. يُسمعن قاصدهن ما يريد.

دون أن ترفع رأسها وضعت سبابتها على عظم الأرنب وقالت: «كعبك نامر يا ولدي»

لم يظهر عليه فرح يبشراها، سألها: أتقولين بأن حظي طيب؟! أعرف هذا، عندك غيره؟

رمت ضاربة الودع رمية أخرى وعمّوش يحاول أن يقرأ مثلها ما تبعثر، ابتسمت وبشّرت: ستزوج أجمل النساء.

في الرمية الثالثة تدحرجت صدفتان وانكفأتا على حافة السفرة. زفرتها القصيرة نفثت في وجهه قلقاً آتياً. قالت: دربك يا ولدي لا يخلو من همّ.. لكن أمثالك ما عليهم خوف إلا من عدو في ثوب صديق.

ضحكته لم تزد عن نخرة خيبة، قال لنفسه: بشرتني فما فرحت فقررت أن تخوفني لعلها تلمس شيئاً في خاطري.



الفوازي يذهب للعرفات لا ليصدقهن ولا ليكذبهن، بل ليعرف متى يقلن الصدق ومتى يكذبن ومتى يجهلن وكيف يدارين جهلهن. التاجر الذي يدرّب حواسه دومًا على ألا تشي بغير ما يريد إظهاره كان يزورهن ليتعلم وليتمرن.

وضع أجراها تحت طرف بساطها، خطا خطوتين مغادرًا فنادته وهو يدفع الباب: لو كان الحذر يمنع القدر لوصيتك بأن تتجنّب الغار.

أنة بابها وهو يفتحه مع حزمة الضوء القليل على عيونه التي ألقت الظلمة أزعجته، بسط ساعده أمام وجهه ليحجب عنه الشمس وخرج.

في درب العودة ظل عمّوش يحسب حساباته؛ ستكون آخر رحلة على الإبل، ما معه يكفي ليشترى الموتر؛ الأعجوبة التي رآها في حایل.

حين كان أبوه يقود قوافلهم لم تكن حملته من اليمن تتوقف في الرياض كقوافله هو بل تكمل مسيرها شمالاً. كان ذلك قبل أن تفقد الحاضرة الشمالية مركزها.

لأبيه صفتان عجز كثيرون في الواحة عن إحراز إحداهما؛ فهو شيخ الجبل وتاجر العقيق، وبعد أن يأس حُصاده من منافسته ارتد جهدهم ليغدو نمائم يلمزونه بها، فبعد أن تطوى صفحة ابن رشيد يظنون يغمزون سيد وئيل كلما استدعى الأمر بيتي شعر تجعل علاقة ابن رشيد به علاقة سيد بتابع كادت تضع الفوازي في مأزق مع سلطان نجد الجديد، وكما تسرع النار في يابس العشب وقشور الحطب كان أردأ أهل العقيق همة أسبقهم لتصديق الاتهام وترديده.

عقلاء الواحة لا تخفى عليهم المغالطة في الحكاية التي يقصدونها، لكنهم لا يمنعون جهالهم من ترديدها، وكلما تخبّث خواطرم كانت هذه اللزمة بردًا عليها، فالحكي خناجر الواديين، يسبق غاراتهم على بعضهم

بعضاً. ويهمهم أن يحطوا قدر من يواجهونه لتقوى عزائمهم هم، بالإضافة إلى أن للتهمة لذة تؤكد بأن عاقبة الطموح سيئة، وتطمئن البعض بأن عجزه فطنة.

كانت المواجهة بين حاكم حایل وحاكم نجد قد بدأت حين اصطحب أبو عمّوش فيحان معه في الرحلة الوحيدة التي سيرافقه فيها، أردف سيد وثيل ابنه الصغير خلفه واتجها لحایل. لا يذكر الصبي الكثير منها، لكنه يذكر يد والده تسند جسده الضئيل حتى لا يسقط عن الراحلة، ويذكر اللحظة التي تغير فيها لون الرمل ونهضت فيه جلاميد صخر حمراء، يذكر كيف اعتدل أبوه على شداد ركوبته بعد أن تلفت صوب رفاقه، ثم بدأ يحدو بصوت يضحمه ويسرّع كلماته، قال له بعد أن فرغ من ترديد لحنه السريع وكلماته الغريبة: فيحان ردد ما قلت. بُهت الصبي حتى رأى بسمات رفاق والده فضحك ليجارهم. قال له أبوه: هذا حذاء شمري وهو للخيل.

الشيخ ذو الأنف المعقوف كمنقار جارح يظهر مزاجه الرائق حيث لا يتوقعه أحد. وظل دائماً يربك فيحان إن لم يغظه.

بعد أيام دخل الفتى وأبوه مجلس ابن رشيد، علّق الأب سيفه وبندقه على جدار مضيفه، ولم يخف انبهاره المعتاد بالمكان، فلديه اليوم عذر جاهز للإفصاح عنه. بدأ يلفت نظر صغيره لكل تفصيل حولهما، عيون فيحان تدرس عواميد المجلس المبرومة وتيجانها المربعة، ويلفت أبوه نظره لهيبة انتظار القبائل للأمر وتحضرهم في مجلسه.

أديرت القهوة في المجلس ثلاث دورات، تناوب فيها شيوخ قبائل ومندوبوها رواية أخبار من وراءهم، أما ختام الزيارة فسيمنح العقيق أسابيع حكي في سيد وثيل.

أدانت الواحة أبا عمّوش وراهن هو على الأيام لتحكم الأيام إن كان

أصاب أم أخطأ، ما يتذكره فيحان هو أن ابن رشيد استبقى والده حتى غادر أكثر الحضور وباغته بسؤال: على كم من الرجال تأمر يا بن مانع؟

حافظت قسمات الرجل على رزانتها، وأسمع الأمير ما يرضيه، ثم خرج من أعطاف حایل صامتاً، يعرف أن رجاله ينتظرون منه تفسيراً ولا يقدمه.

في الدرب يطري تنظيم ابن رشيد لرجاله ولمجلسه ولحایل كلها: أكاد أحلف أن سوره أرفع من جبلنا، رجاله يسدّون عين الشمس، وثيابهم واحدة.. (يتلفت في رفاقه ويرفع صوته) هية! وحدود حایل كلها يمشي فيها الوحيد فلا يرجف قلبه.

أناخوا إبلهم والتقطت أذن فيحان شوارد ألسن الرجال، ركبوا مجدداً وشاء الصبي أن يبهر أباه بنبأته، كرر لوالده كلام المرافقين بأن تقديره لرجاله غير دقيق، فابتسم الشيخ التاجر: ماذا أردتني أن أقول له؟! أقول رباعي فروخ جن لا يعرف نواياهم غير ربهم الذي خلقهم؟! أقول لابن رشيد إني إن استفرغت بأهل العقيق يمكن أن يجيء معي من أطراف الوادي حتى الذي لم ينبت شارب.. وربما سخر مني حيي وعصّوا علي حتى عبيدي؟!

- لكنك قلت له معي ثلاثة آلاف رجل، والوادي ما فيه نصف ذا العدد!

رمقه بنظرته الكاوية، تضائل الفتى حتى غدا سنام الراحلة أرفع منه، ثم أوماً بيده في إشارة خيبة موجهة: ستغدو تاجرًا ولا تعرف الحساب! نصف التجارة حكى.

لم يفهم فيحان علاقة التجارة بالكذب، وعوضاً عن أن يشرح له الأب ما استغلق اختار أن يفظم بوادٍ التردد فيه، أثب بنبرة جافة: فيحان إن لم تعرف كيف تحكي فالنخيل أولى بك.. تخرف وتصرم وكفى.. وحسابها يعرفه الأعمى في الضحى.

تعود القافلة للعقيق، ويكون الصبي قد أقسم والغصص تتحشرج في حلقه ألا يصاحب والده ثانية، أخافه أن يذهب بقوافلهم بعيدًا ويرجع مواجهًا لسان أبيه العادل.

قرر فيحان أن يكون عقيد حرب حيه: إذا صاح نذير غارة بين النخيل رأى الأعمى في الضحى شجاعتي، وربما يعتدل قلب أبي المائل فيراني كما يرى عموشًا.

نفشى تعهد شيخ آل فواز لابن رشيد في الواحة، فلمزت الألسن الفوازي، وبعضها حاسبه بسؤال جدوى انحياز له فئة تتعارك على سلطة: «حرب أبعد ما الله وأنت تجربنا لها» وكلمتك للحايلى ستلزمك وتلزمنا من ورائك.. ها قد تواجهها في الرياض وغداً يغزوه ابن سعود في قصره، فإن فاز ابن سعود فلن يكون لك من نارهم إلا دخانها.

لا يجادلهم التاجر في وعد قطعه لأمر حايلى، وبعد أن تثبت الأيام أن حسابات السياسة لا تعتمد على الولاءات المطلقة يظلون يلمزونه.

حي آل هذال درس الحدث وعواقبه: يتعهد بنصرة ابن رشيد في حرب لا نعرف مصيبتها من مخطئها، ويجرنا وراءه دون أن يستشيرنا. يرد آخر واثقاً لأنه تأكد من هذه النقطة تحديداً: الفوازيون لم يرضوا فعله.. عدلوه.. لكنه لم يسمع لهم.

مجلس آل بنيان بعد أن وصلته زبدة حكي الحيين قيلت فيه كلمة بمرارة: ولماذا يراعيينا أو يستشير حيه.. إن أعطاه ابن رشيد مالاً استأثر به لنفسه، وإن انكسر الحايلى وجاءنا ابن سعود ليأخذ الفوازي فزعنا مع ولد عمنا غصباً عنا.

صالح غواص هذالي مات تاركًا هلال نخيل يحضن حي آل هذال جهة  
البنانيين، نخيله تنافس نخيل جاره الصانع كأفضل نخيل العقيق؛ في نخيل  
الجارين لن تجد أكوام الجريد المغبر مركومًا بكل ناحية، جداول مائه  
المستقيمة تقسم نخله حسب أعمارها أو أنواعها، الحشائش الضارة لا  
تعطيها أيدي أهل النخل أي فرصة لتعشش في أحواض النخيل.

كان صالح وحيد أمه التي خافت غيابه إن رافق الغواصين، اعتادت مذ  
كان رضيعًا أن تقطع أي سيرة للبحرين بدموعها «أنا أرسل صويلح للبحر؟!  
لو أموت من الفقر أنا وهو ما راح.. لو كبر وغاب ثلاثة أشهر سينقطع قلبي»  
يفتك بها هاجسها فتلصقه بصدرها، يتشمم أنفها شعر ناصيته الأسود القليل  
وتجهش بالبكاء: فكيف لو بلعه البحر؟!

في سن الثانية عشرة ذهب صالح للبحر مع أقرانه ليخرس نبوءتهم بأنه  
هو من بينهم لن يغادر حضن أمه، تبع أول قافلة فرفضت أخذه، أما رجال  
الثانية فنهروه رافة بأمه، لكنه جرى خلف آخر قافلة، وبعد مسيرة يوم طويل  
أناخوا ركائبهم ليجدوه فجر اليوم التالي على رؤوسهم.

«أم الصبيان» الجنية الجبارة حين رأت خطواته المصرة على هشاشة  
جسده قالت لنفسها: قد يكون شغلي معاقبة كل من يخطئ في حق ضعيف:  
أنتقم للعبيد من أسيادهم إن آذوهم، وأحرق نخيل من يعذب القطط في  
أطراف النخيل، لكنني أشفق على هذا الصغير؛ يتيم تنبذه كل حملة غواصين  
باسم الإشفاق على أمه.

تبعته وهو يجري خلف المجموعة ويختبئ عنها في ذرا الشجر، رافقته  
تحميه من هوام الصحراء، أوحى له أي نباتاتها يتجنب مهما جاع، وحين  
غفا منهكًا وخشيت أن يفقد أثرهم خبطت الأرض بجواره حتى ثار رملها،  
وحشت بعضه في وجهه لينهض.

ثاني يوم وبعد أن قطعت المجموعة مسافة لا رجوع عنها أوحث لصالح بأن يظهر لهم نفسه.

في البحر لم يحتج الصبي أي إرشاد، سنّه الذي بدا مشكلة في أعين رجال العقيق رآه نواخذة البحرين ميزة، وخلال ثلاث سنوات كان صالح الوحيد في الهذاليين الذي ترقى لمرتبة غواص.

ماتت أمه دون أن يبلعه البحر، وأورثت خوفها لامراته، لكن السل الذي أصابه البحر به هو ما قتله في نخيله.

أم جابر ترملت قبل أن تبلغ الأربعين، فترك الموت في جسدها بصمة الأرامل اللاتي فقدن رجالهن بعد مرض قصير، النساء اللاتي رأين الموت في معركته الصعبة مع الجسد البشري، فاقننت أن مواجهة كهذه يمكن تأجيلها كثيراً ويمكن أن يتصر الجسد البشري فيها. انشغلت مذ مات صالح بإبراز قوتها، تتعامل مع أي عارض صحي بعناية بالغة وكأنه الطعنة الأولى في مبارزة طويلة يجب أن تتصدى لها بطاقتها كلها، ولا يجب أن تن ولو للحظة.

بخلاف الدموع أول عزاء صالح لم تسمح للدنيا بأن ترى ضعفها. بعد اعتيادها غيابه صارت تداوي ذكره عندها بسرد حكايات عشيرها كما رواها لها. وذاكرة أم جابر مليئة بالحكايات، التي وهبتها عقلها الراجح، وغدا فهمها للأحداث ورأيها فيها مرتبطين بنسق الحكايات التي تحفظها. كانت ذاكرتها تحكم رؤيتها لكل شيء، فإذا سمعت خبراً لا تستطيع ربطه بحكايات مشابهة في ذاكرتها ظلت تحوم في مسكنها، تنبش زواياها بحثاً عن أي عمل يشغلها، وهذه الطريقة تصقل ذاكرتها وتخلق الرابط الذي تحتاجه مع حكايات قديمة، حتى نصائحها التي تتبرع بها قبل أن تطلب لابد أن تسبق أو تختتم بحكاية.

ابنتها نفلا لا يكاد يذكر اسمها في حي آل هذال إلا أردف بانبهار لا يتقادم بجمالها، واثنتى بالعبرة الشهيرة: «أن لكل من اسمه نصيب» مهارة البنت في البيت أعتقت أمها من كثير من المسؤوليات باكراً. يحلفون ألا فتاة في الواحة جمعت الأمرين قبل نفلا ولا بعدها.

أمها يبهجها الشاء فتؤكد جدارة ابنتها به: نفلا مبروكة.. حتى ولادتها كانت يسرة.

لا تنسى أم جابر توقيت ولادتها فقد جاءت تالي سيل جبار، روضه أسبوع صحو بعده، وحين بلعت الأرض ما وسعها من ماء أغرتها رفيفات بالسيل: لك أسبوعان يا أم جابر لم تتعدي فيها النخيل وما ولدت.. رافقينا للسيل لعل الله يسر لك!

رفيقاتها يجربنه بسيقانهن، وأكفهن المحناة تغرف بعضه. حامت أم جابر على ضفته فتحركت أحشاؤها، كذبت أول التقلصات حتى سال ماء شفاف على فخذيه.

ستقول الرفيقات بعد سنوات أن صيحات مخاضها ضاعت في ضجة طبول عبيد على الماء، أما هي فستقصر روايتها على أن أول ما سمعته نفلا الطبول، وأن أول ما رآته الماء والرقص. غسلت النساء المولودة وقطعن سرتها وألقينها في السيل فنشأت نفلا تحبه وتعشق الرقص على حافته.

في حي آل هذال لفتت نفلا الأنظار ممهودة بملامحها الواضحة، وشعرها الكثيف، وحواجبها المزججة، وكبرت لتبهر الحي برقصها، وتؤرخ به نساء الوادي أحداثه.

مع الرقص كانت نفلا أسيرة الإطراء، من يرصد يوميات الصبية يجدها يوماً واحداً ينتهي ليبدأ من جديد، ما إن ترفع الشمس عن رمل العقيق لحاف العتمة حتى تنهض، تتجه صوب مريفة، تحطب لتعود قبل الضحى، ترتب الحطب في

مطبخ أمها، ثم تسقي نخل أهلها، تحصد للغنم فتحلب الإبل، وتختتم يومها بعد أن تكنس باحة بيتهم فتتوسط أبويها لتسمع ثناءهما، ولأنه يجلو التعب عن روحها تستدره كما تفرك هي دلال القهوة الصدئة لتعيد لها لونها الذهبي.

في أول النخيل صوت نداء: يا آل صالح! تميز نفلا صوت مشاطتها مسيكة، العبداء التي حملت اسم نبتة رملية أخذت من أزهارها لونها فلم تكن سوداء كبقية قيان الواحة، وهذا امتياز ستغرم الرفيقات إياه، لكنها كالمسيكة صبورة.

للمشاة رمحية القد مع نسوة البيت تاريخ طويل، ورثت مسؤولية تصفيف شعر أم جابر عن أمها، وهي التي نقلت ظعنهما ورافقتها لبيت صالح وهي عروس، وفي ولادات أم جابر كانت معها تعاونها في نفاسها، وحين كبرت نفلا لم تكن بحاجة لتؤكد استحقاقها لتكون مشاطتها أيضاً، فسرعان ما صار موعد المشاط الأسبوعي للأم ولا بنتها.

مسيكة تغمزها رفيقاتها بأن حظها مائل، فكل البيوت التي تزورها عدد البنات فيها قليل. الحجج التي ترد بها عليهن كثيرة وتخبي أفضلهما من وجهة نظرها للآخر. تؤكد أن العدد ليس المعيار الوحيد للريح في مهنتهن، تنصب في وجوههن يديها فاركة سبابة كل يد بإبهامها كما تفرك جنيه ذهب عتيق: ويلكن على نفلا تمشطن شعرها ولو خسرتن نصف ما بين يديكن.. أنا أمشط الزين كل أسبوع وأنتن تلقطن القمل من الرؤوس.

تحلف المشاة لمشاكساتها في حلة العبيد أنها لا تأتي آل صالح لأجل ما تقدمه أم جابر: «لو قال آل صالح والله ما نجد عشاء ليلة فنعطيك» لمشطت شعر نفلا.

ما تنهامس به صاحباتها في حضورها مرات وفي غيابها أكثر أن كل شباب العقيق اليوم يدسون في يديها ما يستطيعون لتذكرهم عند الفتاة.



إناء مشاط مسيكة الصغير على رأسها ومشطها الخشبي مغموس فيه،  
تدخل مع نفلا الساحة المضلعة بين حجرات البيت، وترحب الفتاة مستمر  
ويدها في أول ضفائرها تحلها.

تحضن العبدة الشابة وتحل ضفائرها، تحرك بمشطها مزيج الورس  
والورد الطائفي المطيبين، يزفر الإناء طيبه والمشط يقلبه بخفة، ثم تسرح  
شعرها الطويل وتغني:

«نفلا مثل شمس الغيم شكن منها الصبايا الضيم»

تضحك نفلا: في رقبتى أن ذي الكلمتين تغنيها علي وأنا أضع.. ما  
عندك غيرها؟!

تهرش القينة شعرها لتبحث عن نشيد آخر، ونفلا تكمل التعبير عن  
امتاعها: ذا يغنى على الشينة قبل الزينة.

تهمس مسيكة في أذن نفلا وعينها تبحث عن أم جابر:

«لعيون نفلا تكسرت الفناجيل هذا لعينيك يا ظبي الفياح  
وإن كان ما جا رداد للفناجيل فالحال بيني وبينك مستباح»

تشهق نفلا حين تسمع الأبيات التي شاعت في العقيق، ونسبت لشباب  
عدة كان أهمهم عمّوش الفوازي. تضع نفلا يدها على فم المشاطة فتضحك  
مسيكة وتزيح يد نفلا لتبقيها في راحتها: رأيت.. عندي كثير، ولولا خوفاً  
من أملك لما غنيت إلا شعراً ما قيل في سواك.

يتورد وجه البنت فتعيد المشاطة للحديث احتشامه، وتعسف مع ضفائرها  
نفلا العديدة ما مر على سمعها من حكايات وهي تنتقل بين البيوت.

تحرث عراقيب الصغار المخضرة الرمل، قبل الحليب يُلُون أفواهاً  
ييست عليها أحلام ليلية بماء البرك في النخيل، ينهبون ما تعرضه الجداول  
من خضرة، ولا يبتعد لعبهم عن الماء، وحين يتعجل غلام الاصطفاف بين  
رجال الواحة فسيجرب اختبارات لا يطالبه أحد بها، أولها السباحة في بئر  
هادي.

على اسم هادي بن مانع سُميت أول بئر حُفرت بعد أن غاب، بعد أن  
غابت شمس مانع بسنة ذهب الفتى للجنوب ولم يعد، قيل إن لصوص  
الدروب اليمانية قتلوه، وقيل استدرجه جن وادي برهوت والتهمه بثرها،  
وقيل سحرته زيدية وأبقته عندها.

ماء بئر هادي حُفر بعد انقطاع خبره وظل لسنين يسقي نصف نخيل  
الواحة، اليوم ماؤه لثلث الهذاليين ولأكثر نخيل آل بنيان في نظام متوارث،  
ومن يجرؤ على المساس بمواقيت سيره فسيؤذن بإراقة دم.

فم البئر ينحدر بتمهل شديد للأسفل، بعد ثلاثة أمتار يمنح من ينزل  
فيه دكة تتسع لخمسة صبية، تحتها تظهر الأحجار التي رصفت بها سواعد  
الأولين جوانب البئر.

البئر لأهل العقيق في النهار أما في الليل فللجن، يحذرون صبيانهم بأن  
من يقترب منه سيطيّر به «مصعق» فلا يجد له أهله أثراً، أو تستعمر «أم العفن»  
أطرافه فتنتن لحمه وهو حي، أو تدق أم الصبيان عنقه فيموت من ساعته.

على يمين البئر بركة يُخْتَن عندها صبيان العقيق. جابر بن صالح الشاب  
يقف على حافتها ويسبر ببصره المدى المكشوف له من حي آل بنيان لعل  
ابنة خاله تظهر، وحين تتأخر يعدل مجرى الماء صوب نخيلهم، وينصت  
لصوت انسيابه في الجدول، يتذكر البحر ويتعجب من الصوت الذي يطرب  
روحه هنا لماذا لا يحركه هناك؟! أليس الماء هو الماء؟!

يقف الهذالي مسترجعاً الوقفة التي ارتوت فيها البركة تحت مصب بئر هادي من دمه، يتذكر المختن عند جدارها، بسكين حدّ شفرته، يتسم حين يسترجع نظرة العبد في وجوه صبية أطولهم لا يكاد يصل سرتة، امرأته تفتح صرة الريحان المجفف لتوقف به نزيههم متى جزرهم رجلها. يشير عشيرها لأولهم بأن يتقدم، ويهوي قلب جابر ومجاوره بين أرجلهم، يأكلهما القلق والمختن عازف عن تطمينهم، زوجته ترفع ثوب الولد من دبر، تبرمه وتدخل طرفه في ياقته خلفه، تنكمش مؤخرته المتشنجة حين تخبط فلقتيها لتدفعه صوب زوجها، وتضحك: «إي بالله أما اليوم ما عندهم همس ولا رمس»  
يرد المختن وهو يدمي الولد: غداً يرجعون للنخيل كعصافير سدره.

بعد لحظات انتهت العبدة من خمسة جرحى غطّستهم في الماء، وعادت تخطفهم وتفرك أفخاذهم بالمسحوق العطري الجاف.

ابن صالح يتفقد غرساتهم الجديدة؛ فبأول الخريف ينزع أهل النخيل الفسائل عن أماتها، يحفرون قلب الرمل، يديرونه كأعشاش عصافير ليحضن الغرسة التي فطمت للتو، يغرسونها مميلينها صوب الشمال، ويجذبها سهيل الجنوبي فتعتدل، بعد أن يجفف ألم البتر سفعها تعاود كفاحها وتخضر.

مثل الفسائل المنزوعة سيفارق جابر أمه ونفلا، قوافل الغواصين غادرت وانتظر هو آخرها متردداً. سنة أخرى سيذهب فيها ويترك للمرأتين مسؤولية النخيل. يأخذ الجدول للمقفزية المسماة باسمه، تقول أمه إنها شيخة نخلهم وسقفه، فسفعها المنشور يطل على حيين بالعقيق ويطاول جبل الثالث، ترتوي من الماء قبل النخيل ومعه وبعده.

ينصرف عنها جابر لعستهم، تأتيه أمه بماعون حليب دافئ، رغوته كزبد أول السيل، يشرب منه وشعرات من ضرع الناقة فوق الرغوة لا توقف جرعاته الكبيرة.

عشة آل صالح لا تشبه إلا نفلا وأمها، قبل أن يموت صالح بسنة ركز مع ابنه جذوع نخل أربعة، ثم سقفاها بالأثل والسعف، وشداً تاليه على جانبيها بالليف. أسلما العشة لنفلا وأمها. ردمت أيديهما أرض العشة برمل مسيلهم، بنتا عتبتين لمدخلي العشة، ومدتا أطراف عنبه غضة صوب العشة حتى غدا العنب سقفاها.

يتفحص جابر العنبه بحثاً عن عناقيد تبرعت بآخر الصيف، يقلب أوراق العنب المصفرة ويضحك من عادته الطفولية حين يختلس ما لن تلاحظه أمه من عناقيد ويلتهمها وهو يتلفت باحثاً عن صوتها الناهي.

عنقود وحيد يتدلى، حباته الشفافة لم تتورد حوافها بعد. يضغط حبتين بين نواجذه مغمضاً عينيه توخياً لطعمها الحامض، فتنفجر وينتشر ماؤها السكري في فمه.

يقعد محل أبيه ويستمتع لوصايا أمه قبل السفر، وقبل أن تختتم كلامها يرفع رأسه للسماء يتشممها وينادي نفلا: «أدخلي الشريح؛ ذا الليل إن شاء الله مطر»

ترفع الأم رأسها وتكرر أمر فتاها، ثم تفكر بما قد يجعله يرجع أسرع من رفاقه فتهمز: أمس كان عند آل بنيان عرس.. حضرته وحلفت إنك بعد أن ترجع من الغوص سندخلك على بنت خالك.. ومضى مني نذري جابر بأن أرقص في عرسك ثلاث ليالٍ.

سيرة الفرح تجذب نفلا، تقبل عليهما ترقص وتغني للعريس، لا تقنع منهما بابتسامهما؛ تشد يد أخيها ليراقصها وتشير بأناملها لإناء الحليب الفارغ، تقلب الأم الماعون وتطبل عليه لولديها.

يرقص الاثنان حتى توقفه أم جابر فجأة وتأمّر ابتها: إن كان الشريح قد جف فادخليه.

تتجه الفتاة للحم المقدد على جبل بين نخلتين، تكسر طرف قطعة، ثم تجمععه في ردها.

تظهر الأم كثيرًا منه للمسافر، وتحزن نفلا حين تراها كل لحظة تعود بقطعة أخرى وتضعها في القدر: جابر يحب اللحم.

جابر يحب مطر العقيق، أراد أن يتزود من رائحته وإحساس جسده بقطراته الأولى، انتظره حتى الثلث الأخير من الليل، ثم ركب ذلوله وغادر محاذراً إيقاظ أمه. قبل الفجر انهمل دمعها ثم المطر، وفي الصباح قصد من بقي في العقيق من رجال مجامع السيل وراء مريفة، ولم تتوقف خطاهم حتى لمس لسان الماء المزيد أرجلهم. ضحى اليوم التالي غسل لسان سيل واهن جذع شجرتهم، لو كان أغزر قليلاً لنهب صغار الحصى واليابس من أغصان الشجر وكحت عن وجه الوادي الجفاف.

راحت نفلا وعادت وأمها كطير حبارى نهب أحد فراخها، تدور في حجرات بيتها، وقبل أن تجف دمعتها تخرج قطنها المخرون، لم يكن بحاجة للندف لكن روحها التي يسوطها الهم تبحث عن صورة حولها تطابقها.

قبل أن تنتهي منه، بأجفان ندية تُخرج قطناً لم يجّهز للندف، تفصل قلب الزهور البيضاء عن بتلاتها اليابسة، تنظفه ثم تكومه على القطن المندوف، وتوجهه بأعواد الأثل اللدنة.

بعد ساعة تجف دمعتها وتهداً قليلاً فتبدو كملاك في غيمة، ينتفش القطن حولها كسحب صيفية، وتسكن ساعة أخرى غارقة في تفكير ينقذها منه صوت جارتها. يصلها النداء من وراء جدار الشرف الفاصل بين مدخل بيتهم وجوفه: يا أهل البيت!

تكون «يا مرحباً» إذناً كافياً للضيقة لتدخل. تشر الجارة عن ساعديها وأم جابر تجمع القطن الذي تبعر حين نهضت. مع السلام تتحرص سبب

الزيارة، فليست المرأة أقرب صاحباتها، لكن شياطين الألم تقود المروج لمروج مثله وإن اختلف سبب ألمهما.

دون انتظار طلب تبسط الجارة القماش المكوم، وتحشوه بالقطن الذي نفشته أم جابر، ثم تهمز فخذها متحاملة على نفسها لتبتسم: كم ملحفاً جهزته لعرس نفلا حتى اليوم؟

تتفق المراتان على أن النسوة في بيت أهل الزوج سيحصين عدد ملاحف العروس، وكلما زادت رجحت العروس في ميزان نساء بيتها الجديد، وكان جهازها أول رسالة عن تقدير أهلها وأنهم لا يزوجونها ليرتاحوا من مسؤولية إعاشتها.

تضحك أم جابر وترحم على روح صالح، ثم تسأل جارتها عن حالها لتصرفها سريعاً عن السؤال المعتاد: متى تتزوج نفلا؟ ولماذا تردون كل خطابها؟

طرحت أم جابر سؤالاً تنتظره ضيفتها، سمعته فانفجرت باكية، وبتمتمات غير واضحة باحت بما يوجعها: خنقتني الجدران وضاق بي بيتي.. قلت ما لي إلا أنت.. رفيقي أعرس.

السنة أهل العقيق تستل الكلمة من بين مرادفاتنا لتضعها بدقة في موضعها المناسب، وقد يبدو الخيار بريئاً أو غير مقصود لكنه دقيق جداً، وفي علاقة الرجل بامرأته ستكون شوقه إلا إن فترت علاقتهما فهي رفيقته.

لم يكن بوسع أرملة صالح أن تقدم كلمات مواساة كثيرة، لذا قطعت ولولة جارتها بحكاية قديمة تشبه رأيها الذي تريد التصريح به، ذكرتها بأب البلدة الأول مانع حين جاء يخبر أم عياله بأنه سيتزوج أخرى: أم هذال تركته حتى أوقد نار عرسه.. لكن وقبل أن يجس ابن هادي جسد عروسه الجديدة خطفت ملحفاً وقذفت في وجهه قرارها.

- ماذا قالت؟

- قالت «هذا فراق بيني وبينك»

أم جابر تسرد هذه الحكاية في حالتين: إن جاءتها امرأة تبكي نية رفيقها الزواج بأخرى، أو إن شكت بعض اعوجاج طبعه. الفراق خيار سقته الأيام أم جابر جرعة واحدة حين نزع الموت منها صالِحًا وتركها مع صغيره فلم تمت.

يُبكي حل أم جابر الجارة المقهورة أكثر، ولتضرم نارًا أشد في جوفها نهرتها: لا تفكري فيه.. والله لو قلت وأنت صادقة في اللعنة التي تلعنه وتلعن من جاء به لعاد يجري نحوك!

تجتاح الجارة نوبة بكاء أشد، تجرّب لأول مرة أن تلعن رجلها بين الشهقات، وسرعان ما تتقل من اللعن لتخيله يخرج من حجرة العروس وطيبها عالق بشعر رأسه وعارضه. تنوح مرهقة سمع أم جابر بتتبع كل شبر في البيت ستطوّه قدم الجديدة، تصف لها ما ستشعر به هي حين ينادي رفيقها عروسه أول مرة، تشكك بأنها ستحتفظ بهدونها: سيركبي عشرون جنيًا.

ترفع وجهها الأحمر المتورم: هل سيختلف صوته وهو يناديها؟ دون أن تنتظر رد أم جابر تنشج، فتُمسك هذه بسابقتها وإبهامها خنصر الجارة وتنفضه: «انفضيه نفث الرداء فإن كان فيه نصيب ما غدا»

الجارة تحمّلها أم جابر مسؤولية لا تطيقها، وينسحق وجهها بين يأس وهلع فتشق جيبتها لاعة حظها.

تسد أم جابر فمها بيديها: استرينا.. استرينا.. الله يفضحه!

تلوذ الجارة بالصمت، تهجع أنفاسها وتدعو الله بأن يقهره كما قهرها. سكية جسدها المكتنز تغيط أم جابر، وتذكر أخيرًا أن تسألها عما ستفعله،

كلماتها المتقاطعة لم تمنع أم جابر من أن تسقيها جرعة نضال أخيرة. ودعتها وضحكت نفلا التي ظلت تسمع الحوار من حجرتها: جاءتك بجرح في إصبعها لتمسحي عليه فقطعت كفها من مفصلها.

قالت الأم: نصحتها بما لدي، وأعرف أنها لن تسكت له. حلفت البنت لأمها: والله لو أخذ ثلاثاً عليها ما نطقت بكلمة.

– ربنا وربها الله!

شقيق أم جابر البنياني دخل على نقاشهما فسألهما: خيرًا إن شاء الله؟! تسرد أخته الحكاية فيضحك هو أيضًا: أفا! هذا رأيك وأنت العاقلة؟! تشيرين امرأة على رجلها؟!

أشار لنفلا لتأنيهما بقهوة ثم أوقد شعلة في سرداب مظلم صنعتها أخته لصاحبتهما: كل الرجال يتزوجون، إن قصر في حقها فلا يجب أن تسكت.. ولو شكت منه لرجال حيه لخطأوه كلهم.. ولعل الله يرده لها بعد أن يجرب غيرها.

\* \* \*



## (2)

«ديرني من الحسد مشحونة من الجلاميد إلى هنلان  
مير سعد أبو من زارها وأتقهوى مع جمعان»

للمل طباع كال بشر، أقربه من مساكنهم يستمسك بموضعه، قلبه يابس  
ووجهه مَرَاغة تذروها الرياح كي لا تنسى طبع الحركة، يتعد عن منازلهم  
فيتخذ وجهه بالحصى، وعلى ما يظهره من صلابة يخاتله نبت الصحراء  
فيتفتق في مسامه الحرمل والعشر، في الشعاب التي يشقها السيل تنهض  
أشجار السلم أو السمر فيسحق توالي الماء والجفاف وجهه وتطرقة أخفاف  
الإبل، ينفرش وتسيل من جنبه الرمال جزوعاً قباية لا يعمر فيها إلا الثمام،  
فإذا غدا وحده في الأرض تكبر بعضه على بعض.

عائداً من رحلته يتهلل وجه تاجر آل فواز حين تلوح له أشجار السلم التي  
تحضن واديه من جهته الشرقية، ينظم أبياتاً وينشدها رفاقه، ينشط بها همهم  
التي تكاد تنطفئ، يرويها عنه رجاله فيستيبه أبوه عنها: ههههه.. غربلك الله!  
ما لقيت إلا جمعان؟!

يعتذر بربع ابتسامة: جاء على درب القصيدة. يضحك الشيخ على طرفة برأسه  
قبل أن يقولها، وبعد أن يشيع قهقهة يرويها: كنت سأقول سؤد الله وجه جمعان الذي  
جاء على درب قصيدك يا عموش ثم تذكرت إن لا يمكن أن يصبح أشد سواداً.

في مجلسهم يناقش رجال آل فواز عموشاً في جمعان، ولا يناقشون  
الحسد الذي شحن به العقيق، حيث لا يوجد شيخ لا يشعر أنه محسود.

على قهوة آل هذال تحط الأبيات فيتلقفها البعض كخبر الموسم، والأخبار قليلة في الواحة، يتندرون بالحكاية، أما من تخبثت خواطرهم لأن عمّوشاً لا يصطحبهم معه في حملاته فقد حرثوا المجلس بالحكي: يتقهوى مع جمعان؟! والله إنّا أقرب له منه..

يصب أعقلهم بعض الماء على ما يوقدون: عمّوش فحل، قهوته مع جمعان تلمّ طرف آل فواز على بني بنيان.

آل هذال كالفوازين سيبحثون في أسماء عبيد قصر وئيل الكثر ليتفهموا وجهة نظره، يقرون أن ليس في أسماء عبيد وئيل ولا أسوأ ألقابهم ما يناسب قافيته، وبعد أن يوشك المجلس على نسيان بيتي الشعر يهدر مصعق في صدر أم فيحان، مثير الخصومات ذكّرها بأن اسم ولدها متسق مع قافية شعر أخيه، ظل الجني يتخبط في زوايا حجرتها يضيق عليها أنفاسها حتى استدعت فتاها وأكلت كبده بأسئلتها الحارقة: لماذا يريد أن يتقهوى مع العبيد؟ أليس كلما احتشد المجلس أجلسك بجواره وقال فيحان أخي ولدي قبل عيالي؟! ألم يقل لو صار لي عشرة ذكور ما أحببت أحدهم نصف حبي لأخي؟! أما كان يصح أن ينظم القصيدة فيك ويتقهوى معك؟!

توجعه الملاحظة لكن أباه حذّره مراراً أن تدخل النساء بينه وبين أخيه، يضحك: عمّوش في قصيده ذا يتلهف على العقيق حتى لو كان سيجلس مع أخس من فيه.. غداً يكتب في بدل القصيدة ثلاث.

لا تجادله أمه لأنها تعرف أن بذرة حكيها لا تنمو إلا بالإهمال، كلام السوء كأخس الشجر لا يحتاج سقيا ولا رعاية، كل ما يحتاجه ألا تنتبه له يد إصلاح فتزرعه قبل أن تقوى جذوره.

بعد يومين يزجر فيحان زفرات متتالية حين ينفرد بوالده، ينتظر الشيخ لي طرح سؤاله فيتشكى: والله إنني مستغرب من أخي عمّوش.. شاعر يعلم

الناس الحكي ثم يقول كلامًا ساقطًا «يتقهوى مع جمعان»! لماذا لم يخترني ليتقهوى معي؟!!

يدير الأب رأسه أسفًا: متى تكبر يا ولدي؟! أفي حب أخيك لك شك؟! أمس وهو يسألني إن كنت ستقبل إن طلب أن ترافقه في رحلته القادمة؟ يخجل فيحان قليلًا ثم يعاند: يريدني أن أخدمه.

يضيق الشيخ بالحوار البائس فيشير بأصابع كفه الخمس في وجه ولده مستدعيًا أم الصبيان لتحسمه: أم الصبيان صابتك.. لو أطاعني عمّوش ما أخذك معه.. سيلقى منك ما لقيته أنا.. بكرة يعرف أنك قربة مشقوقة يحملها وتخر على ظهره.

في هوة الخيبة بين الأب وابنه تتأكل مساحات الكلام بينهما، يتوقع فيحان من والده عدم القبول فيفتح أي حوار معه مستفزًا، والأب يتلقى أسوأ خواطر ابنه فتدفعه فجأجتها لقمعها.

أم فيحان تلوم عمّوشًا كلما تغير وجه ولدها، وتلومه حتى إن رضي، كانت قد خسرت ولدين قبل فيحان، أولهما رمحته ناقة وهو صغير، والثاني حرق هرة وهي حية فكسرت أم الصبيان رقبتة؛ صعد نخلة قصيرة فخرت به كربة مهترئة ومات، وجاء ابن ضرثها عمّوش قبل أن تحبل بفيحان بسنين فأبغضته لأنه سبق أبناء بطنها على تجارة الأب وجهه.

تقدم لابنها كلما أزعجته من الأب كلمة تفسيرًا يخليهما من المسؤولية: عمتك أم عمّوش تسحر أباك بكلماتها، ولا عزاء لك في أن يرضى عنك مهما حاولت.

كان تبريرًا مريحًا لأنه يفقده أمل رضا والده، واليأس راحة أحيانًا.

تنبت حجرات منازل الوادي كالأسنان في فم رضيع؛ كلما استجدت حاجة نبتت حجرة: حجرة للتمر يصرمونه في آخر القيظ ليكون فاكهة الشتاء، وحجرة للبهم تقيها برد المربعانية، وتعزل فيها ضعافها، أما الحجرات العلوية - إن وجدت - فتخصص للعrsان، ترفع العروس وتعزلها عن جو البيت الجديد.

زيارات نفلا لنخيل خالها البيناني تكثر إن ذهب جابر للبحرين، تلمح جسد بتلا ابنة خالها التي ارتبط اسمها باسم أخيها جابر، الفتاة ذات الجسد المصقول تعدل مجرى الماء من جدول لآخر، تقبل نفلا بخطوات راقصة وهي تغني:

«ليت الحبيب ولد خالي ماله دنيا يا بحجرونه  
وياه في روشنٍ عالي وأمز من صافي مزونه»

بكل جدية تركز بتلا مسحاتها في الأرض وتتوكأ عليها: لم نبتعد كثيراً فهو ابن عمتي.. أما أن «أمز من صافي مزونه» فأبشري.. لكن قلبي لعمتي تبني لنا روشنًا كي أقبل جابرًا ويقبلني براحتنا.. أمك - هداها الله - جعلت حجرة ابنها ملاصقة لحجرتها، أظنها تريد أن تسمع حتى أنفاسنا. تفهقه نفلا حتى توجعها جنوبها، تقعد في حوض نخلة وتخبط من شدة الضحك حافته، وتسترسل ابنة خالها في سرد أزمة الحجرة القابلة للرصد.

يخرج خالها أبو بتلا على الصوت منتقدًا الكركرة العالية: «الله يلاكن.. ما يضحك إلا الخبال» يقبل بخطوات سريعة واسعة حتى يرى ابنة أخته: ذي نفلا؟ يا مرحبا!

يتسمر في مكانه وتختصر بنت صالح الخطوتين الباقيتين في وثبة لتقبل رأسه، تمسح باقي دموعها، وتخفض رأسها حتى تلبسه ملامح أكثر جدية، غير أن محاولتها تختتم بانفجار ضاحك جديد وبتلا وراء أبيها تقلد هيئته،

تحاكي بتلا جموده وعيونه الجاحظة وفمه المفقور، جمال نفلا يربك الخال دائماً، يراها فيتصنم حتى يجبر نفسه على أن يشيح بنظره ويظل يتبادل معها تحايا يصعب ترتيبها على لسانه.

بعد السلام يستغرق الخال لحظات ليتذكر وجهته، يسير خطوتين شرقاً، ثم ينعطف جنوباً. تنساه الفتاتان في لحظة وتنزويان في قفا البيت لتبادلا حكايات الحيين. تحكي نفلا أي خبر عن صالح، وتخرجها بتلا بأسئلة عن العشاق ومن منهم خطأ خطوته الأولى بين ضلوعها، الحياء الذي تدرأ به نفلا استجواب قريبتها يغري الأخرى بالمواصلة، وبعد ساعة تختمر برأسها فكرة: الليلة قمراء، ما رأيك نخبز رغيف ونرى المستور؟

عند هذا الاقتراح تذكر نفلا ما تحبه في ابنة خالها، هذا الرأس الجريء على بعثرة صناديقه في أي لحظة. تتفقان على أن تدخل نفلا لتسلم على الأم بينما تسرق بتلا الطحين. وهما تعجنان الرغيف يأتي صوت صبية: كُثري الملح.

تباغت خفرة أختها بتلا بتوجيهها الدقيق وهي تضغط بكفيها على كتفيها، تنتفض نفلا ويهدر صوت بتلا: «بسم الله علي وعلى صيب أُمي»

تهش بتلا شقيقتها المدوّرة دون أن تعطيها وجهها: ذا رغيف أخبزه لمشاطة نفلا مسيكة لتأتي غداً فتمشط شعري.

الصغيرة التي تصارع لأجل نصيها من الرغيف لا تشبه بتلا في شيء، في الحقيقة هي نقيضها في كل التقاسيم؛ فمقابل طول بتلا هي قصيرة قصرًا لن تفلح قفزة اقتراب البلوغ في تجاوزه، وهي سميكة وجسد بتلا رشيق بتفاصيل أنثوية واضحة، ولتتوازن كفتا الميزان قليلاً كان شعر خفرة أطول وأغزر من شعر بتلا.

نظرت خفرة مرتين إلى شعر أختها ثم قالت: يكفي العبدة نصفه لو أنه أجر مشطها لشعرك.

تخبطها بتلا على رأسها: العشاء داخل.

نفلا تفحص طفلة تشك أنها قد استبدلت كل أسنانها اللبنية، تتساءل كيف عرفت ما تفعلانه؟ ثم تتذكر أن أمها أسرّت لها مرة أن خفرة «صاحت وهي في بطن أمها» ويبدو هذا التفسير الوحيد المنطقي لمعرفة الصغيرة شبه البلهاء أدق الأسرار، واصطيادها دون مجهود لكل مستور.

بجسدها المشدود تنحني نفلا على خفرة: أنت صغيرة.. حتى الصلاة لم تلزمك بعد!

بعناد تركل خفرة برجلها اعترض ابنة عمتها: أعرف وأدري أنكما تخبزان رغيف الحلم.. وسأكل منه معكما.

تخبط بتلا كرش الصغيرة المتنفخ: بطنين! ذا ما هو بالعشاء.. العشاء تخبزه أُمي.

متفوقة تصرخ خفرة: ولو.. سأكل منه.

تزفر بتلا بصوت مسموع، وتجحف عيناها لتخيف الصغيرة النهمة وتقطع الكلام المتوعد على مهل: «اكبري لا كبرت! أنت صغيرة»

تضع خفرة يدها اليمنى على خصرها مميلة جذعها جهة اليسار، ثم تغمز لأختها: وأنت كبيرة ولشقيق ذي (مشيرة لنفلا) ولا تحتاجين الرغيف.. أكل معكما أو أقول لأُمي!؟

تحت قمر اكتمل بدرًا عجنت بتلا مدّبر بالكثير من الملح، خفرة راقبت أمها حتى ابتعدت عن التنور، قعدت نفلا عنده مشمرة عن ساعدها: لم يترمد جمره. كورت العجينة، ونقلتها بين يديها عدة مرات حتى استطالت، بخفة استندت بيدها اليسرى على جانب التنور الاسطواني، وأدخلت جذعها فيه حتى تمكنت من لصق الرغيف قريبًا من الجمر.

يتنفخ سطح الرغبة وتفصح النقاط الغامقة على وجهه ورائحته عن  
نضجه، تخطفه بتلا وتدسه تحت مقنعتها، وتنتظر الثلاث في الدرب مرور  
رجل فحل يجلب لهن طيب الفأل.

مر رجلان لم يقنعا بتلا، الثالث ترددت فيه ولأنها خافت ألا يمر غيره  
أمرت خفرة بأن تدحرج الرغبة في إثره.

تناولته الصغيرة ولم تتحرك، همزتها: اعجلي.

عين خفرة ثابتة النظرة على الدرب: اصبري.. سيمر الآن أبو شافي.

من أول الدرب أقبل، يسير ممشوقاً كمارد والحصى يتطاير تحت أقدامه،  
يلمح الصبايا فيكمل أسرع دون أن يلتفت، تدحرج خفرة خبزتهن في إثره  
وعيون نفلا وبتلا تفحصان شق وجهه بشاربه الكث ولحيته الصغيرة المدببة.  
رأى الرغبة فابتسم وخفض رأسه حتى لا تقع عينه على صاحبة  
الرغبة، يكمل أبو شافي مسيره وتركض خفرة تلقط الرغبة، ينزوين وراء  
نخلة ليتقاسمته.

يأكلن الخبزة المالحة، وتوصي بتلا خفرة التي تأكل بنهم جلي: مهما  
أحسست بعطش لا تشربي قطرة ماء، وإلا فلن تري حلماً.

في درب عودتها تتفكر نفلا في ابنة خالها: حسبته تعجن الرغبة لي  
وحدي، لكنها لم تتردد لحظة في التهام نصيبها منه. عرسها بعد أن يرجع  
جابر من الغوص هذا العام، فماذا تريد أن ترى؟! هل تفتش في الحلم عن  
غيره؟ أتوقفت عن حبه؟

في الليل الطويل سيغري العطش في مسامهن الرؤى، تلمظ السنهن في  
شللها الليلي فتحرر الروح وتهيم في الفضاء بحثاً عن الماء، يوردها الظمأ  
بثراً أو جدولا فتعرف أهله وتنكشف حُجُب العشير المخبوء للغد.

مع نجمة الصبح تتفادى بتلا عين خفرة، وفي الأيام التالية تروغ عن استفسهامات نفلًا؛ فبدل ماء آل صالح رأت نفسها عند جدول أهلها ووجهها لبثر هادي، أما خفرة فبعد أن انتظرت أختها لتحكي بادرتها: سأخذ مثلك من أقارب جابر، في الحلم لقيت نفسي على جدول أهله..

صمتت الكبرى إذ لم تجد ما تقوله: أقول لها إني لن أغادر نخيل أهلي! لن أبتعد! هل يعني ذلك أنني لن أعرف الرجال؟!!

بتلا من نسل نساء لا ينطقن مخاوفهن لأن فال السوء يحوم مع الرمل والريح - حتى إذا باحت به الألسن - وقع.

\* \* \*

أبو شافي عقيد حرب آل بنيان وإن لم يكن في سلالة شيوخهم، كنيته سبقت مجيء شافي بسنوات عديدة. كلما لمحه أبوه تذكر المرة الأولى التي حمله فيها، قماطه عمامة قديمة لم تخف جماله، رآه فسبح الله طويلاً، أما جدته فاستعازت من شر حاسد إذا حسد، وشدت على ألا تراه زائرات الوالدة حتى لا يصببه بعين.

أمه شاءت أن تهمل سلسلة أسماء الأجداد والأعمام وتسميه (حسن)، قالت: لا يليق بهذا الوجه المليح غير ذا الاسم، لكن عقيد الحرب لم يجد أن من اللائق تغيير كنيته، سماه شافيًا على اسم جده، لكنه ما إن خرج مع الصبية في حي آل بنيان حتى أسماه رفاق اللعب «زرع الظلال»

كبر شافي، له أول الحليب، أول اللبن، أول الزبد، أول الرطب، لا تسمح أمه لأحد بأن يمسه، فوهبه جلسته قربها حياءً سيتقده عليه حيه كله. بعيونه الواسعة وشفاهه المتوردة وبياضه الغريب في سمرتهم يندمج قليلاً في ملاعب صبية آل بنيان حتى تنقلب دمًا وحصى، يمتقع لونه وينسل لبيت أهله.



مرق الفتى من اختبارات الرجولة التي يجريها الغلمان لأنفسهم: لم يتحد شيطان الرمل، لم يقف في وجهه في حواف الحي إن تشجعت الريح وزجرته عاصفاً جهة البيوت، وسيروي رفاقه رغم نفيه أنه ما إن بدأ الشيطان رقصة لولبية تضخم فيها رأسه وعانق السماء حتى تجنبه شافي مغنياً مثل البنيات برهبة:

«جَنَّبَ جَنَّبَ يَا شَيْطَانُ مَعْنَا عَصَا النَّبِيِّ»

المؤكد أن شافي لم يقذف بنفسه في بئر هادي ليلاً مثل رفاقه، ولم يخض مرة رهان حمل الجمر في راحته المفتوحة من طرف مجلس آل بنيان لطرفه. كل ما يتمرن به عيال العقيق لم يكن سهلاً على شافي. حين خط شاربه لم يلحق بالغواصين ولا رافق عموشاً الفوازي في قافلة تجارة، أمه حلفت ألا يخرج وأبوه الذي دفن فقره من سنين قال: «في نخلنا خير يغنيه» أما الولد المربوع ذو الملامح الطيبة فترك لهما القرار دون مناقشة.

«زرع الظلال» نشأ هشاً، وهذه الهشاشة كانت تقسم من حوله قسمين: فئة تجد إغراء في مشاكسته أو حتى إيذائه، وفئة تحس بواجبها في الدفاع عنه، يتهمه هؤلاء بأنه رخو ويرد الآخرون بأن خير والده يكفيه ولن يحتاج مثلهم لرزق خارج العقيق. حتى في بيتهم كانت الأم تداريه والأب يجزم بأن فتاه رخو ولا شفاء له من وهنه؛ فلن يحتمل درب الجنوب الذي يسكنه الجن، ولن يصبر على ما يحكيه الغواصون عن هواء البحر الذي يضغط صدورهم كجاثوم، ولا على ما يطلبه النواخذة من كد.

الغلام الحي لم يلتفت مرة في امرأة، ولم تشغله الصبايا اللاتي تتغنى بهن سامريات الطرب، لم يتخيل إحداهن أو يبحث عن تطابقها في المسيل، في بيت أهله لم ير قبلة بين أبيه وأمه، ولم يسمع كلمة اشتياق، لم يكن في البيت الهادئ ما قد يحركه حتى رأى الهذالية نغلا.

كانت وصفة أمه للبهارات على وشك أن تخرجه كالعادة من البيت، كان قد عطس عشرات المرات مذ بدأت تجمع مكونات بهارها المشهورة في الحى.

ككل نساء العقيق تخلط أمه ما جففته من طماطم وبصل أخضر وفلفل وليمون، وتضع عليها الكمون والفلفل الأسود، ولكن النسب التي تحافظ عليها بدقة لا تختل وبسرية هي ما تصنع لبهارها بصمته الخاصة، فلا يوضع في زاد إلا وعرف من يذوقه أن يدها مرت به. جرشت أم شافي مكوناتها، وما إن سحقته حتى قسمت بعضها في صرر، وبعثت شافيا بها إلى بعض جيرانهم.

في النخيل لمح الفتاة الخارجة من بيت جيرانهم متجهة لحى آل هذال، لم يفهم يومها ما حدث، ضج الدم في عروقه وأسكتت كل أصوات الطبيعة حوله، النخيل أوقفت حفيف جريدها، والعصافير في أشجار التين صمتت، ودندنة الماء في الجداول خفت.

أسرته الهذالية بجبهتها الدقيقة، وعيونها الناعسة التي تظللها أهداب كثيفة، كانت قد تعدته حين نادتها ابنة جيرانهم بتلا فانفرجت شفتا الصبية عن أسنان صغيرة متراسة، ابتعدت فكان آخر ما رآه انعكاس أشعة الشمس على شعر جعلته حمرة الحناء نارياً.

جمد شافي يتبع نفلا بنظره حتى غيبتها النخيل، أخذت منه ابنة الجيران الصرة وهي تضحك. لم ينبس بكلمة وجارتهم تشكر أمه وتدعو له. يومها عرف شافي نفلا ولعنة الجمود التي تلازمه كلما رآها.

العشق ابن النور، وكل حكاية حب في العقيق يجب أن تنمو تحت الأعين، فتحرسه حتى لا يدنسه زلل. وفي الواحة الصحراوية لن تسمح الظروف لفتاة بأن تحتجب فلا تنهض بنصيبها من العمل، ولكي تظل خطواتها حرة فعلينا أن نحذر ألا يعلق اسمها في حكاية سرية. والفتيان لا يسمحون لأنفسهم مهما طمحت بالتمادي، يعرفون متى يقفون في الغزل قبل أن يحز خنجر غيور أنوفهم إن حاموا حول بنت لا تريدهم.

سنين يتبع فيها شافي ظل نفلا من النخيل للحطب، يحافظ على مسافة حذفة عصا بين ظلها وخطوته، يسابق عبيدهم على الحطب وعلى العناية بإبلهم ليلقاها هناك.

جمعان من بين عبيد أبيه أقربهم لشافي، رافقه كظله مذ كانا صغيرين، العبد الذي كان لبيت الشيخ وولדתه أمه تحت إحدى نخيلهم انتقل صبيًا لملكية أهل شافي دون أن يستشير أحد، لكن الشاب المتعافي يحب أن يرى انتقاله قراره الذي سبق قرار الأسياد، حين اقتحم لجنة سيل دهم الواحة قبل سنوات، قفز جمعان في الماء وراء صبيين كادا يغرقان فيه، لم يكن جمعان يكبرهما بسنوات عديدة وإن أوحى جسده بذلك، العبد قبل أن يخرج ابن سيده أخرج شافيًا، لم يكن قرارًا واعيًا ساعتها لكن بيت الشيخ لام أم العبد وأباه على قلة ولائه، وأنهموه بأن نيته كانت مبيتة.

يومها لم ينفع تقريع أم جمعان له ولا ضرب أبيه في إرضاء الأسياد. ولأن الحادثة غير المهمة طالت تداعياتها فقد اضطرت أبا شافي لشراء جمعان من شيخ آل بنيان.

اليوم يروي العبد حكاية أخرى مع الحفاظ على مضمونها، جمعان يمهد لها بحديث طويل عن معاملة آل شافي الطيبة له من قبل أن يصبح عبدهم، وعن كرمهم معه وكيف أنه حين رأى الصبيين في الماء أجرى حسابًا سريعًا

فوجد أن إخراج ابن سيده لن يرفع قيمته في بيت الشيخ، ويروي أنه تنبأ بأن أهل شافي سيشبعونه سمناً وتمراً مكافأة له لإنقاذ ولدهم، فأخرج شافياً أولاً ليرغم أعمامه على بيعه.

لولا اللون لكان جمعان وسيده صديقين حميمين، ورغم اللون ظلا يربكان إطار العلاقة بينهما بتشاركهما الطعام والأسرار، إلا نفلاً فقد ظل شافي لا يعرف كيف يحكيها لجمعان، ولم يحتج العبد أكثر من أن يلحظ همة سيده غير المعهودة في الاحتطاب. تبعه مرة فرآه يدور حول المسيل ليمر ببيوت الهذاليين.. بدا وهو مطأطئ كمن يقتفي أثراً على الرمل. رآه يقود بكرته شقحاً، ويسير على مهل حتى يلمح شابتين فيجمد.

كان شافي قد جدد عهداً لنفسه بأن يحادثها. عدّل عمامته، ومن جيبه أخرج علبة طيبة الصغيرة. أولج ميلها الدّبق بين شعره الخفيف وشحمة أذنه، فرك نقطة أخرى بأصابعه ثم مررها على عارضين أملسين، مسد شاربه الخفيف وخرج من مكمنه وسار باتجاهها، أشفق عليه جمعان وهو يراه يسير كمن يقاد لموت أصفر الوجه تائه النظرة، سلمت الهذليتان عليه وشدّت أكبرهما مقنعتها على جيبيها. بلسانه اليابس رد بكلمة وهو يومئ برأسه ثم تنحى، أكملت الشابتان طريق العودة، وتظاهر هو بالذهاب للحطب.

لم يكن لدى جمعان شك بأن الجميلة أبهرت صاحبه، يتسم ويحن عليه وهو يرى انشغاله الأول بامرأة، فقرر أن يسأل عنها.

قبل أن ينهض ليلحق بصاحبه رأى جمعان الصانع أبا هليله يقترب من الفتاتين، جلده المعجونة صفرتة بسواد وشاربه الذي ينتف شعراته يوقفان شافياً مرة أخرى، سلم الصانع على الشابتين بنبرة أقرب لأصوات النساء، ضحكت له الجميلة وهو يعرض أن يحمل على حماره حطبهن، اختلس

البنانيان نظرة أخرى فإذا بجسدها يميل على الحمار لتضع حزمته، ويد الصانع تلمس أصابعها.

نظر العبد لبكرة شافي التي كانت ستحتمل الحطب والهداليتين وأشفق عليه، ثم سمع صوت أبي هليل ينشد الصبيتين:

«الله على الليالي كم فرقت من غالي  
من العرب والمالِ جمل الحيا سماري  
حدر على المجاري يكسي ظهرها المعاري»

سخر جمعان في خاطره من صانع الهذالين الذي يحدو بقصيده حمارًا، ثم تبع صاحبه شافي، وجده يحطب وقد تحدّب لوحا كتفيه كظهر بكرة أهلكها المحل. رسم الشفق فاصلاً بين السماء والأرض، حمرة التي تمزقها هامات أشجار السمر لم تنبه شافيًا بأن عليه أن يتوقف، وزن جمعان ببصره حطبه وعرف أن عليه أن يغبش قبل الفجر لجلب المزيد فترك سيده العاشق وعاد وكان لم يره.

\* \* \*

حلة عبيد آل هذال حُجيرات كصغار إبل أنيخت في طرف حي أسيادهم،  
تتراص في ظل تلة صغيرة وبعضها أطول من بعض. إن وصلها خير قليل من  
عند شيوخ الحي أحمت الحجرات طولها ورقص أهلها ليلهم كله.

لهؤلاء ينضم من يصل الواحة من الأحباش، يجاورون العبيد لشبهة  
اللون ولا يملكهم أحد، لكن حريتهم أعرق في الجوع من العبيد، فالحبشي  
لن يجرؤ على سيد بعينه فينطرح أمام بيته ليطعمه إن جاع، بل سيظل يقايض  
بجهده كل طلب عون من أهل النخيل، ولسوء حظ الأحباش فإن نَفَسَ  
الأسياذ في المقايضة طويل، ولحسن حظهم فإن النخيل تطلب عناية أكبر  
في غيبة الغواصين.

ما كانت أم جابر تؤديه بسهولة في وجود ولدها يشق عليها في غيبته،  
استعداداً لتلقيح النخل بعد شهر عليها أن تزيل شوك جريده كله، شوكت  
عدة نخلات ثم قعدت بها الحسرة، غالبتها الحسرة فسمحت لدموعها  
بأن تنهمل لحظة، ثم مسحتها حين لمحت أبا هليله يشير لها من بعيد:  
المعونة!

بلعت غصصها وهي تهز رأسها: في ذمتي إني أحتاجها!  
يهول قافراً بين الجداول رافعاً ثوبه عن سيقانه قليلة الشعر: أبشري  
بسعدك!

يستهل وجهها رغم أنها تعرف أن نخله يحتاج جهده كله، ترفع صوتها  
حتى لا يقترب: جثني الله يعافيك بمن يعاونني.

يغادرها على وعد، وتصعد نخلة أخرى، بعد برهة تسمع حبشياً يفاصله  
فيما تقايض به أم جابر عمله: أنا فداك ما يكفي.. والله إن لي يومين ما أكلت  
غير بضع تمرات.

يدنون وأبو هليلهل يضغط عليه: يكفي يا رجل، ما غير ذا النخل.. وأم جابر الله يعطيها العافية قد شوكت بعضه، وفي نهارين ستزيل شوكة كله.

سحنة الحبشي الغامقة وإقامته في حلة العبيد لا تخفي اختلافه: أنفه غير المفلطح، شفاهه المعتدلة، وهيبته التي لا يزعزها الطرب مثلهم، يزفر استعدادًا لقبول مقايضة لا تكون في صالحه أبدًا، وأبو هليلهل يقفز في الجداول القريبة، يرفع القرعة التي تعسها أم جابر من مدة، يريه إياها وهو يخبطها بيده: هاه؟ ستشبعك أنت وعيالك أسبوعين.

يشد خصره بحبل ويصعد أول نخلة، وتستثمر هي دفقة النشاط التي تغمرها فتزع الأعشاب الضارة من أحواض النخيل. يقلّم ابن قويت سعف النخيل اليابس، ويزيل شوك الجريد وليفه، ويغادر ذاك النهار متأبطًا القرعة: لك وجهي يا أم جابر أن أرجع فأكمل غدًا لكن عيالي يتلوون من الجوع.

نفلا وصلت وابن قويت يغادر، شيء في خفة خطوته يحزنهما، دون أن تستأذن أمها وثبت في الجداول، قطفت بسرعة ما مد أعناقهم بين الأوراق من خضرتها، ونادته ليقف، وضعت في جيبه فرحة أسبوع آخر مع البامياء والفلفل والطماطم. لامتها أمها بعد أن ذهب: اتفقت معه على قرعة.

تهمس نفلا: وقد عمل في يوم واحد ما يعجز عنه ثلاثة عبيد..

- لو أعطيت كل من عمل نهارًا مثل ما تعطين ما بقي لدينا ما نأكله.

تستحي الشابة أن تجادل أمها بأن هذا التقدير هو ما يبعد عبيدهم ليعملوا عند آخرين، تقبل رأسها: رزقنا على الله.

ثاني يوم تنفس الحرارة من مسام أم جابر، تكسر عظامها، وتقاومها بالشغل، في عشتها ترفع جفنها الحار وترى ابن قويت يعود، صوت الحبشي يأتيها: مأجورة يا أم جابر.

– الله يجيرك ويعافيك!

يفتر ثغره عن صفى لؤلؤ، يشير لما ردمت جسدها به تحت شمس  
مُخادعة: «شمس الشتا يا الدافية كم خلخلت من عافية»  
تعتدل في جلستها والحمى تسوط عظامها، تتخفف من بعض ما عليها.  
تركه يكمل عمله، ثم بعد العصر تراقبه قلقه من جولته في نخيلها، وتراه  
دون كلمة مباشر عملاً لم يطلب منه، يرفع حواف أحواض النخيل، ويبدأ  
بتسميدها. ولا تسمع غير دندنته وخبطات مسحاته في الأرض، تظلم الدنيا  
فيلتفت لها بوجه مضىء: ودعتك الله! ويغادر.

نفلا التي تحضر ساعتها بعشائها هي وأما تصفعها رائحة السجاد فتلتهم،  
تأمل خضرة أحواض النخل وتأخذ أمها لجهة بعيدة وتشير برأسها ناحية ابن  
قويت: حتى العبيد فيهم شيوخ.. طبنا فيه فطاب فوق طيبتنا.

\*\*\*

أشجار الأحقاف يفزعها الزحام، كل شجيرة تسمم ما حولها لتزهق  
أي فرصة لنمو نسج الحياة فيما قد يجاورها. مثلها تحافظ منازل أحفاد  
مانع على مسافات بين كل حي ومجاوره. مذ انزل العقيق في أحياء  
ثلاثة، تناسلت بيوت البنيانيين فامتدت جهة مريفة، فيما كللت بيوت آل  
فواز رأس الجبل وسالت على سفحه، أما بيوت أحفاد هذال فانجست  
كقطرة مطر ثقيلة في دائرة مركزها أطلال مانع. فصلتهم المسایل فظنوا  
أن حدودهم ثابتة كقصورهم، لكنها في كف مصعق أخف من الحصى في  
أيدي عيالهم.

جسر آل هذال صف حَجَر وطین ارتفاعه ثلاثة أذرع، وعرضه خمسة  
أشبار، وطوله ثمانية أذرع، بنوه في نحر حيههم، يجلس عليه كبار السن بعد



العصر راصدين من يقبل على العقيق، وعليه تأتيهم أخبار الحيين الآخرين.  
إن جمع الجسر الشباب مع الكهول فالخبر شر.

المسافة بين آل هذال وآل بنيان تؤرق الجسر منذ سنوات. لم يعد  
للهذاليين متنفس إلا جهة البنيانيين، يديرون وجوههم صوبه كل حين،  
ويقسم بني بنيان أنهم يستحون أن تمتد أطماعهم لإخوتهم من الأم ولا  
يتخرجون من الطمع فيهم.

في مجلسهم قال عارف آل بنيان عن الهذاليين: مثل الجراد كل سنة  
ينتجون مثلهم..

- وكل أجنبي يصل العقيق يجاورهم..

- صادق! أبو هليله جاء أبواه قبل أن أتحمز.. ضائعي أصل يرعون الماء،  
طواهم الهذاليون تحت جناحهم واليوم له عندهم نخيل وخير.. وأظن أننا  
لو حاربناهم لخرج علينا معهم.

- لا يا رجل.. هذا صانع أقصى جهده أن ينجر باب بيت، أو ينحت جذع  
طلحة ماعوناً.

- فإن بدأنا حربنا فخرج معهم بفأسه ودحابه رأسك كما يدحو الخشب..  
كم تعطيني؟

- هههه.. خاف الله يا رجل رأسي مفلوق وتريد مني عطية؟!

يطول الرهان الدامي بين الرجلين، وينشغل بقية الجالسين بسيرة الصانع  
الذي يلين في يديه الخشب، يصفون وجهه الأجنبي، يعدون أسنانه المتفرقة،  
يسخرون من أجفانه القصيرة، ولهجته التي لطول اختلاطه بالنساء غدت تشبه  
حكيهن، حديث التوجس تخفف استطرادات كهذه جديته، لكنه سرعان ما  
يقع في نفوس بعضهم وقع المطر في أرض جدباء فيحيي يابس أشواكها.

رمى الشيخ المتجادلين بنظرة طويلة ثم قال: لو كانت الحرب ستنتهي برأسيكما مفلوقين فليست بخسارة، لكن بني هذال يريدون بعد الرؤوس النخل والبيوت.

يومها بدأت عيون آل بنيان ترقب بقلق الحظائر المرتجلة لإبل الهذالين في المسيل بين الحيين، وانعقدت ظنونهم على أن الهذالين يحتالون على الحد بالإبل.

استفزوا هذاليًا ففكوا عقال ناقته وأطلقوها. قبل أن يمسا جاء مع الهذالي ثلاثة؛ لم يكن الكلام مهمًا فالأجساد التحمت قبل تمامه. الهذاليون حين أقبلوا لم يسلموا ولم ينتظر البنياني تحيتهم ليردها، نزع من حد نخيله أقرب عامود وذادهم به، فذهبوا بضربات وتركوه سابحًا في دمه حريصين على ألا يضربوه ضربة مميتة.

\* \* \*

يتربقب العقيق عودة الغواصين فتغني البنيات في دروب الوادي:

«نطويك يا ذا الشهرطي القراطيس ذا الليل م الداخل يجون الغواويص».

فرجة بنت راشد فتاة هذالية لها ملامح وعرة كتقاسيم صبي، وجهها الأبيض سفعته شمس الوادي حتى أنضجته، صفائرها القليلة مشعثة دائمًا، بصوتها العريض تغني مع رفيقاتها رغم أن والدها لن يعود في الشهر الداخل، فراشد بلعه البحر قبل سنوات.

تسمع الصبية خبرًا عن فوزي لدغه ثعبان فتطير لبيت آل صالح، تدخل على نفلا التي تزين فتأملها بانبهار جلي؛ عدوى التجميل تصيبها، فتمسح الغبار عن كمها وتسوي خصلات من شعرها.

تحكي لنفلا عن الفوازي ولدغته بالأمس، وتسألها إن كانت ستتجه لحلقة الرقص عنده، تبسم نفلا وتضع نقطة حمراء بين حاجبيها المقرونين، ثم تنقّط نقطتين اثنتين كمدامع عشاقها تحت عينيها. فم الفتاة المغفور يُضحك نفلا ويخجلها، تميل على صاحبها بما في يدها: أضع لك؟  
تهز الأخرى رأسها بعنف: لا.. ستذبحني أُمي.

لم يكن فرق العمر بين الفتاتين كبيراً، لكن نفلا اختارت دخول عالم النساء مبكراً فيما ظلت فرجة تنأى عنه باللعب وبجسد يكبح بوادر أنوثته أن تبين. تضمها نفلا ثم تقبض على جلد كفها الجاف متجهة بها للمسيل جهة سفح الجبل. خطوات الفتاتين العجلى تتسارع حين يرين الأشباح المتراقصة.

جذبت الطبول نفلا فتسارعت أنفاسها، شدت قبضتها على كف فرجة وهرولت. دائرة الشباب حول الملدوغ، يظللون بقاماتهم المشدودة حلقة الدفوف، عبيد وقيان شكّلوا هلالين متقابلين، بينهما فرجتان تسمح بدخول وخروج الراقصين.

قدم الفوازي الملفوفة مرفوعة على حصاة أمامه وحوله من يحرس عينه الساهرة منذ البارحة حتى لا تغمض، أقبلت شابة على الطبول، انحنت على القينة القاعدة في قلب أحد الهلالين، اختارت ما سيفنى لها. الأشعار التي تنتقيها الشابات رسائل، بعضها موجه للأرض وأغلبها للسماء

تهبط الملعب نفلا بعود أثل قصير، تثبت بين حاجبيها وتسنده بشاهدتها، ويتمايل جيدها الأبيض، فيما جسدها يتقاصر بما يشبه الركوع، ترتفع على أمانى المحيطين، تميل جدائِلها بقلوبهم، عيناها مغمضتان والطبول تصعد بالحشد لسقف نشوته، تناغم حركة أجسادهم خطواتها، بعد تردد تقابلها ابنة خالها بتلا، فتشجع خفرة وتلاعبهما.

فوق صف الدفوف يرتفع واحد منها ليشاغب تناغمها بإيقاعات أرفع وأسرع، مثله تجتهد بنت صالح بين ابنتي خالها في ألا تطفئ ملاحظتها لهما على تفرداها، بعد لحظتين تخرج ويختم العبيد الجولة.

بعد نفلا ترقص فوازية، وتلاحظ ابنة عم لها اختلاف حماس الجمع عنه قبل لحظة فترمي مقنعتها تحت أرجلها، وتلكز فوازيات أخريات ليصفقن لرفيقتهن. تخطف الراقصة الخمار قبل أن تعفره الأقدام وترقص به في يدها وتقترب من صف الواقفات، تضعه حول جيد صاحبته، وتستدرجها بأطرافه في يدها لوسط الحلقة.

شافي البنياني وقف طويلاً وراء الملدوغ الذي يثن، أقنع نفسه بأنه هذه فرصته ليرقص تحت أنظار نفلا. فيكون محط اهتمامها، بكتفه شق دربه بين المجتمعين، دفعته يدٌ وضحكة لداخل الملعب فشلت الطبول جسده، تعرقت أطرافه وتوترت أحشاؤه، سحب جسده الثقيل خارجاً ووجيب قلبه يعزله عن الطرب، حين هدأ أركمته رائحة خجله، انسل وراء الحلقة لاعتنا حظه.

حجبت عنه صفوف المتفرجين نفلا، ولكنه ظل يسمع مطالبتهم لها برقصة أخرى، توسطت الملعب وابتسمت للملدوغ فرجاها مثلهم أن ترقص، ظن شافي أن نظرها وقع عليه فتشجعت أمعاؤه.

لم تتق بنت صالح نشيداً، والعبيد في كل حلقة رقص يخبثون أجمل ألحانهم لها، ارتفع دف وسط أحد الهالين عاليًا وغنت صاحبته والدفوف تعلو كتكبيرة إحرام.

لا تشغل نفلا نفسها بإجادة الرقص، رفيقاتها ينتبهن للإيقاع فيجارينه، أما هي فتعيش حكاية النشيد التي يرويها؛ إن غنت الدفوف قصر أيها العالي ارتقت سطحه تلوح لعاشق تحدى الموت لينال نظرة منها، تشني

ركبها مظلة من شرفة أديمها صف الطبول، تميل رأسها فوقها وترخي  
جدائلها سلالم لعاشق سيقامر بروحه ويرتقيها، فإن غنوا ألم محروم  
ذرعت أودية اللوعة من طرف الملعب إلى طرفه الآخر، وأكفها تفرع  
أبواب الرجا.

تجول بنت صالح في الحلقة، تحيي آمال المحيطين بابتسامات  
توزعها، وحناء كفيها يمسح رؤوس أمانهم المسفوحة. ترمي مقنعتها  
فتلهب الطبول أكف ضاربيها، ويلقي عمّوش بنفسه في الملعب، يواجهها  
مبتسمًا وما زال يعصب عمامته على رأسه، يقذف له أخوه فيحان عصا  
فيلتقطها دون أن يلتفت، يبسم لمراقصته ويطوفان في دائرة ضيقها حماس  
الشاهدين.

يومي عمّوش الفوازي يعود الأثل اللدن فوق رأس الهذالية، تقترب منه  
فيروغ كمحارب مرتكزًا على عقبه، ليعود فيظللها بقوس ترسمه عصاه حول  
هامتها.

أنفاس الحشد رغبات في المشاركة مقموعة، حتى الملدوغ طلب أن  
يدنوه بجوار العبيد حتى لا يحجب عنه أحد رؤيتها، تتراص أكتاف الشباب  
فلا مدخل لشیطان حسد أو نميعة بين فروجه، وتمايل الرؤوس حين تخلع  
أصابع ضاربي الطبول باقي عجمتها.

راحتا نفلا مفتوحتان لمراقصها، تتناوبان جذب آماله ودفعها، وتكادان  
مع كل حركة تلمسان صدره، عيناها عليه وابتسامتها له حتى راغت عينه  
للجمهور، ارتعشت ابتسامتها، وبدأت خطواتها الراقصة ترجع بها عنه،  
يقترّب منها وابتسامته نصفها عضه على شفته.

تبسم وعصاه تتبعها كعنق ناقة أول السير، تتقهقر ويتبعها، وقبل أن يصلها

تشد أخرى محلها وتنسل خلف صوحيباتها، تخرج فتسرق جذوة الطرب في الحلقة، تقبض على كف بنت راشد وتعودان لحيهما، ويتوقد في صدور الفتیان جمر كبناات المطر<sup>(1)</sup> بعد الحیا، یلهب العیید جلد الطبول علی نار مشتعلة، وتلسع جوف شافي البنياني برودة تلازمه عدة أيام.

\* \* \*

مجلس قصر وثیل یشبه عَمُوشًا فی حضوره، أما فی غیابه فیرقص مصعق بین لهب وجاره وأعمدة الأثل فی سقفه، یشرع جني الفتن بابها فیغدو الحكي علی لسان فیحان نوايا حرب، يفحص الشاب الذي یرید لنفسه مركز عقید حرب آل فواز وجوه الرجال وهو یسقیهم رأس خبر ویثمل باللهفة فی حواسهم: فی حی آل هذال نُذُرُ شر.

یستعجله بعضهم: تذابحوا هم والبنيانيون؟

نصب ساقه الیمنى وأسند ساعده علیها، أدار بأصابعه الحیین: أحد عیال آل بنیان یهدد الهذالیین بأن یقطع الماء عنهم، ومن أمس ورماحهم لا تفارق أیدیهم.

أبو عَمُوش یتشكك بنبرة مسموعة: یمنع عنهم الماء؟! هكذا بلا سبب؟!

تمتمات الرجال تؤكد أنهم قبلوا إدانة البنياني بلا مساءلة، مهد أبو عَمُوش أرضیه شك معقول: ما هذا بعاداتنا.. ولا یفعلها حتی أحسننا.

تحفز فیحان: آیا كان السبب فالحرب بینهم ستقوم.

(1) بنات المطر حشرات صغيرة حمراء اللون تظهر فی الصحراء بعد المطر فتسمى شعياً بنات المطر

المحيطون جروا الحكي بخطامه لمناقشة ما قد يحصل بين حيي العقيق الآخرين: فإن تحاربوا نفرز للهادليين أو ..؟

حسم الشيخ الفوازي الكلام: عهد الغواصين يلزمهم جميعاً شهراً بعد.. «هذي بربرة .. ما به إلا العافية»

استبد الطيش بالمجلس واستمرت «البربرة» فاستدعى الشيخ سيرة ابنه عمّوش، نكت بعصاه الحصر تحت: الله يحفظ عمّوش! لو كان هنا الآن لقال ...

فيحان لدغته الكلمة، أحس أن والده سيخلق فرصته الأولى لإظهار فحولته، مد عنقه لترات الوجوه في الصف عن يمينه وشماله وبتّر جملة والده: الدم حاصل اليوم أو غداً فإن قطع بني بنيان عنهم الماء عجلوا به وإن لم يقطعوه ما امتنعت الحرب، ونحن إن لم يحتجنا إخواننا الهذاليون ما تدخلنا بينهم وإن استفزعوا بنا فزعنا.

جملته فرضت صمماً غير مريح بعده، سيقول مؤيدو فيحان أن الحمية تجيش في صدره، ومن يعرف تفاصيل القصر الداخلية سيشير إلى أن ميل الأب الواضح لعمّوش هو سبب ثورات فيحان.

هرم بجوار أبي عمّوش زجر فيحان بالنيابة: اركد يا ولد.. تبشرهم بالحرب ويبشرهم الله بالستر.

أمن الكبار في مجلس وثيل على قوله، وفي ذات الموضع بعد إصابتين في الحيين وشهر سيقول عمّوش كلاماً مشابهاً، وليُسكِت معارضيهِ سيوبخهم: «لعن أبو غيركم! وراءكم في الجنوب قبائل لا رابط بينها إلا كما بين كلب وحمار.. وبينها أحلاف من سنين.. يحافظون عليها.. أما نحن فمن ظهر رجل واحد ونتفاني.. اليوم نفرز مع آل هذال، وغداً إذا أفنينا بني بنيان ماذا نفعل برماحنا؟! أنعلّق عليها ملاحف نسائنا أو نتطاعن بها نحن والهادليون؟!»

سيثقل على أخيه كلامه ويبين الغضب في وجهه، فيقطع الأب بضحكة مجلجلة دابر الحكيم موزعاً نظراته بين الاثنين: الحمد لله الذي وهب لي فارساً وحكيماً تاجرًا.

التجارة تأخذ عمّوشاً لحسابات الريح بالجمع، والحرب تجذب فيحان لتمجيد البطولة التي تفرّق ما دام هدفها قهر الآخر.

بعيداً عن القصر سيقول بعض الفوازيين أن جمع العقيق تحت راية واحدة كان طموح الأب قبل عمّوش، فمثله كانت روايته للتاريخ لا تقف عند الجد فواز على فخره به، بل لا بد أن تصل مانع بن هادي: الشجعان كثر، لكن أمثال جدّي مانع قلة؛ أنشأ بلدة من عدم، وأخى فيها من ليسوا بإخوة، زوج ولده هذال ابنة رفيقه، وتزوج هو ابنة الآخر، سلاحه وماله كان لرفاقه لا عليهم، حتى استقر له العقيق وما بقي فيه إلا نسله. مثل عمّوش قال شيخ آل فواز: «عيب على رماح عيال مانع أن تكون بينهم»

يسمع الهذاليون مقولة الشيخ الفوازي فيغضبون: كلامه المصفوف لا ينطلي علينا.. أبو عمّوش لم ينس أننا كسرنا حيه في زمان سابق لذا لا يريد نصرتنا.

\* \* \*



مجلس آل بنيان بعد ضرب أحدهم استعداد أبجدية العراك كلها، وأبو شافي الذي كان يتجنب كثيرًا من لفظهم ونجواهم صار أعلاهم صوتًا في المجلس.

في صباه أدرك أنه لن يتصدر مجلسهم مهما امتد به العمر، نشأ بين رفاق كان أطولهم نسبًا أخفهم وزنًا في يده كلما استحال اللعب صراعا، لم تعرف الابتسامة دربها إلى وجهه وهو رضيع، ولم تسمح طفولته في زحام فقر أن يتعلم التبسم. نشأ الفتى بروح كهل أزلي، أراد الدراهم فجاء بها من حيث لا يدري أحد، وأرض أبيه التي كانت نخلات معدودة تمددت بيد رعايته، شارك في الغارات قبل أن يخط شارب، لم يكن أبوه محاربًا فخافت أمه عليه، رجته ألا يفجعها به، التفت في فراخها ثم قال كلمة سمعها من الرجال «من وقفت ركابه ما راحت إلا به».

رمحه وبندقه جعلاه عقيد الحرب، ورغم أن ذلك لم يعد يحتاج إثباتًا إلا أنه ظل يوقد هشيم قومه: بنو هذال اليوم بينون أحواشًا لبهمهم في حدنا، وغداً يزم بنا سيل طمعهم ونحن ننظر.

ناقشوا ما يجب فعله، وأراد شيخهم أن يضع سقفًا لغضبتهن: لن نفتح على أنفسنا بابًا لیتقدنا القاصي والداني غداً.

– من سیتقدنا؟! خطأ الهذالین یتن.

– هو یتن فی عینک وفي عیني.. فإن جاء الغد التبتت بالحكاية حكايات ولن يعود یتنا حتی لا مرأتک فی بیتک من فتح باب الشر.. رأی أن نبعث لهم مندوبًا يشهدهم على أنفسهم، لعل فيهم عاقلًا يردعهم.

يضرب أبو شافي صدره: أنا ذاهب إليهم الآن.

لم يكن عقيد الحرب خيار الشيخ الأول، وقد بان التغير في وجهه ووجوه

عياله الذين كانوا يجهزون أنفسهم للذهاب، حمل أبو شافي رمحہ وخرج دون أن يتفق مع أهل المجلس حول ما يجب أن يقوله.

عصرًا رآه الهذاليون مقلًا، أشار بيده حتى لا ينهضوا للسلام، لم تصافح يده أيديهم ولم يلمس أنفه أنوفهم، حواجه المعقودة ورمحه المركوز بجانبه حسما دعوات جادة للقهوة أو العشاء. قرفص على الأرض، أخذ حفنة رمل وذرّها على لحيته: ذا على لحانا منكم يا بني هذال.

اسودّت وجوه الرجال، صد بعضها ورجاه بعض بأن ينهض. استند لرمحه ومن تحت شاربہ دفقت شفاهه الدقيقة رسالة حيه، سرد أبو شافي نسخة آل بنيان للحدث، اجتهد آل هذال في قول كلام يرضونه به: هؤلاء جُهّال، ولو كان في صاحبكم خير ما اعتدى على حلالهم حتى يأتينا كما فعلت أنت الآن، ووالله لو عرفنا ما رضىنا.. ولا نقول إلا حمدًا لله أن رفيقكم سليم.

أراد أبو شافي أن يحسم أمرًا أهم من الضربة، لكنه مضطر لنقاشها أولاً: عيالكم الذين ضربوه لم يكونوا جُهّالًا، ولو اعتبرناهم جهالًا أفلا يحاسبون؟!

باستهجان نزع استفهم هذالي: نذبهم؟! أسكته الآخرون، ثم التفتوا للبننياني: ما يرضيكم يا آل بنيان نحن حاضرون له.

كجارج يوزع نظراته بينهم: الدم عند صاحب الدم، أما ما نريده كلنا فأن تقصروا شرًا أعظم، وليقم معنا من كل حمولة فيكم رجل نرسم حدًا بين الحيين. بهتهم الطلب، وتلفتوا في بعضهم بعضًا، قام له أكبرهم واضعًا يده على كتف البننياني: الحد - أنا فذاك - معروف.. لكن تجديده ليس سهلًا.. لو المسألة أنا وأنت فحلالي حلالك، لكن الحكى ذا إن فتحنا بابه فلن يخلصنا مخلص.

رجل آخر أجفُّ لسانًا زعق: كأنكم يا آل بنيان فرحتم بها.. هل جاءكم  
الضربة حجة؟!

انفتحت صرة التخرصات: لعلهم من خطط لذلك من قبل واستفز عيالنا  
لغاية في خاطره..

- ما نيتكم يا بني بنيان؟

- يريدون أن يبنوا سورًا بيننا وبينهم؟! أو أن نيتهم أن يتوسعوا جهتنا  
بحجة رسم الحد.

يحبط الكلام عقيد حرب آل بنيان فيستدير لحيه، ثم يخشى أن يكونوا  
قد فهموا لين كلامه خورًا فيشير برأس رمحه لهم: الشر ما كنا أهله يا بني  
هذال، ولكننا كما تعلمون لا نفر من وجهه.. وأنا لكم نذير من شركم.. إن  
كان فيكم عاقل.

\* \* \*

ثمة عهد شفوي في العقيق بين الواحة و السيل، يتدفق الماء ملتفًا حول  
أعطاف أحيائها، ويراعي ألا يدهمها ما دام له درب بينها، وتهابه قصورها  
ونخيلها فلا تنبت على ضفاف رمله مهما طال جفافه.

في القيز على خد رمل بردته أنفاس المساء تنفس العرار، تفتحت أزهاره  
الصففر فأرخت النساء صرر ألستهن، أخرجن ما جاز اجتراه من خبايا  
حجراتهن بحلوها ومُرّها، وتواطأ سمير مع العشاق فظل يلقنهم ما يؤنسون  
به حبيباتهم، ويمسح خطوات مواعيدهم الليلية.

تحت بدر يكاد يكتمل شق عمّوش دربه للمسيل، ضحكة نفلا تهديه،  
وقلبه الذي لم يرتعش في برهوت يضطرب. بين البنات يتغير لونها حين

تحس قدومه، تعرف نغمة خطوته في الرمل فلا تلتفت، وتنهى على عجل حكاية كانت ترويها.

ترحب البنات بعمّوش وتنداح دائرتهن، يفسحن له أكثر من محل فيختار أن يقابلها. بسبابة يود أن يقبلها ترسم ابنة صالح خطوطاً عشوائية في الرمل وإحدى البنات تلح عليه بأن يسمعهن شيئاً من نشيده، يحتج كالعادة بأنه لا يحفظه، وأن ما يتذكره لن يعجبهن. تصر إحداهن: ألسنت من قال:

«يا عينها اليمنى ثمانين خيال ويا عينها اليسرى سيوف صقيلة؟»

ينكر وصاحبة العينين الأسرتين تختلس نظرات إليه، يسألنه عما سمعته عن جمال اليمينيات فيعوجّ خط نفلا في الرمل، ترصد عين التاجر ارتباك رسمها فيرمي بما يشبه عدم الاكتراث فكرة مطمئنة: الزين في كل ديرة، أما أنا فلا يعجبني إلا زين العقيق. يتهجى «زين العقيق» وعينه عليها، وزفرة البنات الجماعية تحلق فوقهم كغيمة.

يحبطه الشهود حولهما، ويجلد نفسه بسؤال: لماذا لا تظهر إلا وكل هذه العيون حرس لحضورها المغوي؟

تواري نفلا طرف ابتسامة بمقنعتها، يفكر عمّوش بأن ابتسامتها أوجعته، كيف توجعه ابتسامة؟! لا يدري، لكنه أحس بقبضة تعصر خافقه. في وسط حكاية رأى ثغرها يفتر عن ضحكة، وألحت عليه فكرة مجنونة بأن يطبع عليه قبلة أطول من مسيلهم.

المتكنة على كتف نفلا تغمز صويحاتها: الليلة قمراء.. والعيال اجتمعوا يلعبون.. هيا معهم.

تريد صاحباتها أن يفسحن لها مساحة مع عمّوش، لكنها تنهض أعجل منهن وتتركه، عينه لا تتبع ظلها المتراقص على الرمل، بل تحرس بلوعة أثر مقعدها في حلقة انفرطت.

شافي البنياني يراها تقترب من لعبتهم فيجمد، ينقسم اللاعبون قسمين ويتلأأ ليكون في صفها، تقف عند كومة ثيابهم رافضة المشاركة، ولعبه غير الجاد يتوقف حين رآها تهمس في أذن صاحبته بكلمة وتبتعدان، يبحث عن عظم لا يهمله أن يجده، يدور الرفاق في فلك المتوقع ويجذبه قلبه الملهب صوب رأسين يتمايلان ضحكًا، ولأن الباحث عن شيء لا يراه يجد شافي العظم، يلفه في طرف ثوبه فيفطن له لاعب آخر، يعلو صوته واشيًا، فيغدو شافي هدف حشد يطارده، يلحقونه وبعد ثلاث قفزات تصيده أيديهم، يخلص نفسه من تحت عشرين جسدًا وتكون الهذالية قد اختفت.

\* \* \*

للطرب في العقيق قصائده المتقاة، تعلو بها الألحان فتتخلق بين الدفوف وأصوات المغنين فائنات صدورهن وأكفهن ذهب، كسوتهن جدائل مظفرة بالعنبر والعود، وكحلهن تالٍ لليل لا قمر له.

حلقات الرقص في العقيق تستدير في رمشة عين وبأي عذر، يتمايل الراقصون مع إيقاعات تنقلهم بخفة من شعور إلى آخر، قصيدة تجعلهم عشاقًا بهم لهفة انتظار محبوبة طال غيابها، وأخرى تبعث فيهم نشوة الخلوة بحبيب بعيدًا عن أعين الرقباء، وشافي مذ وشم قلبه اسم نغلا غدا كل الشعر قصته، في كل قصيدة يرى الهذالية ولا يرى نفسه معها أبدًا.

في نخيل جيرانهم ينتظر نغلا كل قايلة، ويسابقها لمريفة صبحًا وعشية متذرعًا بجمع الحطب. يقطع أفكاره نشيد جمعان:

«يا الله أنا طالبك نوّ إلى نشأ جعله على دارنا يوم بلييه  
يا أبوي هيا معي لصويحي هيا يا كود يريف وتزهر غصونه»

الابتسامة الحرجة على محيا شافي تحجم بالعبد عن أن يكمل، يقعد

بجواره منتظرًا أن يفضي «زرع الظلال» بما في صدره، يطول الصمت بينهما حتى يقطعه شافي بتوجيه عبده للعناية بناقته: خذ من أُمي سمناً وادهن به أخفاف شقحا لأنها..

- أدهن من؟ نفلا؟!

يداري شافي ضحكة مغتظة وتطبق أصابعه على عنق جمعان، ضحكات العبد غير المنتظمة تتوقف لحظات ليلتقط أنفاسه ثم تفرق مدوية مجدداً. بعد أن يسكت يطمئن صاحبه: سألت عبيد آل هذال عنها.. البنت ليست لأحد.. هي فرصتك فتقدم.

يتذكر شافي رقصها مع عمّوش الفوازي، يتخفف من بعض تكتمه فيقول: لعل هواها في غير آل هذال.

يضحك جمعان: ما بالعقيق فتى تتمناه البنات أكثر من عمّوش الفوازي وقد قال لي ابن قويت إنها صدت عنه في المسيل قبل أيام.

دلائل الصدود التي يسوقها جمعان تفزع شافياً بدل أن تطمئنه، يتساءل ما الذي تريده الهذالية إن لم يرضها عمّوش؟!

ببساطة يقترح جمعان: اعرف نيتها.. قابلهما هنا عند مريفة أو في المسيل.. تحرّك.

يظن العبد أن أسهل الحلول وأوضحها عنده سيكون كذلك عند سيده، يقبض شافي على حفنة رمل ويهيلها: حولها كل عيال العقيق، ونصفهم «قطعها بالأنشاد» وأنا أعجز حتى عن أن أسلم عليها.. لا أعرف ما يحدث لي إذا رأيتهما.

يفتل جمعان شارب الكث: فإن قلت فيها قصيدة على لسانك، وغنيتهما عند الحطب ثم أوصلت لها خبراً أنك القاتل..

جلسة الشابين تطول وتثمر شق بيت نطق به جمعان: «نفلا رمتني ولا  
أخطتني رصاصتها»

يردد شافي بجدية شطر البيت ليكمله، وكلما رفع رأسه لجمعان استعجله،  
ما إن يفتح فمه حتى يفقد رضاه القليل عن كلماته، يشيح بوجهه ملوحًا بيده:  
اصبر اصبر.. «نفلا رمتني»

يعلن انهزامه، فيقرر جمعان أن يكمل ما بدأه، يتمم بكلمات غير واضحة  
ثم يخبط بكفه جانب ركبه ويوبخها: أصابكم الخرس الآن؟! في الليل لا  
تدعونني أمسي بثرثرتم وتصمتون إن احتجتكم! أليس فيكم من ينظم شطر  
بيت؟!!

يضحك شافي من العبد الذي يؤنب جنه، يمازحه: حبستهم في ركبتك  
أو أنها من كبرها وسعتهم؟

يتحسسها جمعان بحنو: اصبر.. اصبر سيأتونك بما تشتهي من حكي.  
بعد وقت ليس بالقصير يقول لسيده:

نفلا رمتني ولا أخطتني رصاصتها مخاطبها في الحشا ما هوب يخطيني

يضحك شافي: غشك جنك.. ما قلته بصدر البيت كرروه هم في عجزه.  
أحنق الاتهام جمعان فنهض: أنا العاشق أو أنت؟ احمد ربك فأنا  
أحاول وصف ما لا أشعر به، وأنا أحسن من الذي إن رأى امرأة «ضاعت  
علمه»

يوقن شافي أنه على حق، ورغم ذلك يطارده حتى المنازل، الرمل البارد  
تحت أقدامه والأسمر الذي يروغ عنه كظبي يجعلان أمعاءه تنقلص، على  
باب بيتهم يستند ضاغطاً بيديه بطنه ويتفجع من خاطر برأسه: حتى لو أنظم  
فيها أجمل القصائد ستزوج سواي.

يشفق عليه جمعان: ليس ضروريًا أن تكتب فيها نشيْدًا.. أرسل لها من يعرف إن كان من بارقة أمل لك أو..

– تكلمها أنت؟

يشير جمعان لنخل خالها: بنات جيرانك ما بينك وبينهن إلا الجدول.. لو أوصيت إحداهن لكان آمن لك.

يرصف شافي الكلام الذي سيرسله مع البنت لنفلا فيتزعه صوت أبيه قبل أن يستقر على جملة، يبلغه أنه سيرافقه لزيارة من ضربه آل هذال، ويردد أهم ما قد يناقشه الحي عنده، وبصدر شافي هاجس أسود أن هذا الدم سيستمر ويقف بينه وبين الهذالية. يتذكر أن المسيل الذي يتنازعون عليه يجمعه بها، يسأله أبوه إن كان لديه ما يقوله في مجلسهم، يرخي عمامته ليحككي رأيا يكاد يجزم أنه لن يعجبه: شبر أرض لنا أو لهم.. يسيل بسببه الدم اليوم فمن يوقفه؟

خطوات أبيه الواسعة تتوقف فجأة ويلتفت لولده: هذا كلام رخمة.. عندك غير ذا الحككي أو اسكت به حتى لا يسمعه الرجال.

يسكت شافي الذي تدرب على كلام مختلف مئات المرات، يتخيل أن يقول ما لديه دفعة واحدة: عندي يا أبا شافي.. أريد أن أخطب بنت صالح.. أحبها وأريد أن أطمئن أن هذه الحرب لن تحول بيني وبينها.

\* \* \*



## (3)

أحاديث الغواصين الراجعين للعقيق تبدأ هاشة أول المسير، وفي وسطه تقال لتقطع المسافة، أما بتاليه فتخرسها حسابات المال القليل الذي عادوا به وكم سيكفي؟

بآخر الدروب يقتصر الحكي على كفاف الإرشادات، حتى إذا بدت لهم نخيل العقيق استعادوا أصواتهم وهمهم.

الرحلة تخطف جابرًا من الوادي لتجدد ولاءه له، حين لاحت له أبراجهم والمسيل تذكر ابنة الخال الحبيبة بتلا والعرس الوشيك. سمير بن الرياح أشفق عليه فوضع على لسانه بيت شعر مشؤومًا، وجد نفسه يردد:

«جعلله يجينا هارب منحاش متحسف يلعن خطاطيبه»

جابر فاجأه بيت الشعر على لسانه، كان بيتًا تردده المرأة ونساؤها إن جاءهن خبر زواج رجل على امرأته، نفص رأسه ليطرده فوجده يعود بعناد ليردد فيه.

بعد مريفة في موضع تتمايز واحة النخيل وتتباعد الأحياء الثلاثة أتنه أخبار الضربة، رجع لحيه فاستقبله نخله بما بقي من عبق اللقاح، يده على خاتم ذهبي لأمه وزميم لأخته نفلا، وثالث سيهبه بتلا صباح زواجهما، يتحسسها في صرته ويرتب كلامًا يعتذر به حيث لم يقدر على ما هو أكثر، ولن يخبرهما أن موسم الغوص كان أشد شحًا من سابقه، وأن بعض رفاقه قد أوحى إليهم النواخذة ألا عمل لهم عندهم في الموسم القادم. يرجى هم

البحرين لوقته ويطل على جدول أهله، يلوح له ثوب أمه بأعلى نخلة، يحييها بعلو صوته: أم جابر!

- «يا مرحبًا من حيث سرت إلى حيث جئت» تنزل أمه أسرع مما صعدت، ويقبل رأسها وتقبله، تضمه ثم تفحصه للحظة بصمت ويكرر لسانها: يا مرحبا.. يا مرحبا.

تقوده إلى داخل البيت، وحين يطلان من وراء جدار الشرف القصير تنهض للقاءه نفلا، يحس أنها طالت في غيابه وزادت جمالاً، يعزم أن يخبرها أنها نخلة هذالية كل عام تسمق، غير أنها تسبقه فتغني له وتلعب، يقبل خدها قبلة سريعة وهو يراقصها، ثم يشبك أصابع يسراه في أناملها المحناة، وتظلل أصابع يمينه رأسها من كل سوء، يجول اللاعبان في مساحة حصير أمهما وهي تتأملهما. بعد الرقصة القصيرة يعود فيضم أمه، يتورد وجهها، ولولا شيب ناصيتها لبدت طفلةً خجولة، بهجتها تبلبل لسانها، لا تعرف كيف تعبر لولدها عن فرحها، تدخله مجلسهم وتجلسه عند وجارها: البرد دخل وأخشى أن يوجعك.

تأتيه بالقهوة بيد مرتعشة، تضع فنجاناً أمامه وتنسى أن تصب لنفسها، يحتسي رشفة فتجري لتشعل التنور، تعود بوجه أحمر توالى عليه نفحات هواء باردة وحرارة اللهب، تقعد معه لحظات ثم تستأذنه لتعجن، عند تنورها تصلها ضحكات ولديها، على لسان نفلا تسمع كل الحكى الذي تود أن تقوله لابنها ولسانها لا يطاوعها.

بين المغرب والعشاء تنهر ابنتها للمرة الثالثة لتنام وتؤجل ثرائها للغد، وما إن يضع ولدها جنبه على فراشه حتى تدنو منه، تبلع ريقها وهي تغطيه، تذكر بعض ما قالت نفلا لتكرره فيبدو أصعب، يخرج رأسه من تحت اللحاف فتخطف إناء الماء عند رأسه: سأزيده فقد تظماً ليلاً.

تعود لحجرتها، تتمدد قرب نفلا التي تباغتها بقرصة: لم يبقَ - يا أم جابر - إلا أن ترضعيه. تجهش الأم بالبكاء: والله لو بقي في صدري حليب لأرضعته.

غفوة بيت الغواص العائد لم يكتب لها أن تطول، أيقظهما ديب خطوات كثيرة عجلى ولغط. تخرجان من الحجرة ويشير جابر لسما في كبد سوادها بدرّ واهن: القمر تأكله الحوتة!

تحت أنظارهم يصارع القمر ليغادر ظل أمه الأرض الذي يحجبه عن الشمس، لون القمر يتكدّر ويرتفع النداء في مسجدهم للصلاة، تتوالى خطوات الرجال والنساء في الدرب، يمشون خافضي الرؤوس مختلسي نظرات قلقة إلى شطره الباقي.

خرج جابر وماء الضوء يقطر من أطرافه، تطلق أسنانه من البرد ونفلا تعترضه: آل بنيان - إن جاد ظني - سيضربون أحدكم الليلة أو غدًا، لا تكن أنت يا ابن أمي.

نضحها بقطرتي ماء في أصابعه: «فال الله ولا فالك» .. آل بنيان أخوالي .. عيب عليهم ضربي. قبلت جبينه: أخوالك بيت، وآل بنيان عشرون بيتًا، والخواطر فيها ما فيها.. وضربة ولدهم حان سدادها.

دخل حجرته ثم رجع بثوب يلبسه فوق ثوبه، دار به دورتين أمامها فاردًا يديه: إن ضربني أخوالي فلن يوجعني الضرب.

ضحكت بنت صالح وخرج، وبعد أن كسب القمر معركته مع الحوتة عاد، الدم على ثيابه أخاف نساء البيت، وجهه المنطفئ اختصر إجابات الأسئلة في واحد: آل بنيان ضربوا هذاليا والله يستر!

- حي؟ سألت نفلا.

- ميت؟ سألته أمه.

لبس إزاره، وخلع ثيابه ثم اتجه للرف: لا حي ولا ميت!  
يطرح ابن صالح جسده على سرير الأثل والجريد، تحاول أمه أن تقنعه  
بأن ينام في الحجرة: برد... ستمرض.

تذهب أمه وتأتي الحرارة والمضروب بعينه الحمراء الجاحظة وشق  
رأسه المنهدم، يشم زنخ الدم السائل من أنفه وأذنه، يطمر جابر فزعه في  
صدره فيباغته في أحلامه، كلما فر سَمَت عليه أمه وتناومت نفلا. فجراً  
سحب نفسه للمسجد، في كل خطوة كان يطرد خجلاً هاجساً جباناً يحمد الله  
أنهم اختاروا غيره لأثرهم.

على باب رفيقهم المضروب ينتحي به أبو هليل: أسمعت جديداً من  
جهة آل بنيان؟ لا يمهل الصانع ليفكر، لمسة أبوية على الكتف تلاها مغص  
في بطن جابر، أسرّ له: بنت خالك بتلا.. ولد عمها حَجَرها. أردت أن أخبرك  
لتجد ما تقوله لمن سيسألك إن شاع الخبر.

تواري المنعطفات الصانع، ويعود ابن صالح لمشراق أمه أسود الوجه،  
وقبل أن يبلغ العبرة التي تسد حلقة يجيء والد الحبيبة، تخطف أمه دلتها  
وماعون تمرها لتجهزها لشقيقها، وجابر أو هن من أن يقول لها بأن الخال  
لن يشرب قهوتها اليوم.

- مُقدّر ومكتوب يا ولدي يا جابر، ما لنا فيه اختيار، لو ما هو مكتوب ما  
سكت كل ذا المدة يعرف أنها لك وأنتك لها ولم ينطق بكلمة، وجاءني أمس  
مع أبيه وإخوته، حكيت معهم وطلبتهم، والشكوى لله..

لا يفصح الخال لابن أخته بما يستعر في حي آل بنيان وفي بيته، لن يخبره  
كيف ظل ولده ذو العشر سنوات يلوك في البيت قسم الحي بأن يمنعوا عن

نخيل آل هذال الماء - حتى تهلك، نهره فأغاظه الصبي «والله ثم والله ألا يعرف الهذالي بتلا» لم يخبر البنياني ابن أخته كيف جن وأزبد كبعير هائج يضرب ولده ويرفسه وهو يقول «الهذالي ولدي يا بهيمة، ولد أختي» حتى تدخلت الأم لإبعاده وفي صدرها يقين بأن كلامه رد على ابن أخيه لم يستطع النطق به.

لم يقل الخال شيئاً من ذلك لجابر، ولم تكن هذه المعرفة لتنتفعه الآن. يتلفت في باحة بيته التي تضيق، وتقبل أمه، ماعون التمر في يدها والبسمة الصافية على وجهها تخبرهما أنها لم تعرف بعد، يثقل الحمل على أخيها فيضمها ويكي. يخفض جابر بصره، شفاته المزرقتان تطبقان فمه، ويداه المتدليتان أمامه ثقيلتان عاجزتان.

بين كلام الخال الخانع وبين رمحه الطويل يتشوش بيت آل صالح كله، تبكي الأم مع أخيها، ويحتد صوت نفلا نيابة عنها: لو عرفنا أن أمر بتلا عند ولد عمها خطبناها منه.

توجع المسن بالكلمة فينشج ويقبل رأس شقيقته: العذر والسموحة يا أختي، ثم يعود بوجهه لجابر: ماذا كان يمكن أن أفعل يا ابن أختي؟ أتذابح أنا وابن أخي؟! أفضح نفسي في الحي؟! أبشر بالعوض يا ولدي.. عوضاً تاماً..

بين أمه وخاله يقف جابر حاجباً عين الشمس بوجه أحمر. مذ قابله أبو هليله وهو يحسد المضروب؛ أوجعوا جسده لكنهم لم يسرقوا مستقبله، ضربة سيسفى منها بعد أيام.

تنفض باحة البيت الثلاثة وتظل في صدره دلة قهوة باردة. تحت عشته يأتيه الصانع الذي نقل له الخبر، يواسيه وجابر يقضم سبأته، نظرتة التائهة تزيد الضيف إلحاحاً على كسر هذا الصمت: «خالك أعطاك كلمة.. والدفع عنده.. عروسك تأخذها غصباً عن لا يرضى»

يتذكر جابر ابن العم المعني: لم تكن له بيتلا رغبة، وعلاقتي به طيبة، من بين أولاد أخوالي كان الوحيد الذي لم يشعرني يوماً بأني غريب عنهم، تنتقد أُمي صلافة أبيه لكنه كان لي أقرب من أخ.

يلمز أبو هليله جدة ابن العم: «يا بنت بنتي لا تأمني جارتني» يذكره بأن العم الآخر ليس شقيقاً لأُم جابر وهذا ما يجعل ابن الخال وأباه أجراً في إيلام العريس، يزفر ابن صالح الذي تضايقه حسابات لا تفيد: آخذ بتتهم غصباً؟! خالي يعرض علي بدل بتلا أختها خفرة. يقولها وينظر في عين جاره وبتسم ابتسامة مرتعشة، ثم يعود يقضم إصبعه، يلح الصانع: اللحمة الزائدة انزعها وهي حارة، إن بردت أوجعت. يتحسس إصبعه مرة أخرى، يعذب نهايات الأعصاب فيها بالعبث بقطعة الجلد الناتئة بجانب إظفره. يرده الرجل لما يهرب منه: أقصد لحمة خالك... لا تظلم نفسك.

- فأردها وأفهر خالي مرتين؟!

- أتقهر نفسك بأختها؟!

- هي أو غيرها سواء... سأكره أي امرأة تحل محل بتلا.

\* \* \*

رجّح شافي أن الانفراد بينات جيرانهم بين النخيل أصعب مما ظن. ظل أياماً يضيف كلمة ويحذف أخرى، ومع كل جملة تغدو ابنة صالح في خياله أقرب: أول مرة تفاجأت بالرسالة، وفي المرة الثانية تبتسم وتلح على حاملتها بأن تكررها بنصها، في الثالثة كانت في طرف نخيلهم تنتظرها.

بعد أسبوع لمح بتلا، ارتخت مفاصله وبردت عظامه، أوقفه نشيج الفتاة فانزوى وراء شجرة تين عجوز، عبرات الفتاة يرتعش لها جسدها المنكفي، يوجعه مظهرها ويتمنى لو يقدر على سؤالها ومواساتها، حين يدير رأسه مرة

أخرى صوب نخيل الجيـ إن تكون بتلا قد اختفت، يرى خفرة فيناديها، العرق البارد يتفصد عن جبينه والصبية تتقدم نحوه على مهل، تواجهه ويجف ريقه، تكرر بلا يأس: عندك شيء؟ أتريد شيئاً؟ شافي؟

يفرك يديه وهو يملئها كلمتين لبنت عمته، ويعدها وعوداً مغرية إن عادت له بكلام طيب. تعود الفتاة الممثلة وهي تخوض في جداول الماء وتلتفت له وتبتسم، ويسند جذعه لسدرة واثقاً أن المهمة الأصعب انقضت وما عليه غير الانتظار.

قبل أن تقطع البنية نخيلهم ناداها صوت بتلا: خفيرة! تعالي.

تتجه خفرة لبركتهم الصغيرة، تقف أمام جسد بتلا المهدود بكاء، تنتبه لعينيها الدامعتين، تسألها: ما بك؟ فتشيع الكبرى، ويخرج صوتها المتحشرج: عيوني توجعني.

تدور حولها خفرة لتفحص الجانب الذي تخفيه فتسألها بتلا: إلى أين تذهبين؟

- لبيت عمتي.

تجحّظ عيون بتلا، وتشد الصغيرة بكمها: إياك.

- شافي بعثني لنفلا لأقول لها..

تثور بتلا وتضرب أختها: إن فكرت بالذهاب إليهم قطعت رجلك.

تقول بتلا لنفسها أن أختها ستزوج، وأنه من غير اللائق أن يراها الزوج خلال اليومين اللذين يسبقان العرس، وأن الفتاة التي لم يحرص أحد بعد على تبليغها ستعرف في المكان الخطأ، لكن حرارة الغضب الذي تكبته منعها من أن تقدم لشقيقتها هذه المعرفة فضربتها.

لا ذنب للصبية إن عجز الكبار عن الوقوف في وجه العم وأبنة، وخفرة

لم تختبر أن تكون بديلتها في حجرة جابر لكنه ليس ذنب بتلا أيضاً ولم تقدر على كف يديها حتى حالت أمها بينهما.

دعوات الأم على من قهر بنتها تصحبها يدها تفحص وجه خفرة بقلق، وتولول لأن آثار الضرب ستظهر عليها في الليلة المقبلة.

تماوتت خفرة مع أول الضرب، هي حيلتها مذ كانت طفلة مع كل من يضربها في الحي، لكن ذكر العرس صدمها فكان جمودها ذي المرة حقيقياً. سحبتها الأم لحجرتها، واعتبرت مهمة تبليغها قد تمت بما سمعته من بتلا، فلم تشغل نفسها بأي تبرير.

صباح اليوم التالي حشت الأم الفتاة في ثوب خاطئه لبتلا، انحشر في خصر خفرة فسحبت الأم ذبوله بصعوبة وهي تدير جسد بنتها المترجرج، تخطط الشحم المتراكم على معدتها بغضب فتضم الصبية يديها أمامها لتحمية من خبطة أخرى.

الأم تعدد التعديلات التي يحتاجها الثوب، وخفرة تنظر لفتحة الصدر العريضة التي لم تعتدها في ثيابها، ضحكتها الصائتة كسقسقة عصفور وحيد انبثرت وهي ترى الرداء المعطر المطوي بطرف الحجرة. لو كانت صبيحة خفرة في بطن أمها أعطتها قدرة مطلقة لاختيار ما تراه من المستقبل لرأت ما سيحدث بعد ذلك، ولما أطالت حملة بحث عنها لن تنتهي قبل القبض عليها.

في النخيل تلوذ بأشجار القطن وتتخفى خلف أغصان التين، وكلما اقترب باحث عنها خطوة اندست، حتى لم يعد لها قبل مغيب الشمس غير بثر هادي.

وجيب قلبها يعلو على أصوات الباحثين عنها، ترى نور سراج وتميز صوت والدها، لم يعد لها من خيار غير أن تهبط داخل البئر.



رآها مصعق فأحنفته جسارتها على مهجع جماعته، طير الحمام القابع بقلب البئر فانتفض جسدها كله وصاحت، سحبتها يد الوالد وسلمتها لأُمها.

\* \* \*

يضيق البيت بيتلا، ويوصي الأب الأم بألا تجبرها على المشاركة في التجهيز المضطرب للعرس، في حوض نخلة تقعد وعينها على باب أهلها ترصد كل داخل وخارج، زارهم الصانع أبو هليل، وشاهدت المشاة وشمّت الطيب، رأت أباهما يخرج متحاشيًا النظر جهتها، وظلت تنكت الطحالب الخضراء في قاع الحوض بإصبع رجلها.

بعد وقت لا تعرف بتلا طوله تناديها من وراء الجدول أم شافي: بتلا أمك هنا؟

تحقق في وجه جارتهم التي تحت الخطى صوبها ولا تفهم ما أغاظها في سؤالها، والواقع أن تعامل الكل مع ما حصل وكأن كارثة لم تحدث لها وتدمر مستقبلها هو ما يوجعها، ستجتازها الجارة وقد تساعد أمها في تزيين العروس بالعصفر أو تقترح كيف ستمشط القينة شعرها، وتتغاضى مثلهم عن أن هذا الظعن كان يجب أن يكون ظعنًا.

سمير بن الرياح عبث بجريد النخلة فوقها، لو أنصت لأخرجها من انغماسها في ندب حظها، ولو وثقت في أم شافي لشكت إليها، كانت الجارة قد جاءت وهي تعرف ما حصل مع بتلا وتذكر كيف غيّر القدر اتجاه ظعنها هي في آخر لحظة؛ فمثل بتلا كانت لشاب عشقته سنوات، وقبل زفافها بأسبوع تذكرت عجوز أن ابنتها المتوفاة قد أرضعت الاثنين، أبطل العرس وزفتها أمها لأبي شافي.

لو عرفت بتلا الحكاية لوجدت فيها عزاءها، وأم شافي التي نقل لها جمعان خبر ابنها العاشق مشغولة بسؤال لا بد أن تطرحه: هل نفلا بنت عمتك لأحد؟

الغيرة قشرة مشاعر عارمة اجتاحت بتلا، فما انغرس في صدرها تلك اللحظة لم يكن نصلاً واحداً، تهشم قلبها الذي تحميه مذ حجرها ابن عمها، وغضبت من جابر وخفرة اللذين لم يرد أحد منهما الآخر وسيتزوجان دون اعتراض، خافت من غدٍ لم يبد واضحاً، فحتى الذي حجرها لم يحدد موعداً لزواج، وحنقت على لسان أمها الطويل ويد أبيها القصيرة.

حتى هذه اللحظة كانت ابنة عمتها نفلا أبعد هؤلاء عن نقيمتها، بلعت ريقها وأجابت سؤال الجارة الأولى: نفلا طلبها كثيرون، لماذا تسألين؟

ارتبك وجه أم شافي، فتذكرت بتلا رسالة شافي التي لم تنقلها خفرة، بلا وعي زحزحت الشابة غضبها جهة نفلا، هذا أسهل من مرارة لوم أبيها أو انتظار ما لن تفعله أمها أو كره أختها، حسدت نفلا: «الخطاب تلو الخطاب على باب آل صالح وهي تتخير؛ وأنا رضيت بأخيها جابر لأن أبي مذ كنت رضيعة قرن اسمي به، حتى إذا حان الموعد بدلت الحرب آراء الاثنين.. أبي سيأخذ خفرة بيدها وسيجهزها بجهازي ويزفها لجابر.. خاف من ولد أخيه ولم يحسب حسابي... ولماذا يحسب حسابي؟! أنا لم أنطق، حتى الطفلة خفرة حين عرفت هربت، وأنا ربضت أجتري وجعاً لا يحس به أحد»

وجدت نفسها تقول لسائلتها: نفلا تريد أحداً تقوده ويتبعها.

سترت يمين أم شافي شفاهاها: تقوله؟!

بسبابتها وإبهامها شدت الفتاة شحمة أذنها: بهذه التي سيأكلها الدود سمعتها تقول «حمار أركبه ولا حصان يركبني»  
جراً الكلام أفرغت أم شافي فتراجعت خطوتين، ثم نفضت مقنعتها داعية بالستر لنفسها ولكل عفيفة قلب ولسان.

\* \* \*

«حزة المخنفى» آخر ساعة قبل المغرب، تبدّل السماء فيها مواضع أجرامها، قرص الشمس تجذبه الزرقة ليغطس وراء النخيل، والقمر يتمطى صاعداً مكانها، في العقيق تلك ساعة يزفر الرمل جنه، فتبدأ جولاتهم الليلية، حركتهم المتوترة في رؤوس النخيل تظهر في حفيف جريدها، تعبث أنفاسهم بذيول ثياب السائرين بينها، وأشقاها قد يقذف من يتجراً على القرب من الآبار ليلاً بالحصى.

أبو خفرة قابض بيده على كمها، يقودها بين النخيل وأمها تتبعهما، تمد العروس بالرداء الذي نقعته في الطيب يومين، وتعذل زوجها: هذا عرس أم زنا؟! تروح بيتي لا يسبقها ظعن ولا تلحقها دفوف؟!!

يلتفت الكهل إلى امرأته بعيون محتقنة، بصوت أجش يتوعدها بأن يفصل رأسها عن جسدها متى عاد للبيت، تجرها ابتها بتلا بأكف واهنة، ويكمل الأب مسيره صوب بيت أخته أم جابر، وخفرة تكتوي بدموع أمها، وتتعر في ثوب أختها الطويل.

بين النخيل قابلهم جابر وبندقه على كتفه، يتذكر ملامح خفرة التي لم تستر عنه قبل أكثر من سنة، كل ما يتذكره أنها أقصر من أختها وأسمن. سلم على الخال سلاماً طال، صوته الخفيض صدم خفرة، نعومته أصابتها بمغص في بطنها، ظلت تسير خلف رجلين ناقشا تربيّات لم تكتمل، قال أبوها: أمها تريد طبولاً وأنا حلفت ألا يباريها أحد.

- ليتك تركتها تجيء بقيانها يا خال... هذا وأمي نادى بعض قياننا وتنتظرنا.

- الوقت ليس وقت طبول يا ولدي، ولكنني حلفت ألا يعرف ابن أخي بتلا حتى أرف لك عوضك.

صمنا وعاد للدرب سكونٌ تشقه ريح باردة، الهواء ولج جيب خفرة فارتعشت عظامها، وبعد لحظات قال جابر: أولمت لحينا، وكان الواجب أن أعشيكم - يا آل بنيان - قبلهم.

يعتذر كل رجل عما قصّر فيه، ويعرفان أن زواجًا يتوسط الحرب حري بأن تتخلخل أركانه، يتهدج صوت الأب مشيرًا للحي خلفه: يا ولدي الدنيا عندنا تغلي، والصدور فيها ما فيها، متى راح الشر كان في الوقت متسع لكرامتنا.

يتذكر جابر تبرير أمه: «خالك بين نار وغار» تشرح له كم يود أن يرضيهم ويخاف أن يغضب حيه، كان لابد أن يتمم زواج خفرة كما وعد قبل أن يقفز ثانٍ من بني عمها ويحجرها نكاية في الهذالي كما حجروا بتلا.

تدخل العروس بيت عمتها، همس الهذاليات يضاعف رجفة جسدها، يد نفلا المحنة تأخذها لحجرتها، يسبق جابر عروسه بسراج، على الملحف تقعد نفلا بجوارها، بعد سنوات ستقول خفرة إنها تلك الليلة ظلت تلعن حظها «ظننت أن جابرًا سيقارنني بأختي فإذا بحظي يضعني مقابل نفلا»

ما رآته أم الصبيان كان طفلة يروعاها أن تلتفت فلا ترى وجه أمها، ظلت الجنية تزيد اتقاد اللهب في فتيل سراجهما حتى يرى جابر بوضوح ملامح الطفلة، تبارك نفلا لأخيها وتقبل جبينه، يوسوس الذهب في يدها وعلى صدرها وهي خارجة، ويغلق ابن صالح الباب فتتمترس أخته مع النساء خلفه يغنين، وتسمع خفرة عمتها تملي عليهن:

«وأي خفرة مع النسوان بكرة مشعلانية  
كنّ يديها قصب رمان والذهب فيه مارية»

ليلة طال فيها غناؤهن عند الحجرة، صخب الخارج يقابله هدوء الداخل، بعد ساعة غادرت النساء دون أن يفتح جابر الباب ليرمي لهن ثوب العروس الممزق. لم يخرج في الصباح التالي بآثار أظافرهما في وجهه وأكتافه، لا ركضت خفرة بين القدور والمواقع المصفوفة في حجرتهما هرباً منه ولا هو طاردها.

نظر جابر إلى الصغيرة المطيبة، تذكر الحمام الذي يربيه، رغم الألفة بينه وبينها كانت تفرع حين تقبض يده على إحداها، كل مرة يشفق عليها من هشاشتها حين يضع منقارها بين شفتيه ليسقيها ويظل يسمع وجيب قلبها، جهة الباب زحفت خفرة، ظل يروي لها كل حكاية تخطر بباله لتطمئن. كان آخر ما سمعته الصبية صوت عمتها توقف الدفوف، غفت غفوة ما بقي في العقيق وجه ما رآته فيها، وفي الصباح لم تصدق أنها البارحة فقط غادرت بيت أبيها.

خيط النور المنسكب من نافذة حجرتهما أبيض كثيف، يلمس ذراع الضوء قدمها الممتدة خارج الملحف، تتحسس جسدها، وتتذكر غمزات رفيقات بتلا عن آلام أسفل البطن والفخذين، لا شيء يؤلمها إلا رأسها، ولا أثر لجابر سوى ثوب مشنوق على المشجب الزاهي والمثبت مقابل فراشهما.

أسرار الرواشن صرر حكي تبعثها تالي قهوة تحتسيها النساء بعد الرجال، فأثر المشروب اليومي في نساء الوادي مختلف عما يفعله بالرجال؛ يشربه الرجال كل يوم فيجعلهم أشد ثباتاً ويرتب أفكارهم، وتشربه النساء ليصبحن أخف وتنحل عقد ألسنتهن، فإن حامت صغيرة حولهن عين سلوكها ليحمين سمعها مما قد يخدشه. فرجة بنت راشد تباغت جارتهم أم جابر بين المهنتات بعرس ولدها، تحاول النساء إبعادها بنظراتهن النارية فتلكأ، ثم بدان يختلن أسباباً ليرسلنها بعيداً.

بعد عدة جولات بين جلسة النساء في حجرة خفرة والمطبخ أشفقت نفلا على الصبية، حكّت بنت صالح لها عن المرة التي لم تكفها من أمها إشارة الإبعاد الأولى: دنت مني صاحبة أمني ومدتني بفنجان قهوة... (قلدت نفلا نظرات المرأة المتحدية) قالت أتريدين أن تشربي الفنجان؟! ألا تعرفين ما يحصل للعذراء إن شربت القهوة؟

السؤال المعلق بلا إجابة لحقته نظرات نفلا بين فخذي فرجة، بشكل غامض فهمت الفتاة أن النتيجة مروّعة، غضبت من نفلا التي سقتها التهديد، وقبل أن تهبط دمعها ابتعدت، وغابت عن بيت آل صالح عدة أيام.

كانت نفلا قد كبرت بما يكفي لتدخلها النساء دوائر الممنوع، يهتكن أمامها ستور النشوات، هي اليوم بينهن يعلمنها كيف يفوح جسدها طيباً متى ضمها عشيرها أو شم جدائلها الممشوطة، يرينها كيف تخلط الطيب، وأين تصبه فيوقظ منابع الحس في جسدها الغض، وكيف تسكر عشيرها به في مواضع القبلات المرتقبة في مفرق الصدر وعلى العاتق، لكنها تتجنب اليوم جلساتهن شفقة على خفرة التائهة فيها، فحسابات السن التي أدخلتها دوائر النساء هي ذات الحسابات التي أقصت خفرة، وها قد قذف بها حدث مفاجئ في بيت الزوجية بلا تأهيل.

أسابيع انقضت على العرس شجعت نفلا لتغري خفرة بزيارة أهلها. تريد أن تخرجها قليلاً من الأدوار الثقيلة وتريد أن تكون حجتها لتزور بتلا.

الجو المشحون في حيي هذال وبنيان لن يعيق حركة الشابتين وإن بان إحجام الرجال عن بدئهما بسلام أو سؤال، تقطعان النخيل وتستقبلهما بتلا، تتعجب بنت صالح من حال ابنة الخال، لونها غدا كالحا ونظرتها انطفأت ووجهها برزت عظام وجنتيه. نفلا التي كانت تريد أن تقعد مع ابنة خالها الكبيرة اكتشفت لحظتها صعوبة تخطي سيرة جابر وخفرة والعرس.

تتعانق الشقيقتان وتبكيان فاصلاً لا تفسره الكلمات، ترحيب الأب يليه ترحيب الأم متهدج النبرة، يقودان خفرة إلى الداخل، فترمق نفلا بتلا التائهة بين مجاملة نفلا فتطلب بأن تبقى وقتاً أطول، أو اللحاق بخفرة لتسمع اسم جابر على لسانها.

تنسل بنت صالح معتذرة بأنها أرادت السلام فقط وأن عليها أن ترجع إلى أمها حالاً، يدخل الحشد البيت وبتلا في محلها.

توقعت نفلا أن زواج خفرة بجابر سيربك علاقة الأختين، لكنها لم تتنبأ بأن علاقتها ببتلا ستضطرب، في درب العودة حزنّت لأنها لم تبج لابنة خالها بحكاية خاطب جديد، كانت سترده على كل حال لكنها اعتادت مع بتلا نبش تاريخ كل متقدم، تسميه نفلا وتبدأ ابنة خالها مشوار التفتيش في سيرته واختباره إن لزم الأمر، تحصيان كل فرد في بيته، وتستعرضان كل خصلة طيبة أو سيئة لهم. اليوم بلا اهتمام سألتها بتلا عن حالها وغامت نظراتها قبل أن تبسط بنت العمة خواطرها.

يخشى العقيق غياب عياله، يروحون فيخاف أن ييلعهم الرمل، أو تسحرهم البلدان البعيدة. من يعود بعد غيبة تشممه أنوف المقيمين كتيس طارئ على حظيرة، يلمزون أي جديد في يده، ويرصدون كل كلمة غريبة على لسانه، بالسخرية يحمي العقيق أعرافه حتى لا تنتهك، فإن صرّح أحد المغادرين بأنه سيعود بجديد وعجز عنه أوجعوه بألسنتهم لتتهيب الواحة اشتها أي مختلف.

قافلة الفوازي تقطع رمل نجد الأصفر ويتراقص السراب أمامها فتشمئز قلوب رجال تربطه بالضياع، أما هو فيقول لهم: رملتنا تحنّ علينا، تمنينا بالماء حتى وهي ظمأى.

على باب وئيل يلقيه فيحان، الخنجر الذي أهده أياه قبل فترة مثبت على جنبه الأيسر، وسيور حزامه الجلدي مضروبة على صدر الشاب ووسطه، تحت التفاصيل الذكورية يرى في أخيه وجه صبي أشبه بوجه أمه، يفحصه بصمت ويراهن أن الأيام لو ملأت وجه الشاب بالشعر ستبدل ملامحه.

ما يقلق عمّوشاً هو أن زيارته القصيرة للرياض ردت له للعقيق دون موتر، بعد محاولة عجلت لقيادته أدرك أن الأمر ليس أمر مال فقط، كما أن تشككاً آخر أرخى عزمه، فقد قيل له أن الموتري يحتاج سواً يعرف كيف يشغله وكيف يصلح أعطاله، والموتر يشرب ولا يوجد في العقيق «قازخانة» لتغذيته.

يلامس أنفه أنف فيحان في نقرات ثلاث ويسأله عن حاله وعن الجماعة، من قاع حنجرته يُخرج فيحان صوته ليبدو أعرض، ويسأل عمّوشاً عن رحلته. قبل أن يتم التاجر حديثه يعطيه أخبار العقيق: لا رجل يسير في المسيل وحده يا عمّوش... لا من آل هذال ولا من آل بنيان... الحرب بدأت... وآل بنيان سيكسرون الهذاليين إلا أن يشاء الله!

في مجلس وئيل يتم والده الشيخ سرد التطورات: آل بنيان بنوا برجاً آخر



في طرف نخيلهم، الغارات الدامية لا تتوقف، والجراح في الحيين تؤكد أن أوان الحكيم فات.

كل دم في العقيق يستحلب ألسن القوم، لكن سيرة الدم التي يفخرون بسردها ستكون الرعب الذي سفحه جدهم مانع على باب قصره فقطع دابر الطامعين، يروي الرجال من تاريخهم الحكاية ولا يرون أن الدم كمن في طين الجدران تنفسه في وجوههم كل حين فيتذابحون.

حكاية قصر ابن هادي مسجلة في ذاكرة العقيق، يحكون عن شياطين الطمع التي أغرت أقوامًا خارج الواحة بذهب القصر، وبعد أن يواجههم مانع ورفاقه عدة مرات يرسم خطة إن لم تفنه هو وعياله فستبعد أطماع الغزاة للأبد.

ينتظرهم عدة ليال تحت جدار سوره، يتسور أحدهم الجدار، يلمح ابن هادي ذوائبه المحبوكه، يشير لعبده ليتركه حتى يهبط، ما إن تلمس قدمه الأرض حتى تخطفه أيديهما فينحرانه. يتأكد الرجلان أن موته الصامت جدًّا لم يستثريه الآخرين يواربان على مهل باب القصر، لا تمنع الفتحة أطماع الغزاة ولا تسمح بدخول أكثر من واحد. يدخل الفارس الأول ويخطفه العبد، ينحره ويد مانع على فمه، يدخل الثاني وفي لحظة يكون رأسه في جهة وجسده بأخرى، وثالث ورابع..

يتيسر الدم على مقبض السيف في يد ابن هادي، وبركة لزجة حمراء تحت أقدام عبده، وبقية القوم وراء النخل يقسمون غنائم القصر في أذهانهم، يغريهم صمت رفاقهم الداخلين وتسلبهم شهوة الذهب بعض توجسهم. بعد بضعة قتلى إحمرت عينا العبد وثيابه وشوشته الأجساد وراءه والدماء الخائرة تحته، أهاجه الدم فتسارعت ضرباته وابن هادي يشير بيده: لا تستعجل عليهم.

مع دخول التاسع طَير بضربة صفحة وجهه فشقت صرخته سكون النخيل، قبل أن يجهزا عليه ارتد وراءه يجري، حين أقبل جسده الدامي مسلوخ الوجه على رفاقه شلهم الرعب، وفهموا صمت ثلث السرية التي دخلت باب الموت ففروا.

مصعق يغري أحفاد ابن هادي بهذه الحكايات، يسرّ الغضب فيهم ويجعل ابن العم عدوًا، يضيق عليهم أنفاسهم إن دنوا من بعضهم بعضًا، ولا يصمت حتى ييسط كل منهم للدم يده.

«الحذر لا يمنع القدر» يعتذر أبو عمّوش منه بما لم يجتهد في تنسيقه من قول مبيّنًا أن آل فواز ما عاد لهم من بد من أن يدخلوا الحرب. يعترض عمّوش: ادخل بينهم للصلح يا والدي أو اعتزلهم.

يضحك أخوه فيحان: بل ندخل برماحنا وبناقدنا... كنا ننتظرك لتجيء بالموتر فنطأهم به.

أصم عمّوش أذنه عن لمزة الموتور ورد أخاه لنفسه: فزعتك مع الهذاليين على بني بنيان حمية لهم أم حب في الشر؟!

يفادر فيحان المجلس وتنبه تهديداته مجلجلة بأن يأخذ فرقة ويشارك الهذاليين دون أن ينتظر إذنًا، ينفرد الأب بعمّوش: لست حريصًا على دخول حرب داخل العقيق، لكن آل بنيان قويت شوكتهم فإن كسروا آل هذال فسيطغيهم نصرهم وستصل أطماعهم إلينا... رأيي أن ندعم آل هذال ليصمدوا في وجههم فتطول حربهما حتى يخرجنا منها منهكين و...

بوجه واجم يقاطع عمّوش أباه: و...؟ نقضي على المتصر منهم؟!

يضحك أبوه مستغربًا: لا يا ولدي، بل سنصلح بينهم.

تداهم حمرة الشفق زرقة السماء وشافي عند ناقتة، يلقمها النوى المعجون بالبرّ ويسند على جنبها حلمه. بياض ناقتة العفراء يزداد كلما أظلم الأفق، يفرد منكبيه على وركها، ويتخلل وبرها بأصابعه. أرهقه انتظار رد نفلا على رسالته، وخفرة تزوجت فأخفاها حي آل هذال، أما شقيقتها بتلا فلا يعلم لماذا تخيفه فكرة التحدث معها؟

تأتيه أمه عند ناقتة، ترقب عنايته بها فتباغتها ذكرى من شباب أبيه حين لاحظت طول بقاءه عند ناقتة فسألته عن مكانتها عنده، قال أبو شافي: والله لولا خشيتي من أن يسخر مني الحي لقهويتها.

ترفع صوتها من بعيد: فقدتك وعرفت أنك ستكون هنا.

تعيد سرد علاقته هو بناقتة: كأنه اليوم... أتذكر حين أهداك أبوك إياها وهي بكرة صغيرة، سميتها «شقحا» لبياضها، ولم تعد تتكل على أحد في العناية بها، بعدها بفترة جئتني ووجهك متكدر، قلت إن كل واحد في رفاقك إن ثارت بينكم خصومة «يعتزي بأخته» واشتكت أن لا أخت لك ليكون تذكر اسمها فتقوي عزيمتك... قلت لك قل «أنا أخو شقحا».

شافي ضحك وخفض رأسه، لا يتذكر الحكاية ويعرف أنها ستخاطبه في حرب لا يريد أن تستمر لحظة، تحكي ويعارضها: الحرب ليست لي ولست لها.

تشيخ قليلاً ثم تعود فتقول: نساء حولي يلمزنني بهذه الكلمة. أتدري ماذا أقول لهن؟ أقول بعض النخل تطلع بلحها أول الموسم، لكن أفضل النخيل هي ما تطلع في أوسطه، وأنا يا ولدي أعرف أنك فحل هذه الحرب مهما نأيت عنها.

نقتها توجعه، وليفاتحها بهمة رمى عمامته تحت أقدامها: أم شافي طلبتك طلباً فلا ترديني.

ترفعها وتمسح عنها الغبار وتضحك: أبشر.

- أريد بنتاً والحرب بيني وبينها.

تمده بالعمامة: يا ولدي ما ذي بأول حرب في العقيق ولا آخر، والنسوان يتزوجن قبل كل حرب وفيها وبعدها.

تمنى أن يسكت عند هذا الحد فليس لديها ما تجيب به إن ذكر نفلا، يغیظها عجزها فترفع طرف جديلتها: لو ننتظر حروبيكم لتنتهي مشطنا شعرنا شيئاً عند أهلنا.. تتزوج إن شاء الله وأقف في عرسك وأغني، ولا تسكت طبولنا أسبوعاً.

كل الوعود تبخرت حين سمعت الأم اسم نفلا بنت صالح. تسكت لحظات وتوقن أنها لو سعت لصرفه عنها بوضوح فسيعلق بها أكثر، تعتذر بأن الحرب وإن لم تمنع الأعراس فإنها لن تسمح بها بين حيين يتقاتلان، تبسط على الرمل بينهما تفاصيل أجساد غضة رأتها في الأعراس: تخير من تريد من بنات الحي من أخطبها غداً.

تعتقد حواجه عند تشديدها على بنات الحي فينقصد لسانه، بعد برهة يسأل أمه: أتعرفين عنها شيئاً أجعله؟!

تنفض مقنعتها: لا إن شاء الله. البنت لا يقال فيها إلا كل خير، لكن في بنات الحي غنى، ولو أطعنتي لأرجأت أي حديث في العرس الآن.

يواجهها ابنها بكلماتها: أما قلت النسوان يتزوجن في الحرب؟!

يخشن صوتها: يتزوجن، لكن الرجل الفحل لا يشغل بامرأة وسط حرب. قالتها فطأاً شافي رأسه، واحترق قلب أم كان عليها أن توجع ابنها لتسكته.

- جئتك قبل ثلاثة أيام.. ناديت وما في بيتك أحد.

تشهق أم جابر وتضرب صدرها بيمينها: لي أسبوع لم أخرج من بيتي.

المشاة تسأل صاحبة البيت عن عرس ولدها لتمنح مستضيفتها فرصة أخيرة للتذكر، وحين تدرك أنها لن تقر بغيابها: من أسبوع لم تخرجي من بيتك؟  
تومئ المتهمة برأسها إمعاناً في الإنكار، وتستوضحها المشاة: ولا خطوة؟!

- ولا شبرًا.

تبسط مسيكة دليلها القاطع: أما لقيت خرقة مربوطة في باب بيتك؟

تدك الخرقة قلاع إنكار أم جابر، تسوي مقنعتها حول وجهها وعيونها جاحظة، ثم تعترف وهي تخبط زند القينة: هاه.. أنت التي وضعتها في جمجمة الباب؟ هههه.. والله ما غير وقفة على آل هليل.. وقفة في رمشة عين ورجعت.. ونفلا وخفرة ورائي.. هل جئت وهما عند الغنم؟

تمازحها المشاة: أبو هليل؟! الصانع؟ أعربت نفلا ولم تخبريني؟

- لا يا بنت الحلال! عندي «ميقة» أهدتني إياها أمي -رحمها الله- قبل أن ألد نفلا، وقد أرسلت فيها عشاء لآل راشد فوقع من يد فرجة وانكسرت.. ورحت بها للصانع يرقعها.

عادت الأخرى تلح على شاغلها: «احذريني. أنا حالفة ما يوصل ظعن

نفلا لبيت رجلها إلا أنا. احذريني تعطين كلمة لغيري وأنت مواعدتني»

الحديث عن ظعن العروس فتح شهية امرأتين لمراجعة تفاصيل اتفقنا عليها على مر سنوات، كم ملحفاً ستقلان؟ كم ميقة؟ وما حجم الخزانة الخشبية التي ستحملها المشاة على رأسها وترقص بها في الدرب بين البيتين؟ كم علبة بخور فيها؟ وكم ثوباً فيها وكم مقنعة؟

جهاز عرس نفلا ظلت أم جابر تجمعه لابنتها مذ كانت طفلة، لكن نفلا ترجى تحقيق الحلم، تذكير مسيكة لها بوعدا يطلق زفرة حارة من بين ضلوعها، تخفض نبرتها حتى لا تسمع عروس جابر: «يا حظ الله والنصيب!» والله ما قعد في العقيق رجل إلا وطلبها، لكن نفلا رأسها يابس... تقولها الأم فتواسيها القينة: «إن جاء نصيبها ما رده ردا دين.. والله إني أحسب نفلا ما تقعد كل هذه السنين، لو أني مُحَلِّفة حلفت أن تعرس قبل أن تلبس المقنعة». وافقت الأم على أول جمل مواساة مسيكة، ثم تضايقت بآخرها حين أحست حركة وراء باب حجرة جابر فأرادت إسكاتها: يكتب الله ما فيه خير.

تهمزها المشاطة: فإن قلت لك إني موصاة لك بطلب.

نفز أم جابر متجهة للنخيل، مشيرة للمشاطة بأن تتبعها، وفي عشتها تسألها: خطبة؟ من؟

- عمّوش.. تاجر آل فواز.. زينة عيال وثيل.. شيخ ولد شيخ، والله ما تلقى في العقيق مثله.

- أزوّجها عند آل فواز؟ أريد لا بنتي أن تكون تحت سمعي وبصري، لو احتجتها ناديتها، ولو صدرت عنها أنّ سمعتها.

تضرب المشاطة براحتها صدرها: قصر وثيل بعيد؟! تقولين يا أم جابر أن نفلا هي من ترفض خطابها وأراك تستسهلين رد شيخ آل فواز وفارسهم حتى قبل أن تسألها رأيها.

تنهد أم جابر وتزفر باقي فكرتها لترتاح من حملها: أنا - يا أختي يا مسيكة - لا أرفضه، ولا أحتاج أن تذكري لي مزاياء، لكنني أخشى أن أربطها بشاعر.. الشاعر لا يحب إلا بنات قصيده.

- نصف قصيده في علوم الرجال، وما أنشد في بنت غير بنتك.

تتحاشى أم جابر النظر باتجاه المشاطة وتبتهل لله بأن يخيب بعض ظنها في الفوازي.

لسان المشاطة الخطابة مدرّب على دحض الظنون، لم يكن ممكناً أن يتم سعيه في كل الزيجات التي افتتحت به لو أحجم مع أول توجس يساق أمامه، تشجع مسيكة أم نفلا على البوح بظنونها.

- أظن أنه ما عرف بنتي فيحبها... هو رأى صبية متزينة ويريدها، فإن أخذته عليها أن تكون هذه المتزينة كل يوم وإلا خاب ظنه.

تضحك مسيكة: أفي زين نفلا شك أو حاجة للتجمل؟!

تورد الأم حجتها الأخرى: عموش تاجر.. كل يوم في محل، وبنتي إن تزوجته سيدخلها قصر وثيل بين عشرين امرأة ويسافر، سترهقها حيل النساء وحكيهن، وهي ما اعتادت على ذلك.

- ابتك امرأة، ولن يصعب عليها العيش بينهن.

تقابل نفلا مشاطتها وهي خارجة، فتجزم بأن المشاطة جاءت بخاطب، فالنظرة الأولى تفضح ما في خاطر صاحبها قبل أن يتحكم بها، والمشاطة التي أشاحت عن نفلا لحظة ثم سلّمت سلاماً ظلت فيه تفحص الشابة بحنان أكد لنفلا حدسها، لذا لم تقعد بين أمها وجابر حين غادرت ضيقتهم بل تركتهما ودخلت حجرة خفرة.

ما زالت نفلا كلما دخلت الحجرة تنصدم بأن من فيها ليست بتلا، في الزاوية تسرّح خفرة شعرها متكدة الملامح، تزفر حين ترى نفلا وتمدها بالمشط: تضفرين شعري؟ كلما مشطته وألقيت بخصلاته خلفي اشتبكت.

تمشط نفلا شعرها وتبدي استعدادها لتمشيطة متى رغبت، وتطمئنهما بأنها ستكلف مشاطتهم بتمشيط شعرها هي أيضاً.

تخرج مع دخول جابر لتقبل على أمها ترشف تالي قهوة في دلتها، تخبر أمها بما حصل مع خفرة فتنهد الأم: طفلة.. سامح الله أباه..

توصي ابنتها بابتنة خالها طويلاً ثم تصمت، ونفلا تنتظرها لفتح سيرة الخاطب الجديد، حين تتلكأ العجوز تتوسد فخذ أمها: أم جابر في خاطرك شيء؟

تزفر الأم وتصمت فتدغدغها نفلا: أهذا عشق جديد بعد صالح أم حنين له؟

يتورد وجه الأم وهي تضم ساعديها على جنبيها، ثم تعض رؤوس أصابعها إصبعًا إصبعًا: أستغفر الله العظيم.. أفي هذا العمر أعشق؟ العشق للبنيات.

دست ابنتها أصابعها أكثر تحت إبطي الأم: قلبك أخضر.. لن أصدق إدعاءً يكذبه شذا طيبك وتفصيل ثيابك.

تفكر الأم بأن هذا ما ستفقده بغياب نفلا أكثر من جهدها في البيت وفي النخيل، تحكي خبر الخطبة. بدل أن تسمع من نفلا رفضها المعتاد لاحظت تسارع أنفاسها، تسرد الأم مزايا عمّوش وعيوب قصر وئيل.

تلزم نفلا الصمت وتدير رأسها في حضن الأم للجهة الأخرى، ترفع أم جابر رأس الشابة عن فخذها وترك ضلفة الحوار مواربة: فكري وسأفتح أخاك في الأمر وأسمع منه.

بصوت خفيض تقول للأم: اسمعي منه لكنني موافقة.



## (4)

في عز مربعانية البرد تبعث الشمس مدة أسبوع أشعتها الذهبية لتدفع النخيل، الأسبوع الذي توقت عليه النخيل مواعيد تلقيحها، تنفلق أزهارها من أغاريضها ويلقحونها، ثم يعود البرد أشد مما كان.

خلال الأسبوع ركن الرجال رماحهم وصعدوا نخيلهم، لكنه الهدوء المؤقت بين الحيين عادت الرماح تزورهم في مهاجمهم.

من بدا له دم قتيل الحرب الأول مفهوماً لم يعد واثقاً اليوم، استشرى القتل في الحيين فصار كل سبب مقبولا، أصوات الرصاص تدوي بين وقت وآخر في النخيل، وتذوي أرواح نساء يصارعن أسئلة انتماء صعبة، ويبكين القاتل والمقتول، تأسى النخيل كلما فقدت يداً ترعاها، وتعشش الخيبة في الآبار والجداول.

يسير جابر صوب بيت هذالي، في مدخله صفعته رائحة الموت التي يعرفها؛ رائحة كافور وسدر يلطم وجه جابر بالباب، يذكره بجسد أبيه المسجى وسط بيتهم على جريد نخل، يتذكر الجسد العاري فتجتاحه مشاعر الذعر ذاتها .

يزفر بحسرة ويدخل متبعاً لغط الرجال ، فمه المزكوم ببخور خفرة يتخفف منه وراء جدران بيت الذبيح. دفنه الهذاليون وعادوا عند عياله يناقشون من يأخذونه برأس مغدورهم. يفكر ابن صالح في خاله، كيف يمنعهم لو اختاروه؟ يتخيلهم يذبحونه، وتبكي خفرة وأمها وأختها، وستبكي أمه، يسأل نفسه إن كان يستطيع أن يبكي ساعتها؟

يعلو نحيب امرأة داخل البيت فتغير وجوه الرجال: الآن نروح لنخيلنا،  
والعصر نجتمع على الجسر.

يخرج جابر حاملاً القليل على أكتافه، ثم يرجع لنخيله ليملأ رثتيه برائحة  
الأرض المروية، يواجهه فم البيت المشرع فيوهن عزمه، يحاول ألا يعير  
هاجسه انتباهاً ويقبل على جدولهم، يتذكر أن اليوم ليس موعد ربههم، يسير  
طويلاً في بطن الجدول الرطب، ينكت حوافه الخضراء برجله، ويلتفت  
للمقفزية التي تردد أمه أنها أول نخلة تعلم صعودها، يقعد على حافة كتف  
حوضها المستدير، ينزع الحشائش منه حتى توجهه يده.

تقبل أمه ويحس أن ما يتحشرج في صدره من الليل يكاد يكون صرخة لو  
أذن لها، تبادره: عمتك عندنا.. أم خفرة.. سألت عنك..

- أبشري .. أنتهي مما في يدي وآتيها.

- رح لها وأنا أكمل عنك.

في الدرب تقابله نفلا، تفتح راحتها مرحبة، ثم تضحك: أوصتني أمي أن  
أناديك، ووقفت عند حجرتك ألعب.. حسبتك فيها.. إلى أن خرجت خفرة  
وأخبرتني.

تمثل نفلا رقصها عند حجرتة بحركات سريعة مبالغ فيها، يغمره إحساس  
بهجة طارئ فيجارها: نلعب في عرسك يا بنت أبي، جهزت عشرين طلقة  
لأرميها فوق رأس عموش إن شاء الله.

تحب ممازحاته والانسحاق فيها، تلمس بشاهدتها رأس أنفه ثم تقبلها: أنا  
فذاك.. أبعد الرصاص عن رأسه.

- لا تخافي.. سأجعلها فوق عمامته بفتري.. يدري إن وراءك رجال  
وتضمنين ألا تصيبه طلقة!

تهز رأسها موحية بأنها تفهم وجهة نظره، ثم تشاكسه: تريد فقط تخويفه! ذكرتني بعمتك.. هي ورائي تنتظرك (قالتها ومررت سبابتها على نحرها راسمة مصير أخيها) رح لها..

يدخل باحة البيت فيجدها قاعدة حيث وقف خاله وقفته المشؤومة قبل العرس، يتنحرج فتقوم له أم خفرة وعيونهما على باب حجرته الموارب. بعد سلام طويل بارد أعادت أم زوجته سرد ظروف الزواج مضيفة تفاصيل من جهتها لتعتذر بأن الحرب شوشت ترتيباتها.

يهدئ جابر خاطرها فتخفق العبرة صوتها أكثر: والله لولا عهد مضى من أييها لما رضيت لابنتي عرسًا لا يسبقها فيه ظعن، ولا ترافقها فيه البنيانيات كلهن. ثم تسرد مزايا خفرة: بنتي عقل وزين وطيب أصل..

يقبل رأسها وهو يؤمن على كلامها، لكن الوصايا التي بدأت عامة توغلت بعد لحظة في التفاصيل لتفصح عن اتهام للعريس: أمك تلوم ابنتي إن بهت الحناء في كفها أو باخ الطيب في مقنعتها.. ولا تدري أنها تضعه لأمك لا لك.. لا تسترخص ابنتي يا بن صالح.. إن كنت تريد خفرة فما هذا بفعل من يريد امرأة، وإن لم يكن لك بها حاجة فبيت أييها أولى بها.

خرجت الضيفة بعد أن طحنته في رحي لوم ثقيلة، تسمرت عيناه على عتبة حجرته، الطفلة التي لا تفتح فمها في حضوره بكلمة صبت كل نفس تنفسه في الحجرة في أذن أمها. نظرات أمه التي تتحاشاه مذ غادرت أم خفرة تدل على أنها شكت لها أيضًا منه.

في الليل دخل حجرته فانتفضت الصبية ولزمت مكانها، الطيب الذي سكبته أمها على فراشهما. وعلى ثوبها يكتم أنفاسه، يتفكر في فعلين متناقضين: تقترح أمها أن أطلقها ثم تصب عليها كل هذا الطيب! ماذا أقول للبت الآن؟ ما سأقوله لن تفكر فيه، سيطير ليحط في أذن الأم بلا نقصان.

المعاشرة الخاطفة جعلت خفرة تفهم الآلام التي كانت تسمع حديثاً الزواج يحكين عنها، وفي الصباح التالي رغم الألم خرجت من حجرتها بخطوات من اطمأنت أنها باتت امرأة.

\* \* \*

زواج بتلا الذي رافقته طول كثيرة أشغل أمها أسبوعاً، لكن غيابها هو الذي أطلق لسان خفرة لتحكي عن بيت آل صالح دون حرج، وأمها تغذي فيها القدرة على رصد كل تفصيل بأسئلتها.

كان السؤال المهم بعد تسرب خبر خطبة عموش إن كان آل صالح قد وافقوا عليه أو أنهم ردوه كغيره، تخبرها أنها رصدت زيارات متقاربة لمسيكة لكنها لم تسأل.

بعد أيام اغتنمت فرصة الاختلاء بنفلا، بدا كلامها كاعتذار وهي تقول إن أمها تستفسر عما حصل مع الخاطب الجديد، تدفق الدم إلى وجتي نفلا وصمتت، فأكملت خفرة: قلت لها إن المشاطة والصانع يزوران عمتي دائماً، ويبدو أن الأمر تم.

تواصل نفلا سكوتها وتحاول شغل نفسها بأي شيء عن الكلام، وفجأة تتذكر رغيغ الحلم الذي أكلته هي وابنتي خالها. خوَّفنها خفرة حين دخلت على خط أفكارها: يوم أكلنا الرغيغ.. أنت رأيت نفسك على ماء للفوازين أليس كذلك؟

تنقل بنت صالح الحوار الغريب لأمها فتنتفث العجوز في جيبيها: «بسم الله عليّ وعلى صيبي بالرحمن الرحيم» ثم تشهر تحضيراتها للعرس حين تجد ألا فائدة من التكتّم أمام ابنة أخيها.

صباح اليوم التالي ترفع أم جابر اللسان الذهبي لخزانتها، تشرع بابها

الخشبي المصبوغ بالحناء، تحصي ما فيها من ثياب وملاحف ومقانع ومواعين، تطمئن حين تتذكر كلمات مسيكة وهي ترجح كفته على ظعن صبايا أخريات. من خلف جدار الشرف تسمع صوت أبي هليل: يا أم جابر

يقوده صوتها لمحلها، فيهرول وتحاياها قبله: صُبِّحت بالخير! والمعونة! ترحب صاحبة البيت بالنجار، يقعد قربها ليسرد ما قد أتمه من جهاز نفلا: جهزت ثلاث مواقع، الكبيرة فيهن - يا أم جابر - تأخذ لها ثلاثة أصواع بر. أصابع النجار الضخمة تصف بتفصيل شكل كل ميقعة وحجمها، ثم تبين حجم الخزانة التي صنعها.. وعدد المسامير المذهبة التي ثبت بها كل طرف: صبغتها.. وجئتك وهي تجف في الشمس..

خشي ألا تقدر جهده ففز فاتحاً يديه لتعطي حجماً تقريباً للخزانة الخشبية، ثم عرض كفه حدًا في منتصف صدره: تصل إلى هنا.. الله يعين القينة التي ستحملها في الظعن.. أظن يا أم جابر أن امرأة واحدة لن تقدر على حملها.

أم العروس تبهجها الفكرة، والقينة التي دخلت على وصفه تضع الإناء النحاسي عن رأسها وتغتتم الفرصة لتتحداه، تضرب صدرها: أنا أرفعها وأرقص بها أيضًا.

يغادر أبو هليل والأم تنظف هي أصدافاً نقتتها من ثلاثة أيام، ترفع الحبات بنية اللون، وتكحت لحمها البحري بعدما لينه الماء، كلما رفعت واحدة شمته ومسيكة تحلف أن قد بدلت نقيعها كل نهار مرتين. تدقان خشب العود وتضعان عليه الجاوي، ثم تعجنان الخليط الغامق بالصندل والعنبر.

دخلت نفلا حجرة جابر، طالعتها ساق خفرة المشعر، رغم اكتنازه بالشحم كان ينقصه شيء ليدخل عوالم النساء، مرة أخرى تنبّه بنت صالح لعمر الصبية وتراها حبة تين استعجلت يد القدر قطفها، أشفقت على جابر قليلاً وأشفقت على بنت خالها أكثر. نادتها: المطبخ يحتاج تنظيمًا وأريدك أن تساعدني.

هبت خفرة وتبعث نفلا والخرج يسوطها؛ فالبيت بغياب نفلا صار مسؤوليتها. تفحصت المكان فوجدته نظيفاً، ثم تذكرت عادة نفلا وأمها في الترتيب عندما ينشغل بال إحداهما بأمر لا تستطيعان حسمه، لكنها لن تعارضها فهي تشعر بالراحة أكثر في وجودها عن وجود جابر أو أمه، مع نفلا تعود فتاة لا يطلب منها أن تلعب أي دور.

تفحصت نفلا قدور أمها، ثم قلبت ميقعة صاعلي البر في يدها مشددة بأن على خفرة أن تنبّه للشرخ في جنبها وهي تغسلها. اقترحت خفرة - ما دامت نفلا ترغب بعمل شيء مفيد - أن تقوما بجلو دلال القهوة، لكن نفلا لم تكن تريد عملاً يستهلك الوقت كانت تريد قضاءً للحديث يبدو فيه اقتراحها اللاحق مقبولاً وكأنه ابن اللحظة. اقتربت من التنور، تناولت جريدة نخل يابسة، بطرفها العريض نكشت الرماد، والتفتت لخفرة معلنة ببهجة: لا يزال حاراً.. سينفعنا.

التقطت مغرفة طويلة وجثت على ركبتها أمامه، غرفت بعض الرماد، رفعت أكمائها وبدأت تفرك به سواعدها لتزيل الشعر عنه وقبل أن تنبّه خفرة إن كان ثمة شعر حقاً على أيدي ابنة عمته كان اللون الفضي الأقرب للزرقة قد غطى مرافقها.

بابتسامة وبنظرات تنقلها نفلا بخفة بين المغرفة وسواعد خفرة أغرتها بمجاراتها، بدأت الفتاة بتردد تشر من ساعديها وتدعكها. قبل أن

تنتهي خفرة نفضت نفلا يديها ورفعت ذيل ثوبها، وهذه المرة لم تخطئ عين خفرة رؤية الساق المبروم الذي له لون شحم نخلة، استحثتها نفلا بنظراتها لكن خفرة شدت بأصابعها ذيل ثوبها ودسته تحتها ناصبةً ساقاً كرواق خيمة.

خرجت نفلا بخيبة، ولم تعلم بأن فرك السيقان بالرماد سيغدو هوس خفرة، حرن الصبية منع بنت صالح من أن تروي لابنة خالها كيف كانت في طفولتها تراقب أمها تأخذ بعض الرماد وتدسه بيدها في سروالها وتفرك ما بين فخذيهما.

\* \* \*

على صغر سنها تفهم خفرة أن علاقتها بجابر لا تشبه الزوجات السعيدة، أسئلة أمه مرة وأمها مرات توجعها لأنها تضغط على دمايل العلاقة، يلسعها سؤال فتفر من طرحة وتنزوي، ثم تعود فتلبس كما أمرتها أمها، وتطبخ كما تعلمها أم رجلها، ثم ترى جابراً يتلكأ في دخول الحجرة ويتعجل الخروج منها.

تفكر في نفسها فلا يحتمل جسدها حرارة غضبها، تحوله إلى حزن يتلبسها ويعزلها، ثم تشغل بعد فترة بالبحث عما تكسر به طوق عزلتها عن تذكر مصدر الألم. بعد كل حسرة تبحث عن نفلا، في بيت آل صالح الذي أبعداها عن بتلا تعلقت بابنة عمتها، يعجبها إتقان نفلا كل ما تفعله، يلد لها ما تطبخه ويهرها ما تلبسه وما تقوله، وينقرص قلبها إن رأت رأس ابنة عمتها ملاصقاً لرأس جابر في أحاديث هامسة لا يدعوانها للمشاركة فيها.

يقترّب موعد عرس بنت صالح فتلزم نفلا وأمها حجرتهما أكثر الوقت، تقتل الوحدة خفرة فتدخل عليهما، كفراشة تحوم حولهما، تلبّي كل لفطة

قبل أن تفتح إحداهما فمها، تتجاهل ما تراه في وجهيهما من عدم ترحيب، وحين لا يبقى مجال للتجاهل تلوم نفسها وتنسحب، وتعرف أنها ستقتحم خلوتهما حين يقتلها الضجر في المرة القادمة.

مثلها تشعر ابنة راشد فرجة بإهمال نفلا، ولكنها كلما حرصت خفرة على أن تستبقها نفرت. تسمع صوتها في طرف النخل فتخرج لملاقاتها، تعرف أنها عند جابر في عشته، ولا يخيب ظنها فبعد خطوتين في النخيل يومئ لها الجريد أعلى عشة ابن صالح كخصلات نافرة في ناصية صبي استيقظ من النوم.

لسعة في ملتقى ضلوع خفرة كلما رأت الصبية عند جابر، لا تفهم علاقة رفيقها بنت راشد، ألمحت مرة لإطالة الصبية الحديث معه... يضحك ويقسم أنه يحبها، وقبل أن تشتعل ضلوعها يقسم أنه هو من سيقص في عرسها. مع الأيام تعرف خفرة بعض حكاية البيتين، وتظل جوانب في الحكاية لا يطلعها أحد عليها، ويخمد بركان صدرها حين تنبجس صورة ظعن بنت راشد مولية في درب مختلف.

كان راشد رفيق صالح سنين عديدة، ثم رافق جابرًا في رحلة غوصه الأولى، فحين مات صالح كان على جابر أن يحل محله، أخذه راشد بيده، أردفه على ذلوله. يتذكر جابر دموع أمه وهي تروي النخيل فتخدش فرحته بالسفر، امرأة راشد تصبرها وهو ينظر نحوها ورأسه يميل مع حركة الناقة المهددة. آخر ما رآه الفتى ثوبان أحمران يرفرفان مودعين. ظل الرجلان رفيقي غوص حتى مات راشد. بعد وفاته بأيام زار جابر بيته هامسًا للعجوز بأن في ذمته دينًا للراحل ولكنه لا يملك سداذه الآن، وسيظل يسدد ما يستطيع منه كلما تسر حاله، بكت أم فرجة حين فهمت حيلته اللطيفة لمساعدتهم، لم تطالبه بشيء وظل يعودهم بعد كل رحلة غوص ويعطيها.

تحلف فرجة وأصبعها المبلول على نحرها: جابر! في رقبتي إنهم جاءوا.



تنتبه لخفرة التي تنزعج من وجودها عند رجلها فترفع صوتها بتبرير: جئت أخبره أن عبيد آل عمّوش أقبلوا بمهر نفلا.

يمتقع وجه خفرة خوف أن يفهم رجلها أنها تبعد بنت راشد عنه، لكنه لم ينتبه لهما، فقد خرج للدرب ليقابل طلائع مهر نفلا في نحر المسيل. يثور بندقه بين النخيل ليعرف عبيد وئيل أي درب يسرون فيه بحمولتهم.

أم جابر ترسل فرجة للقينة تستعجلها: قولي لها إنهم وصلوا.. أخبريها أن تعجل بعشاء ندسم به أيدي عبيد ابن فواز.

تجري بنت راشد صوب حلة العبيد، وتقابل حامل الراية من عبيد وئيل، الفتى الأسود غير الطويل له صدر عريض، وخصر نحيل أليق بأثني، لكن ملمحه الأهم مناخره الواسعة، لم تر له عظمة أنف، ليس في وجهه غير فتحتين دائريتين مشعرتين وخيوط ناتئ فوقها يمتد لملتقى الحاجبين، عرف جابر أنه فنيس؛ العبد الذي ما خرج رضيعًا يحبو من حلة العبيد حتى أسماء آل فواز فنيس وتناسوا الاسم الذي وهبه له أبوه.

لا يحتاج جابر لمن يفهمه أن حامل الراية أهم عبد في ناقلي المهر، لكن فنيس يصبر على شرح مهامه، يخبر شقيق العروس: أعمامي بنوا لنفلا روشنا في أعلى وئيل، وحجبوا جدرانهم بقماش أحمر، وأنا (يضرب صدره متعهدًا) سأحرس نار العرس تلك الليلة حتى لا يطفئها شائئ.

مستفيدًا من سلطته يتلفت فنيس لفتات بطيئة في العبيد المرافقين، يعطيهم توصياته بالحذر في نقل ما معهم، وبصوت جهير يعدد ما ينزلونه: أنيخوا الإبل.. ضعوا الهيل والقهوة هنا.. أنزلوا البسط.. يشيح جابر ليخفي ضحكة من جدية العبد وشدة على رفاقه، وجه فنيس المتجهم يملئ سلطته على الآخرين، والآخرين لا يبدو أن قسوته ولعناته ضايقتهم حتى رمقته قينة بنظرة: حضروا؟

كانت تشير إلى جنه الذين لهم طبع حام، فهم إن لزموه كان له هذا الوجه،  
فإن غادروه انضم لحلقة الطرب في حلة العبيد.

فئيس لم يلتفت لها، اختلس نظرة جهة جابر ثم رفع رأسه ومس براحته  
صدره: لا يحضرون إلا في واجب.

خفرة تنفرد بنفلا، ولا تفهم لماذا تذكر الآن ابن جارهم شافي، تجمع  
تفاصيل عصية لرسالته، بلا مقدمات تحكي لنفلا عنه، تسرد ما تذكره من  
كلماته وأم جابر تودع عبيد قصر وئيل.

تدخل المرأة عليهما وتشير لخفرة: أسرعي.. اذهبي لأمك وناديهما هي  
وأختك بتلا ليرين جهاز نفلا. تلقي الأم نظرة سريعة على ابنتها، وجه نفلا  
الملتقم تفسره حياء، وحين يلازمها الليل تقول: جد الجد وبدأت ابنتي تحسب  
حساباتها. بنت صالح التي انزوت تالي نهارها غفت تلعن زوجة أخيها: هذه  
الخفرة ما جلست معها يوماً مذ دخلت على جابر وخرجت وخاطري طيب..

\* \* \*

الرمي في نخيل آل صالح وصداه في صدر شافي، يلزم فراشه والحمى  
تنفضه، من تحت غطائه يرى خطوات أمه المترددة وهي مقبله، ويراهما كيف  
تبطئ أكثر وهي خارجة، تغريه بالنخيل: اصفرّ البلح في نخيل لا أستطيع  
صعودها.. أريدك أن تخرف بعضه.

ترجوه أن ينهض فلا يفضحهم: تموت لأجل امرأة؟ يا وجه الله! أكثر ما  
كثر الله البنات في الوادي.. «ما لا نصيب لك فيه لو تلحقه على سبع من الإبل  
ما وصلته»

يبكي الشاب الذي فارقت الدموع مذ اخضرّ ما بين أنفه وفمه، يجلد نفسه  
بصورة نفلا بنت صالح في حزن عمّوش: نفلا غدت كلها للفوازي.

في اليوم التالي يلمح ظل أبيه بالباب، يسقط ظل عمامته المعصوبة على لحاف شافي، بابتسامة هي أقرب لتكشيرة يسأل ابنه: شافي كيف أصبحت؟ يغمض شافي عينه وتنهمل دمعة، ويقسو لسان الأب على «الشاة الرابضة» يستحثه للنهوض، تزيع يد الأم. أبا شافي: اتركه.. لم ينم ليله كله.. الحمى تطبخه.

يتنهد الوالد بالباب: شافي! عز الله إني لم أوفق في اختيار اسمك، رفاقك تحزموا.. وأنت يا الرخمة منبطح.

تزيعه الأم عن الباب: هداك الله.. الولد محموم.. يشفيه ربي وترى فعله في الرجال.

يتعد أبواه ويسمع حوارًا تتنبأ فيه الأم بأن ولدها سيعجبه. يخفت جدلهما ويأتيه عبدهم جمعان بنتفٍ من أخبار الحرب، يحكي شجاعة الوالد: أغرنا على بني هذال أمس.. أبو شافي شق صفهم كطلقة، اخترق حشداهم من يسارهم لليمين، ثم التوى وخرق جنب صفهم من الناحية الأخرى، لو سمعت صياحهم «جاء جاء».

الفخر في صوت جمعان يضغط ضلوع شافي، تضيق أنفاسه وعبده يرفع طرف لحافه ويعدد من أصيب من آل هذال، شافي موقن أنه قتل الحرب الوحيد.

لوهلة يحبط جمعان، يستدير ليخرج ثم يقرر نزع المنطوي في لحافه، يخطفه من تحت إبطيه ويسحبه لباب الحجرة، يتصلب جسد شافي المحموم، فيفلته جمعان وبواد ابتسامة تنبسط على وجهه قبل أن تطيرها صفة خاطفة من كف شافي.

فخيخ العبد ينخفض وشافي يبحث عن لحافه، يلتقطه ويعود فينطوي

فيه ويخفي دمعته، يسحب جمعان أقدامًا ثقيلة وبالباب يضع يده على خده المحترق: إي بالله إن نفلا رمته ولم تخطئه رصاصتها.

ابتعاد جمعان يوجعه أشد من تهمة الجبن التي أوحى بها أبوه، يثق بأن العبد أصيل كنخيلهم، الأمر الوحيد الذي يزعجه فيه هو أنه -لولا لونه- أقرب لصورة الولد الذي يريده أبوه.

\* \* \*

فحل النخل أضخمها رأسًا وأطولها سَعْفًا، يكفي طَلْعُ فحل واحد نخيلًا كثيرة، لكن أزهارها الكثيرة لن تستدير حبات صغيرة خضراء ولن تستطيل فتغدو رطبًا يشبع أهلها عامًا كاملاً إذا لم يلقحها الفحل.

«شَحِّمُوا الفحل» قولة تواصى بها الهذاليون حين وترهم أبو شافي في تناوب الغارات بين الفريقين. كان القرار الذي أجمع عليه جسر آل هذال أن يقتلوا عقيد آل بنيان ومحبي همهمهم.

الكلمة حرقت آذان شيخ آل بنيان وابنه، في أقصى الرمل بعيدًا عن مجلسهم يسير الاثنان، خطوة الأب يغرسها الغضب عميقًا في الرمل، وخطوة الابن تفسدها كية قديمة لعرق النساء، في رأسيهما ألف يد تحرق نخيل بني هذال وتفرغ البيوت من أهلها.

لفظ الابن حسرته: أبو شافي فحل ونحن؟ إناث؟!

أراد أبوه أن يقلل من شأن الكلمة: ما سمعنا فتغضب.

- يعني ما قيلت؟!

- هو فحل.. إن قيلت فما كذب قائلها، لكنها وصلتنا مع شامت فينا.. ما

نقلها إلا لغرض في نفسه..

تأكيد الأب على فكرة فحولة صاحبهم توغر صدر الابن أكثر: فحل؟ أم أنكم أنتم نفختموه ثم سميتموه عقيد حربكم.

ينهره الأب: فعله الذي سماه عقيد حربنا.. يده ورمحه، دونك آل هذال غداً أربهم مثله ونسميك عقيدنا.

يصمت الابن فيفصح الأب عن هاجس أصعب مشيراً بسبابته ووسطاه صوب الجسر: بدأنا حرباً لن نتوقف عاجلاً.. واليوم يريد الفوازيون بعد أن رجحت كفتنا أن يعينوا إخوانهم ولن ينتهوا حتى نسلّمهم لحانا.

لا يترك الابن أباه لو ساوس تخوّفه ثيابه: ذا حال الدنيا، وما هي بآخر حرب بيننا.. ومثلما صمد جدنا بنان وعياله نصمد اليوم ونكسرهم.

في الصباح تسمع أم شافي نية الهذاليين، لا تعرف كيف تبوح لعشيرها بمخاوفها، وليس لديها مشورة سهلة لتقدمها. تمسح رأس أنفه بسبابتها ثم تقبلها: لا تخرج منفرداً أيّا كان السبب.

قبل أن تظلم الدنيا تقبل على حجرة ولدها، تقف بالعتبة مترددة، حين يخيب أملها يغدو من الصعب عليها أن تقترب منه جداً، تبعد عنه كأنها تدرأ تهمة أنه نتاج تربيتها، بعد زفرة حارة تناديه: شافي.. تسمع مني كلمة؟

ظن أنها ستعيد كلامها عن نسيان نفلا، يشد لحافه على رأسه وحين لا يرد تعلو نبرتها: أشافي!

- خير..؟

تسأله حتى لا تعيد كلاماً يوجعها نطقه: سمعت الحكيم؟ أبوك.. آل هذال يتواصون بقتله.. وغداً أو بعده سيتواجه هو وإياهم ولست بجواره.. أبوك ليس له غيرك.. لو كان له ولد آخر..

يتبلبل لسانها حين تسمع نشيجه المكتوم تحت لحافه، تحوّل وتدخل

لترفع لحافه على مهل، تحرق دمعته كبدها، تقبل جبينه لعله يتماسك فيعانقها ويبيكي: راحت نفلا يا أمي.

من بين دموعه وأنفاسه الحارة في صدرها تطفر كلماتها: لا إله إلا الله، اذكر الله يا ولدي.

رأسه في صدرها ودموعه تبلل مقنعتها، تبعده بما يكفي لتكون عينها في عينه: يا ولدي بدل المرأة غيرها.. أما أبوك فإن قتل فلن يعوضك عنه غيره.. خفة في رأسه وثقل في رجليه، يخرج بهذا الشعور فيبدو له وقع خطواته على الطين مختلفاً، رائحة الجداول وبرودتها، كأن دهرًا فصله عن النخيل وأحواضها، وعن شقحا، يتجه إليها ويلمح جمعان برأس نخلة يقطف بعض تمرها لقهوة أهل البيت.

موسم عناية طويل بالنخيل بدأ ويكاد ينتهي وشافي غافل عنه، لآلاف المرات ارتقى جمعان كل نخلة عندهم، أزال أشواك جريدها قبل أن يلحقها، ثم عدّل عذوق النخل حين نمت وثقلت، وها هو يجني رطبها.

يسلم على العبد فلا يرد، يبحث في كرب النخيل حوله عن مخرف يجمع فيه الرطب، يجد محشًا صديًا، يتحسس نصله المتثلّم ويصعد نخلة مجاورة خالي اليدين، قبل أن يصل رأسها تنغرز شوكة في صدغه فتنتطلق لعنة واهنة، يكرر جمعان ثم يكبت تالي ضحكته كي لا يحسب شافي أنه سامحه.

يهبط شافي أسرع مما صعد، يأخذ المحش، وبضربات سريعة متقنة يقطع الشوك من منبته على السعف، تهوي كل شوكة يتزعها باتجاه الأرض ويبقى مكانها محفورًا كأثر دمل انفقاً.

بعد سبع شوكات يقول له جمعان: آل فواز قد يدخلون الحرب بجانب بني هذال.. لو أردت فسأكمن لعمّوش وأذبحه.

زواج نفلا الوشيك يترافق مع موسم صرام النخيل، ويثير في شقيقها جابر مشاعر متضادة بين فرحه لها وإشفاقه على نفسه حين تبتعد، سضيق به البيت والنخل إن خلا ممن يعتذر بأحاديثها عن دخول حجرته، وسيظل بين خفرة التي تريد قلبه، وأمه التي تلومه كلما انصرف.

يفحص عذوقاً ثقلت، رطبها الأصفر الحلو نضج منذ أسابيع، وعماماتها الملونة غدت غامقة، بدأت حبات تمرها تجف لكنه لا يجد لها في صدره بهجة، تصر نفلا على المشاركة فيه قبل زواجها.

يبلغ رجال الجسر بأن موعد صرامهم هم أيضاً غداً، يراجعهم بعضهم: نخلك الأقرب لآل بنيان ونريد وقفة فيه يتذكرونها وعدة بيوت ستصرم نخيلها غداً..

- نفلا عرسها بعد يومين، وحلفت ألا تدخل وئيل حتى تعاوننا في الصرام.

تشرق وجوه الرجال وتترطب ألسنتهم بالثناء على البنت التي سيفقدها الحي كله.

مع أول النور تسارع خطى كثيرة لتجني جهد عام كامل، تجد أم جابر نفسها محاطة بأحباء ما خذلوها يوماً؛ ففرجة وأمها جاءتا حتى قبل أن تلحقها خفرة من البيت، وأبو هليل أتاها بأمراته وعياله وبابن قويت معه.

تشرق الشمس فتأتيها مسيكة لتنقل لها أخبار القيان وما طبخن للصارمين، تقف على صفهن بين نخيلهم ونخيل جيرانهم، تتبين القيان وجه القادمة في غشاوة دخان قدورهن، يرفعن أغطية القدور لتنوب روائحها عنهن في الإيعاز باختيارها، يعرضن على المرأة ما عندهن ويحددن الوقت الذي يستغرقه حتى يجهز وكم بطناً يمكن أن يملأ.

أم جابر تفحص القدور وصاحباتها وتشير متقية ما تريده ليلحقها حين يجهز صوب نخل آل صالح.

مسيكة حين تلاحظ فتور الهمم بعد ساعتى عمل تفحص الوجوه لحظات ثم ترفع صوتها بالغناء. لا تدري نفلا إن كانت الأهازيج هذه المرة مختلفة أو أنه تأثير زواجها. كل ما تفعله يبدو جديداً جداً، ولا تفهم أن إحساسها بأنها تفارق مرحلة هو ما يفقدها الألفة مع كل ما اعتادته.

تراقبها أمها فتلاحظ كيف تروغ نظرتها صوب جبل فواز كل وقت دون أن تنتبه، أما خفرة فعينها على الشابة حين ترفع الصوت مع أخيها بالغناء، وهما يتلقيان عذوق النخيل في الأحواض، أكفهما كأحضان أمهات تتلقى ما تصرمه أيدي العبيد وتدليه عليهم.

تحسد خفرة نفلا على كل نظرة وبسمة من جابر، تتمنى لو تنزرع بينهما تغني معهما، تنتهد وتدس رأسها بين قوائمها لتكمل فصل الرطب اللين عن التمر الضامر، أكوام العذوق أمامها كقطيع شياه رابضة، وكلما خفت كومة منها أهال عليها العبيد أكواماً أخرى.

قبل الظهر يقبل الهذاليون على نخل آل صالح، سواعدهم مشمرة وعمائمهم معصوبة، ورمامحهم وبنادقهم ترتفع مع نشيدهم:

«غرس يا اللي على الحدين مثني يعجب الزراع صفة عذوقه»

يغنون ووجوههم شطر بني بنيان، حناجرهم تزلزل الأرض تحتهم بتوعد لمن يسيء تقدير قوتهم.

بعد عرضتين عادوا يساعدون في الصرام. لم تكن عمتهم النخلة لتسمح لهم بأكثر مما فعلوا، تلال ثمرها زاد مسافرهم ومقيمهم سنة كاملة، كانت الشابات والأطفال يحملونه لداخل بيت آل صالح، يمرون



به أمام منشدي أغاني الحرب فيخجلهم أن يتحول موسم امتنان عن وجهته.

بعد العصر كانوا قد صرموا نصف النخيل، وعلا صوت أم جابر تدعوهم للعشاء وتعلن إرجاء الباقي للغد.

\* \* \*

صباح العرس يدخل جابر حجرة تمرهم، يقف على الحوض المملوء وتخنقه العبرة حين يتذكر كم مرة قرصه الجوع هو وأخته وهما طفلان وصادتهما أمهما بالجرم المشهود في وسط الحوض يأكلان والدبس يملأ وجهيهما وأطرافهما.

يخلي البيت لنساء يحطن بنفلا، تمر به مشاطتها بالورس، تبارك له للمرة العاشرة زواج أخته وتحلف أن وعود الشبع ليست فقط ما تلهم أصابعها: «نفلا بنتي»

في باحة البيت تجلس مسيكة جلستها المعتادة، تعجن مسحوقها بالطيب، تقبل نفلا صفراء من نقيع العصفرو جسدتها فواح بالورس، تقعد في حضن القينة فينطلق لسانها بنبوءات عن طيب حظ عمّوش، تغني وأصابعها تغزل شعر نفلا ثلاثين أحبولة عشق، تختمها بضممة للجسد المطيب وقبله في خدها.

بعد العصر تقود سرب القيان والعبيد الذي ينقل جهاز العروس لوثيل، على رأس كل قينة ميقعة أو قدر أو ملحف لنفلا، أما واسطة العقد فيهن فتحمل الخزانة الخشبية التي رفعها على رأسها أربعة عبيد، تراقص الخزانة كهودج عظيم فوق ناقة ضامر.

قبيل المغرب تكون مسيكة في انتظار موكب النسوة لينطلق بنفلا، أم جابر

تقودهن ويدها رداء ظل منقوعاً في الطيب ثلاث ليال، يسرن بالعروس في درب والطبول تسوق الأعين المتلهفة لرؤيتها في درب آخر صوب وثيل، لتمرق نفلا ونسوتها في قلب النخيل متوهة سهام الحساد عنها.

يخفق قلب بنت صالح حين يرتج جمع مرافقاتها، تكثر ابتها لاتهن وهن يدفعنها على عتبات شاهقة، يطل على رأس الدرج عُمّوش، يرفع لهن سراجة لينير الدرب، على باب الروشن تغمر جسدها رهبة، تدخل نفلا وأمها ومشاطتها، تقعدا المرأتان على الفراش، تضع مسيكة إناءً في زاوية الحجرة، وتشير لها أم جابر مذكرة بوصيتها بأن تحرّكه كل يوم مرة، فتسمع المشاطة العريس تأكيداً بأن الطيب سيعطر القصر كله، ولثلاثة أسابيع سيظل العبق حيّاً بقلبه كلما نفضت يدها ماعونه.

تفرش الأم الرداء الأحمر على وسادة العروسين المبرومة كجذع نخلة، تثور الرائحة وتخرج، يلحقها عُمّوش فيدس في كفها دراهم لم تخطئ آذان النسوة اللاتي ينتظرن صليلها، يعود لعروسه، يرفع فتيل السراج قليلاً فيزيد لسان لهبه ترنحاً، وترى نفلا ظلالة الثابتة على الجدار المقابل، يجلس بجوارها، يتأملها وابتسامة مرتبكة على وجهه يعميها الخجل من أن تراها.

يسألها عن حالها، يجذب على مهل طرف مقنعتها، يداعب إحدى جدائلها فيفوح شذاها، يلثم طرف الجديلة الطويل ويسرد بعض ذكرياته عنها من الحطب للسيل.

كما أحبت نفلا صوته من قبل أحبت لمستته، ولم تجد في فعله ما يشبه ما أوحى به نسوتها، ولا ما روعتها منه رفيقاتها عن رجال الليلة الأولى، لا تعرف كيف تغمض جفناً قرب رجل، لكن رجلها برفق وسدها ساعده وقرب وجهها يتحسس بأصابعه تفاصيله حتى غفت.

عاضاً على شفته يغذي أبو شافي نار ترقبه، أنفاسه تشق صمتاً يفرق فيه ابنه، أخبرهم النذير أن آل هذال سيداهمونهم، ويظن أن على البنيانيين أن يكسروا بني هذال قبل أن يستعدوا، ويأسف لأنه لا يرى في رجال حيه العزم الذي يأمله.

يتشجع شافي فيسأل أباه: الحرب التي بدأت بضربة من بنياني لهذاي كيف ستتهي؟!

- أفا يا شافي! تحكي الحرب برواية الهذالين... هم بدأوا شرّاً وعليهم سيرتد... وأنا في سنك كنت عقيد الحي الذي إن دخل حرباً لم يشغله إلا أن ينهيها منتصراً (يلمع الفخر في عينه وهو يسمي نفسه عقيد الحرب)

تسلت سبابة أبي شافي أرنبه أنفه وهو يكمل: لو لم أكن أسبق رجال الحي بخطوتين في كل غارة ما أخذت رايتهم رغم أنوفهم.  
تلك اللحظة غنى منتشياً:

«بنيت أنا في الهوا سبعين مقصورة وبإذن من الله سكنت عاليها».

حديث الأب - الذي لا تراحمه كلمة من ابنه - مرّ بوجوه البنيانيين بعد كل عركة شارك فيها: زاحمت الرجال وأنا صبي يتيم... قبلها كنت أرى قيان شيوخ الحي يغنين سبع ليال احتفالاً بولادة فلان الأمير ابن الأمير (يرفع هنا صوته ويده) في قصورهم تطرب القيان الحي كله... يناديني كل مسرع صوب الطرب «العرب يلعبون.. امش معي.. أما تسمعهم؟» وأصرف وجهي إلى داخل البيت فلا أسمع إلا تذرر أمي من حظها القليل أو دعاءها على إخوتي، ثم خطواتها المدبرة في درب الرقص.. تروح وتظل أياً ما تسمعنا تفاصيل ما رآته، لم نشعر بالتلذذ الذي تروي به ما رأت؛ كيف تستطيع أن تفرح بطرب لا يدخل بيتها (يلتفت لشافي فيرى الابن في والده وجه صبي غاضب) ظلت أياً ما تغريني بمجلس الجماعة «مثل الرجال تتقهوى، وتسمع

العلوم» سادس يوم ذهبت.. صعدت درج المجلس ورائحة القهوة قادتني.. انضمت لرجال في عمر أبي لأرضيها.. لن أنسى مرارة قهوتهم لأنهم تركوني أقعد في آخر المجلس.. رجعت لها بقرار «لن أدخل مجلسهم بعد اليوم، كيف أشرب معهم مثل نعجة يغذونها؟! قالت لي أنت أصغر من أن تجلب القهوة وفي المجلس من هو أسن منك يشرب ويخرج كل يوم.. لم يكن عندها قهوة وإلا لما بخلت (توترت عضلات وجهه وهو يكمل) قلت لها فأنا رجل أقهوى ولكني غرّ فما علي حق أن آتي بطبخة قهوة؟! ... ثم حلفت أنني لن أذهب للمجلس بعد اليوم

يخفض أبو شافي رأسه، ولا يعرف شافي إن كان يخجل من فقرها أو مما فعل بها، يشفق عليها نيابة عن أبيه الذي أخبره كيف ترك جدته فجراً لمأزقها وخرج للصيد. ترك الأم لتفهم أن انتماءه للجماعة له ثمن قد لا تطيقه.

- ثلاثة أيام انقضت دون أن تكلمني أمي، وفي فجر الرابع وضعت في حجري قهوة، حباتها الخضراء أحترقت كفي.. من بيتنا لمجلس الحي أغص بعبرتي، كسرت سلسلة دورهم وأعددت القهوة مثل الرجال.. لكنهم شربوا قهوتي وضحكوا.. قالوا «قهوتنا من اليوم لن يطبخها سواك» (يلمع شيء كدمعة في عين الرجل وهو يشرح لابنه) كأنهم يريدونني صبي قهوتهم!

حكاية الأب تدفقت كاملة فبترت محاولات شافي بأن ييغض نفلاً لينساها، يريد أن يعترض أباه ويلتمس للجدة عذراً، ويريد أن يبرر فعل الجماعة على غير ما يراه الأب، ولكن معرفته بأبيه تجعله يحجم، يكمل الأب: خرجت من مجلسهم ولم أعد لبيت أمي.. ركبت ناقة من حوش أحد جيراننا وخرجت من العقيق، ولم أرجع لأمي إلا ..

- سرقت ناقة جارك؟

- أخذتها وبلغت عبده، قلت سلّم على عمك وقل له إنني سأردها.. رحت

وما عدت إلا بما يغنيني ويغني أهلي، ثم صرت أسابق القوم في الغارات.. ما يرمون رصاصة إلا وأرمي ثلاثاً، ولا يضربون ضربة إلا كنت أسبق منهم وضربتي أعمق.

روعته نظرة أبيه وفكرة أن الدماء التي يطمح لإراقتها لا علاقة لها بفعل الهذالين، أفلقه أن ما يبدو تفاقياً لأجل الحي ليس إلا رغبة في تسيدته، يدس شافي في فراشه هذه الأفكار فتقلقه في منامه، وفي الثلث الأخير من الليل يهمز جمعان كعبه: انهض.

يتبع عبده باتجاه بئر هادي، والآخر يسكت تساؤلات الشاب حتى يقبلا على المسيل. عند آخر نخيلهم يرى شافي لأول مرة ما حكاه أبوه عن الرماح والبنادق المشحونة، يتبين وجوه شباب الحي فيلتفت لجمعان، يبادره ابن شيخهم: جئت بابن الفحل؟! بدا لشافي أن السخرية في صوت الشاب لا شك فيها.

تتنقل نظراته بين الوجوه ليشرح له أحدهم سبب اجتماعهم: أهلنا ينتظرون بني هذال لترتد عليهم بصيرتهم ويعقلوا، لكننا نظن أنهم لن يتوقفوا حتى يفنونا، وإن بدا صبر آبائنا في أعين الآخرين خوراً فعلينا أن نفعل ما يجب.

يؤمن الرفاق على كلماته، ولا يفكر شافي إلا في الطريقة التي سيعاقب بها العبد الذي جره لاجتماعهم، يرده صوت فتى آخر للحظتهم: حظائرهم التي تتكاثر جهة حدنا هي ما بدأت هذا كله، أهلنا يغيرون ويردون غارات ويتركونها كما هي.. وبعد سنتين لن يبقوا متاً كبيراً يوثق بكلامه إن قال إن هذا تعدٍ على أرضنا.. سنهدمها ونطلق بهمهم، ونتظرهم هنا حتى الفجر ومن جاءنا ذبحناه..

يهمس ابن الشيخ في أذنه: لم نشأ أن نفعل دونك، فكلنا لاحظنا غيابك عن كل ما يحصل من شهرين.

قبل أن ينطق بكلمة وضع جمعان فأَسَا في يده، مع هذه اللفتة وجد سمير بن الرياح أن من المناسب أن يحيي في رأسه ذكرى قديمة من صباهم، فبعد أن انتقل العبد لملكية والده بدأ احتكاك ابن الشيخ بشافي في اللعب يزداد خشونة، وظل زرع الظلال يتفادى مباحكة ابن الشيخ وجمعان يراقبهما ويغضب، حتى أوقفه ذات مرة على باب بيتهم: شافي حتى متى تسكت له؟!

حاول شافي أن يدافع عن نفسه: هو أطول مني وإخوته كثر.. إن ضربته فسيضربونني.

لا يقبل العبد حجة شافي المعتمدة على الحساب، يهز رأسه: لا تنتظرهم ليضربوك.. غداً إن بدأت اللعب انتظر أول كلمة منه واهشم رأسه بهذه (وأعطاه فرع سمرة مهذب له رأس كُرَأْس حية محناة) يتذكر شافي كيف جحظت عيناه وتشكك: فإن ساعده إخوته؟

- سأكون قريباً منكم، ولو انضم له أحد يعاونه عليك ستجدني بجانبك أؤدي مجهودي.

يتذكر كيف قبض جمعان على كتفه وهو يدخل البيت ويبتسم ابتسامة مريبة: «شافي لا تخش أن يوجعك الضرب فإن الدم إذا ثار في عروقك فلن تشعر بأي شيء» لم ينبهه جمعان أن آثار الضرب ستظل توجعه عدة أيام تالية، لكنه صدق في أمرين: أنه لم يشعر بالألم وقت الالتحام بالآخر، وأن الحادثة حسمت الخصومة وأرهبت الإخوة.

يفكر شافي في خياراته التي تتضاءل، أمس مده أبوه بسلاحه مذخراً «هذه أم خمس جديدة، تقنص بها عدة هذالين قبل أن يعيدوا تذخير مقامعهم» والليلة يقحمه جمعان في مغامرة لم يسأله رأيه فيها، ونفلاً غادرت حي آل هذال.

يسير في ظل العيال قابضًا على الفأس بشدة حتى لا تبين الرعشة في يده، بفؤوسهم ورماحهم يدكون حيطان الحظائر، رائحة الغبار وثغاء البهائم يربكه. أخرجوا البهائم ووقفوا يلتقطون أنفاسهم. كانت المهمة أسهل مما توقعوا، وقف العيال بعدها يتأملون الخراب بإحباط، قال أحدهم: علينا أن نمنع عنهم السقيا من بئر هادي إن أصبح الصبح، فما فعلناه سيقال عنه أنه عبث عيال.

- لكن السقيا ليست لهم اليوم.

- فلنحرق نخيلهم.

بدت الفكرة مخيفة لبعضهم، لكن حامل سراجهم اتخذ القرار وحده، رفع زجاجة السراج وأدخل في اللهب طرف جريدة نخل يابسة، جرى بها صوب أول نخيل آل هذال ورفاقه ينظرون. عضلات وجوههم تتوتر بين ضحك وقلق، والفتى بعد أن يتأكد أن النار علقت في ليف نخلة يقفز في حوض أخرى.

يشدهم اللهب المتراقص في جذع النخلة وهسيس النار فيها، يقتربون فيوقفهم صوت طلقة دوى فجأة، وصوت هذالي ينتخي بابتته.

جمدوا لحظة أعقبتها صرخة رفيقهم ورأوا جريدته المشتعلة تسقط على الأرض، هربوا صوب جداول انبطحوا فيها، أما شافي فقد دفعه الذعر في الاتجاه الخطأ ليجد نفسه وسط نخيل آل هذال قرب جريدة تشتعل ورفيق يتخبط في حوض نخلة قابضًا على ساقه.

الطلقة الثانية لم يلحقها وجيف قلب شافي بل نار تستعر في شقه الأيمن، هوت يده متدلّية بجواره وغامت الصور في عينه، لم يتبين للسائل الدافئ على ثيابه لونًا، لكن رائحة كدم ذبيحة متخثر قلب أمعاء. الأصوات التي

ضجت بين النخيل بين رصاص وصياح ميز فيها صوت أبيه، ارتد له شيء من وعي يتلاشى، يسراه سحب رفيقه خلف النخلة ووقف ملتصقاً بجذعها، رأى أباه يقنص هذاليًا فيسقطه في حوض نخلة قريبة.

مع أنين رفيقه ميز شافي لهات هذالي آخر يعدو ناحية أبيه، التقط أبو شافي البندق والهذالي يرميه بالرمح: ذق يا ابن بنيان ما أسقيتنا.

بالبندق يصدر رمحًا موجهاً لصدره فيحرفه كعب البندق ويفري ساعده، يسقط عقيد الحرب ويسمع شافي جلبة الهذاليين تبشّر بموته، يتسابق ثلاثة منهم نحوه، فيشد أبوه جذعه ليقف، وتصفر عند أذن شافي طلقة أخرى موجهة للأب، يخطف شافي الرمح القريب ويصوبه لظهر أقرب المتنادين بوالده، يهوي الهذالي ورمح شافي بين جنبيه، لم يطلق آتة واحدة، لم يصرخ، الصوت الوحيد الذي صدر عن المصاب كان دوي ارتطامه بالأرض.

يفرز المغيرون مخال بهم في جسد أبيه، يرك هذالي بخنجره عند رأسه، يشد شعر ناصيته لينحره، يقبض عقيد الحرب على حد الخنجر والدم الأحمر يشخب منه، يخلصه من يد الهذالي ويطعنه، يجبو غريمه بثلاث طعنات: في بطنه وكتفه وفي صدره.

غصة في حلق شافي ورجفة في يده ورمحه يفري فخذ الثاني، انغrust شفرة الرمح حتى كسرت العظم، بان بياضه الجبسي تحت الدم، تلوى الرجل على الرمل، وصوت دمه كمزrab عليّة يلفظ ما فاض من مطر، عاجله بضربة أخرى فخشع.

الثالث أربه مصير سابقه وطلقات من جهة آل بنيان، فابتعد عن شافي وأبيه، ارتعى شافي على جثة أبيه السابحة في دمها، نشج وأيدي الرجال تجره باتجاه الحي.



## (5)

كالعطر في حجرة طال هجرها دخلت نفلا بنت صالح وثيل، الساعات التي تقضيها نساء القصر أمام مراياهن امتدت، الأزهار المطرزة في سيقان سراويلهن طالت، زيارات المشاطات لهن تقاربت، أما نيرة أحاديث الرجال فقد تهذبت. كركرة الشابة هدهدت قلق أم عمّوش، فسعادة ابنها وإن لم يصرّح بها تشع في عيونه، صار يلزم حجرته من أول الليل، تكاد تحلف أنها رأت وجهه يتغير إن جاء ذكر التجارة، تراهن أباه بفرح بأنه سيتلكأ في الخروج من العقيق، وترجوه: لا تكثرُوا عليه في المجلس فيصر على الذهاب ليثبت أن حبه لها لا يعيقه.

مسيكة كانت عائقه الأهم في أسبوع نفلا الأول في وثيل، تخدم العروس وتوجه خطواتها الأولى في المنزل الجديد، يشعر بها ترصده ويتعجل ذهابها، يسأل نفلا عنها فتخبره أن مشاطتها لم تنتظر أم جابر لتدعوها، بعد أن أدخلتها النساء روشنهن وقعدن أمام بابه يغنين توسطتهن، وحين غادرن ضربت صدرها لأم جابر: أنا عندها، ثم توسدت يدها عند الباب.

بعد أسبوع اغتنم عمّوش فرصة للتخلص منها، استأذنت مسيكة نفلا للذهاب لبيتها قليلاً فأمر فنيساً بأن يلحقها محملاً بما لم تعط نصفه حياتها كلها، وأوصاه بأن يوصل لها شكره: أكثر عليها حتى تفهم فلا ترجع.

بعد أسبوعين أرادت بنت صالح أن تزور أهلها، لكن أم عمّوش همست في أذنها بأنه سيغادر خلال يومين، وحين لاحظت أن العروس لم تشأ أن تفهم ما توحى به رجتها صراحة أن تنتظر حتى يذهب.

كانت لا تزال تعود نفسها على طاعة جيبها حين جاء أمر أمه، انزوت في روضتها وفي خاطرها عبدة، كانت منذ البارحة قد تخيلت يومها كاملاً في بيت أهلها، وما ستسرده لأمها ولأخيها من تفاصيل قصر وثيل، تذكرت بخجل كيف تمت أن تكون خفرة عند أهلها لتحكي بلا تحفظ، لكن عمته لم تترك لها خياراً.

دخلت مطبخ آل عمّوش، أدهشها تنوره المركوز عند المطبخ، ارتفاعه يصل إلى وسطها وعمقه أكبر. في المطبخ يتقابل على جداريه لوحان خشبيان بلا ألوان عليهما ما لا تستطيع عده من دلال القهوة، بدأت تعجن تحت نظر إحدى عبداتهن، وتسألها: يكفي؟ وتشير العبدة بأن تزيد الكمية، تأخذ نفلاً بيمينها حفنة أخرى من البُر الذي طحنته العبدة، فتشير عليها هذه بأن تزيده أكثر.

أشعلت التنور فسمعت جدلاً بين أم عمّوش وأم فيحان، أرادت أن تتجه إليهما فنصحتها العبدة: يتجادلان بشأنك، أم فيحان تريد أن تفرض عليك يوماً معيناً في المطبخ، وعمتك تقول إنك ما زلت عروساً. تضع عجينة في التنور ويدخل فيحان باحة البيت، الفتى القصير يقطع جدال المرأتين: الرجال في المجلس يسمعون اللغط، أبي يسأل من صاحبة الصوت فيكن؟ تتجه أمه لحجرتها ويتبعها، زيارات فيحان لحجرة أمه مذ خط شاربه تقتصر على اثنتين يومياً: ضحى بعد القهوة ليعطيها أخبار المجلس، وعشاء قبل أن يأوي إلى فراشه ليطلعها على أحداث النهار، لكن والده أشار له بأن يرد لداخل وثيل هدوءه، يقبل فيحان رأس أمه ويسألها عما حصل فتنهال اغتياًباً لعمّوش وامراته وأمه.

يسمع اسم نفلاً مقروناً بأسوأ الألقاب، ويحاول أن يوفق بين الأوصاف وهيئة العروس التي رآها، يغيظ الشاب أمه دون أن يقصد: لو رأيت أخي

عمّوش كيف يجري كل ليلة لروشنه.. أبي يقول إنه عاشق.. والرجال في المجلس كلما دخل عمّوش تسابقوا للقرب منه.. يمازحونه فيتنشقون ثيابه ليشموا طيب الهذالية.

أراد فيحان أن يخبر أمه أنه هو أيضًا شم ثياب أخيه، وأن طيب بنت صالح أسكره، لكنها قطعت الكلام بلعنة تلعن عمّوشًا والهذالية.

\* \* \*

تنحدر بنت صالح من الجبل، تدخل بيت أهلها على خروج خفرة من حجرتها، يلقاها جابر معطيا ظهره لامراته، وتخفت ابتسامة الأم الفرحة بقدوم ابنتها حين ترى خطوة ابنة أخيها المنكسرة وعيونها المنتفخة، يغدو وجهها واجمًا وتنادي خفرة لتقعد معهم. نفلا تسلم على أهل البيت وتفحص وجوههم بقلق: هل قُتل أحد آخر؟

يلتفت جابر لامراته ثم يصد بامتعاضه: ما زالت تبكي على أبي شافي.

يتجدد نشيج خفرة، والأم تترحم على البنياني مستعرضة سيرته مذ كانا طفلين في الحي، تعدد أم جابر مناقبه ويختلس جابر نظرتين لنفلا ليفهم موقفها، يربكه ولاء أمه حين يصبح خالصًا لآل بنيان، يشق صداع عنيف رأسه بين حديث الأم وولولة الزوجة.

كم الدموع التي تبكي بها خفرة جار أهلها جعل نفلا تشك في أنها تبكي الميت. دموع خفرة تذرفها بين شهقاتها وترحم أم جابر تحكي عن بطل آل بنيان: كيف رصوده، وكيف فداه ولده بنفسه فخرقت رصاصة لوح كتفه، واستقرت الثانية في كبد أبيه. تذكر نفلا بشكل غامض الفتى الخجول شافي فتسأل عنه.

يسكت جابر وتقترب أمها أن تذهب معها للعزاء، تستأذن خفرة جابرًا

لتذهب معهما، فتملي عليها أمه بحزم أمرًا: بدلي ثوبك هذا فكله طيب.

تمقت خفرة توجيهاً عمتها، ليس لأنها جافة وعلنية فقط، بل لأنها صحيحة وهي مضطرة فعلاً لتنفيذها. تدخل حجرتها لتبدل ثوبها، تمسح آثار الكحل أسفل عينيها، تتأمل في مرآتها الصغيرة جسدها الذي اكتنز أكثر، لثوبها فتحة صدر مربعة تظهر أنداءها الكبيرة، ثم يضيق قبل الضلع السادس ليضمن أن يظل صدرها مرفوعاً، وينشد الثوب على جسدها تحت الصدر فيخنق خصرها ويتسع عند أوراكها ليرز تفاصيلها بوضوح.

تمسك ذبول ثوبها وتنكسها لتسلخ منه، وتدخل نفلاً فتجدها تدور كعمود خيمة تلعب الريح برواقه. تضحك نفلاً قبل أن تشد ذيل الثوب دون كلمة، تركع خفرة مادة يديها أمامها ليسهل خلعه، وبعد لحظة يترجرج لحمها حين تخرج منه وتتنفس: عمتي صادقة.. ذا يفوح طيباً.

بقميصها الأحمر القطني تقعدها نفلاً: أبو شافي كم عليه من العيال؟

- ما عليه إلا شافي.. ألا تتذكرينه؟ يوم تزوجت «مهدته الحمى» وذا خروجه الأول للحرب.

نفلاً التي ظنت أن قد أحصت عشاقها فاجأها العاشق البنياني، برصاصة في كتفه من حرب يشارك فيها لأول مرة، وحرارة في قلبه من حبيبة لم تسمع نبضه. للحظات تمت لو تراه، وأشفقت عليه.

ذهبت خفرة مع عمتها لحبها، واعتذرت نفلاً التي ودعتهما بوصايا سلام على بتلا. يمر اسم الأخت الحبيبة فتجزم خفرة أنها رأت لهفة مكبوتة في عينه، بغیظها تروح وبسؤال: حتى متى ينخطف لونه ويرتبك لسانه لذكرها؟ رائحة الحريق التي انطفأت من أيام تشتعل في أذهان المرأتين، تعرضان عن درب النخلات المحروقة، فلا امرأة في العقيق تفرح بوأد نخلة، لكنهما

ستر تبتكان أمام ضرر تسبب فيه أهلها، ولئن بدا منظر الحريق لخفرة مشكلاً موجعاً، فسيكون صدعاً في قلب عمتها بين أهلها وعيالها.

حمدنا الله أن الشاب الذي أحرق النخل لم يلهب بشعلته نخيل جابر، ودخلنا نخيل آل بنيان، قابلتهما بتلا مرحبة، تذكرت خفرة رغيف الشؤم، لم يكن الوقت مناسباً لتسأل أختها أين رأت نفسها في الحلم؟

تدخل العمة بيت آل شافي، وتبادل خفرة وأختها أخباراً قليلة، مع تهرب بتلا من أسألتهما تنبجس برأس خفرة صورة؛ أوردت عنقها متنفخة ووجهها أحمر، وفمها مزبد، تسألها: ضريك؟

يصفرّ وجه بتلا: من هو؟

- خريع!

تضحك بتلا حين تسمع لقب زوجها الذي لازم طفولته: غربلك الله! ما نسيت؟!

تهم بتلا بأن تقول لشقيقتها أن أذني زوجها لم تعودا كبيرتين مشرعتين على جانبي وجهه كضلفتي نافذة منسية، تريد أن تمزح فتقول إن خطتها القديمة حين كانت تغيطه فتنصحه بأن يعصب عمامته عليهما قد نفعت.

تفتح بتلا فمها فلا تخرج منه إلا زفرة قصيرة، مزاجها لا يسمح بالدفاع عنه، وتعرف أن ذلك لن يثني خفرة عن إلحاحها، وستقتنع أن موت أبي شافي أفقدها أي رغبة في تجميل حياتها وإخفاء حسرتها، قالت: مع الغارات شبت حرب أخرى في بيت عمي؛ تقاسم إخوان رجلي النخل.

- يقتسمون حلال أبيهم وهو حي؟!

- أبوهم هو من حثهم على قسمتها.. يقول إنه تعب من تواكلهم، ويريد أن ينشط كل منهم في جهة من النخل تخصه.. أنا نصحت رفيقي أن يتجنب

أسوأ قسم في النخل.. تعرفين الجهة الشمالية في نخيلهم؟ نخيل مغروس من قبل أن يقترون أبوه بأمه.. نصفها جريده يابس، ونصفه تهلهل الكرب منه.. تبقى لها ستان وتنقعر من أسافلها.. أتدريين ما أعطوه؟!

تهز خفرة رأسها متوقعة الإجابة، الغضب يعلو بصوت بتلا كلما تعمقت في رواية ما حدث: قلت له اجعلهم يعيدون القسمة.. غاب يومه كله، ثم اندس في فراشه بعد أن تأكد أن النوم أخذ حسي كله.. في اليوم التالي لم ألمح في عيون نسوة البيت ما يشي بأنه فتح فمه بكلمة، وكبير أجرب ظل يفر من البيت لأنني سأطلي جلده بالحكي الحارق لأشفيه من خوره.. ثالث يوم قلت له «أعجزتني الحيلة فيك».. أحاول أن أصلحك لنفسك وترفض.. إن كان يرضيك أن يُوطأ على رأسك وتسكت فلن تسمع مني كلمة ولو أكلوا عيونك.

تبكي بتلا: مذ دخلت بيتهم وأنا أراقبه وأتعجب، لا شيء فيه يوحي بأنه الرجل الذي منعني من الزواج بغيره وأخذني غصبًا عن أبي! تختنق خفرة بأوجاع أختها، تغضب ولا تعرف لمن توجه لومها، فيبدو أن (خريع) آمن اتجاه تصب فيه غضبها: رفيقك رجمة.. ولم يحجرك بنفسه، ولا كان هذا ما أراد.. عمي الذي أملاه كلمتين قالهما عند أبي، وعمي أتم الباقي.

هذه القراءة المتأخرة للحدث تعيد ترتيب ذاكرة بتلا: صادقة.. حين انتقدت القسمة الظالمة أمام امرأة عمي دخل علينا يسب ويلعن.. قلت له إن قسمنا أخس النخل فلعنتي ثانية وقال أنت ليس لك قسم عندنا.

بلمعة الفهم الجديد في عينيها التفتت لأختها: حتى إنه هددني بالطلاق إن نطقت كلمة أخرى.

اندهشت خفرة: يطلقك؟ وأين رجلك؟!

- هذا ما قلته له، قلت إن كنت رجلي طلقني.. نبرة التحدي في صوتها خفتت وهي تضحك: لكني يا أختي خشيت أن يطلقني فلا أعرف إن كان علي أن أذهب لأهلي أو أنتظر رجلي البارد ليقولها.. يا حسرتي يا خفرة إن كان حرمني ممن أريد ولم يكن يريدني.

الحديث عن جابر غدا حرامًا مذ أخذ خفرة، لكن ظلله كان في كل حوار بين الأختين، وكان لسان بتلا يزل بكلمة كهذه بين وقت وآخر، تسكت بتلا فتكشف خفرة لها المشاعر الغريبة التي ربّاه في صدرها جابر مذ دخلت بيتهم: يأتيني وكأنه مغصوب، وينام أكثر وقته على رفه القديم في باحة بيتهم.

الحسرة والبوح الصريح قربًا للأختين، أشفقت بتلا على أختها «مثلي أحبته» تحتضن خفرة وتنطق بخلاصة تجربتها: الرجال كلاب عليها ثياب، إذا أخذ حاجته أعطاك ظهره.

\* \* \*

يعتني أهل العقيق بعمتهم النخلة؛ مع أول الخريف يعدّلون أحواضها المستديرة لتخزن الماء الذي ستدفعه جذورها لجذعها الفارع، بعد شهر يشذبون سعفها النامي من منابته تاركين كربًا أقصر من ذراع ليسهل لهم ارتقاءهم، ما يقون عليه من تاج النخل يزيلون شوكة قبل أن تفلق أزهار لقاحه أكمامها، ينتظرون عذوقه حتى تثقل فيربطونها بالسعف لتكون في مستوى واحد، ويحمونها طوال العام من عبث الصبية بحكايات الجن في رؤوسها ليجنوا في القيقض ضمان عام كامل.

بالنشيد يصرم الفوازيون تالي نخيلهم، تقف نفلا على تلال التمر في أكثر من بقعة وتقارنه بنخل أهلها الذي لم تره قليلًا غير اليوم. صف من

العبيد والقيان بين نخيل الشيخ ومدخل وثيل، يدخلون في حجرات التمر ما صرموه وسيدات القصر يملين توجيهاتهن للقيان لرصه في أحواضه.

بعد الغداء جذبت الحجرات نساءها، وكثرت خطوات نفلا الضالة في الباحة فحجرتها في غيابه تحزنها، قادتها أقدامها إلى حجرة لشقيقة الشيخ الأرملة، لم تكن قد دخلتها يوماً وهي على وشك أن تقسم ألا تدخلها مرة أخرى؛ العمة الأرملة امرأة تجمع مع غموض نساء القصر لطفًا مبالغًا فيه، بخلاف التحفظ الذي يتلبس بنت صالح في حضورها لم تكن قد حددت موقفها منها، دون أن تشعر بها دخلت نفلا عليها وأم فيحان تقول لها: لا ألوم عموشًا إن غاب أكثر من حضوره..

تسمعها تجاريها: إي بالله! لو وجد امرأة تقابله لبقني في العقيق (وتغمز لأم فيحان) كما جعلت أخني يقعد من قبل.

تبرد أطراف بنت صالح وكأنها هي التي قبض عليها متلبسة بالنميمة، تلمحها الأرملة فتقوم كالملدوغة وتقبل عليها لتسألها عما تريد، أما أم فيحان فبعد أن أدركت أن أحدًا وراءها أدارت شقها مستندة على يدها اليسرى، دون أن تحرك مؤخرتها رمقت الواقعة بنظرة طويلة باردة. بلعت العروس ريقها بصوت مسموع فتحلل جسدها من تخشبه، خطت خطوتين خارج الحجر.

وقفت نفلا لحظة أخرى تائهة النظرة والأرملة تغادر الحجر، فكرت بأن جمجمتها الضخمة نتيجة طبيعية لما تحشوه أم فيحان فيها من نائم، جرت إلى روضتها، ظلت فيه حتى أخرجها صوت عمتها أم عموش، بماعون الحليب أطلت تحت السلم: هيا معي امسكي لي شاتي أحلبها.

غنمهم كثير، لكن العجوز إن قالت «شاتي» فسيعرف كل من في القصر أيها تقصد، دخلت الحظيرة تتبعها بنت صالح، وتفكر إن كان يجب أن



تشتكي إليها مما قالته المرأتان أم أن عليها ألا تدخل حجرة حتى يشعر من فيها بأنها قادمة فلا تعرّض نفسها لموقف كهذا ثانية.

تدنو نفلا من القطيع فيثور غبار روثه في وجهها، تنتظر لحظات حتى يعتاد القطيع وجودها، تخال الشاة حتى تقبض على كراعها، ثغاؤها العالي هداً وبنت صالح تمسح ضرعها، تحلبها وتهمس لها أم عمّوش: لا يشغلك حكي النساء يا بنت صالح..

ارتبكت نفلا، ضغطت ضرع الشاة فانسكب ما حلبته خارج الإناء، أرادت أن تسألها كيف علمت بما قيل من لحظات من كلام لم تشاركها إياه العمتان؟ أكملت العجوز: أما عمّوش فما في حبه لك شك.. لكن ذا طبع رجالنا.. تكاد كبداً واحدهم تنقطع إن لم يضعك في حجرته.. فإذا صرت عنده لم يعد يخشى إلا...

بغضب من الكلام كله تقاطعها نفلا: كبداً ولدك تغيرت يا عمة، النشيد الذي كان يصلني في حبي لم أعد أسمع منه كلمة في الروشن.. ولدك التاجر يخل عليّ بكلمة تطيب خاطري.. أنا زينة وأتزين، وأحبه وأدري أنه يحبني.. لكنني أحتاج أن أسمعها.. فإن كان سيذهب كل يوم ولن أعرف إلا من القيان فعليه أن يقول لي أكثر..

عينها على ضرع الشاة الذي بدأ يذوي بعد أن ملأ الماعون، وأم عمّوش تواسيها: هذا طبع أبيه قبله.

تنفث نفلا آخر أنفاس حنقها: ليس هذا ما تقوله أم فيحان عنه.

تضغط العجوز يدها وهي تقودها إلى القصر: يا بنتي المرأة السعيدة لا تحرق كبداً امرأة أخرى، لا عليك منها فلو كانت تصدّق ما قالته لما أشغلها الله بك وبعمّوش.

تحاول نفلا العودة لروشنها لتوازن الأفكار التي تتصارع في رأسها،  
وتصر عمتها على أن تبقى معها، في باحة القصر يأتيهما فئيس بجريد نخل  
أخضر: يكفي يا عمة؟

يضع السعف الذي أوصته عمته بجلبه، وتفحص نفلا جسد الشاب  
الممتلئ وسمرته اللامعة ووجهه المرقش بأثر جذري نجا منه، يشعر بنظرات  
نفلا فيشد قامته وينصرف متبختراً. أم عمّوش تبسط الجريد الأخضر، تقطع  
جهاته الأدق كل قطعة بطول ذراع، وتركنها في جهة، ثم تجز البقية وتضفرها  
كجدائل صبية، على مهل تراقبها نفلا وهي ترتدي وجهها الرصين.

تحت نظر بنت صالح انتهى الحدث وكأنه لم يحدث، تعرف أن أم فيحان  
تحوم في مكان قريب مغتبطة بأنها أوجعتها، تفكر فيما يمكن أن ترد به،  
تأتي بقدر من المطبخ، وتضعه في حجر أم عمّوش، تعرف أن الفوزية -  
ككل امرأة في العقيق - لا تقاوم شبهة الطبول، تغني نفلا: «قولوا معي يا هل  
الوادي» ثم تصمت لحظة قبل أن يميل جذعها على الأخرى، تضم كفيها  
الصغيرتين وتميلهما كراس مطية جذلى في حجر أم زوجها: «ما قلت لازم  
تشيلونه» والعجوز تستر فمًا اسودت ثناياه بمقنعتها، تقبل نفلا رأسها فلا  
تجد العجوز مفراً من الانصياع.

ترفع الماعون وتمسح ظهره براحتها، تستدر الطرب فيه كما تستدر  
الحليب في ضرع ناقة. لا تذكر آخر مرة طبّلت فيها، لكن كفيها تستعيدان  
إيقاعات الطرب بعد خبطتين ضالتين، إيقاعاتها على القدر تستثير في جسد  
نفلا الغناء والرقص، عيونها الواسعة تلمع، وتبتسم فتظهر فلجة خفيفة بين  
ثنيتهما، تنقور غمازة خدها الأيمن، تميل جدائلها على العجوز ويثور طيها.  
يصمت الطرب في راحة العجوز حين يدخل فئيس مرة أخرى: الرجال  
سيجتمعون في مجلسنا الآن.

يفادر وتقلب أم عمّوش القدر على وجهه، وتهمس لنفلا: اقصري.

يتملك نفلا شعور غامر ثقيل، تتمم «أبشري يا عمّة» ثم تنحني على الجريد تضفّره كما تفعل العجوز. شئت أم أبت كان القصر قد بدأ يقنن بهجتها، ويغير حتى رقصها، فستعلم بدل أن تنظر حولها لتحصد نظرات الإعجاب بأن تحرص على ألا يلمحها منتقد.

\* \* \*

في قصور تعج بالنساء من الممكن أن تدخل بعضهن وتخرج دون أثر، فإن أنجبت المرأة ولدًا غدت من سيدات القصر، الولد يثبت خطاها ويمنح صوتهما دريًا لقرارات المكان. أم عمّوش لا تنتظر الولد لتدني نفلا، مذ دخلت قصر وئيل غدت تأتمنها حتى على مفتاح خزانها الخشبية.

كلما جف الحكي في حلق أم عمّوش رجتها نفلا بأن تسرد تفاصيل صباه، والعمة لا يشغلها إلا هاجس واحد تهمز به فخذ زوجة ابنها: اثقلي رجله بالعيال.. ولدي كأيّيه ظلت الدروب تروح به حتى كثر عياله.

تنفض نفلا عن روحها المسؤولية قبل أن تسلمها العمة زمامها: ولدك تروح به الدروب يا عمّة قبل أن أعرفه.. ولا أظنه يريد أن يقعد، وإلا لكان في فيحان وعيال عمه من يكفيه.

تشيع العجوز عن سيرة فيحان، تجر من أقصى ضلوعها تنهيدة: تعودت غياب عمّوش يا بنت صالح.. ولا أريد أن تعتاديه..

تبوح الأم لنفلا أن غيبات عمّوش تجعلها تعامله كضيف في أيام حضوره القليلة، تهمس لها: تدرين إن له هبة عندي أكبر من هبة أبيه؟

«الهيبة» تكرر نفلا الكلمة؛ الهيبة التي يربّيها عمّوش لنفسه في صدور

الجميع تبعدها عنه، تفكر كيف تقنعه بخلعها، في روشنها تنتظره، تشتاق حتى دعساته على عتبات الدرج، تود لو تخبره كيف تعس الباب في غيبته كل ليلة متوهمة أنها سمعت خطوته، وكيف يصطفق فؤادها بين ضلوعها عندما يباغتها أحد بنطق اسمه. تقسم في غيبته هذه أنها ستجبره على أن يتغير، ستضطره ليفصح أمام نساء وثير.

فنيات القصر بتن يتلهفن الطرب الذي تحببه في باحته أحياناً، في الاستراحة الطويلة بين الغداء والعشاء استدعين بعض قيانهن بدفوفهن، يطفن حول نفلا ويقلدن دون أن يعين كل خطواتها.

يعلن عبيد القصر وصول عمّوش فيخفق قلبها، يأتي صوت حببها وراء جدار الشرف فتجمد وسط حلقة رقص انفضت، يدخل عمّوش فينتجه إلى أمه، يقبل رأسها ويستدير لعمته أم فيحان ليسلم عليها، تشد نفلا مقنعتها حول رأسها وتستر بسمه ترتعش على شفتها، دون أن يضع عينه في عينها يمد يده ليصافحها ثم يسحبها قبل أن تحس دفئها في راحتها.

طريقته المرتبكة في السلام عليها عند النساء تؤلمها، وتتألم أكثر حين تنضح نظرة عمتها أم فيحان الطويلة بالتشفي، ولن تكتفي العمة بذلك بل ستدور عيناها لتلتقيا بنواظر الأرملة، سترجم نفلا نظرتها كالتالي: أرايت؟ قلت لك إنه لم يعد يحبها.

من أول زواجهما لم يسمح عمّوش لنفلا بأن تتذمر من القصر وأهله، وبعد حين وجدت أن أسلم طريقة هي أن تدس اتهاماتها وسط سردها ليومياتها، ومرات أثناء تكرارها لزبدة ما تبيئها به مشاطتها من نائم. تشعر بتغير وجه عمّوش حين تنخس جنبه كلمة فتضحك وتدعي أنها تمزح، يود أن يحللها من وعدها بالأ تذكّر أهله بكلمة ويخشى الباب الذي سيفتح، يسمع إشارة ويلحظ انسحابها فيدخل الفوازي شرنقة حزنه بصمت، يود لو

فعلت مثله وسمحت لبخورها أن يسليخ عن وجهها بلدة بأهلها، يود لو أنها مثله يدخل روشنها فيبدو كل موجه نائيًا لا يمكن أن يؤذيه، يود أن يقول أنها حين تكون في حضنه فإن أنفاسها المشتاقة تدوّخه، وأنه حين يسألها عن حالها يود ألا يسمع إلا أن كل أمورها طيبة.

يندس تحت ملحفه، وتلملم هي ما تبعثر من كلام قتل ليلتها في أولها، تقعد بجانبه وتغني، يتسم ثم يصد، تفرح وتأمل أن تسرق رقصة من عمر شواغله، تنهض وتمد له يدها فلا يشاركها. تمد يدها مرة أخرى وتخطفه، ينهض وتظل خطوته ثقيلة. عينه على الباب، وعينها تبحث تحت شاربته عن رعشة توق، قبل أن تترمد الرغبة في صدرها هي. في فراشها تحن لأيام عرسها؛ كانت لهفة صوته وهو يناديها أوضح من جهده لإخفائها، تقابله عند جدار الشرف فتتحسس عينه قبل يده جسدها، ولن تنتظم أنفاسهما حتى يتنشق عاتقها في الروشن العالي عن الأنظار.

\* \* \*



## (6)

أول المطر غسل الرمل والأشجار، لكنه لم يقدر على غسل الخواطر،  
ولا أخرج الفتيات للمسيل يراقصن ماءه، لن تغني البنات:

«يامطر شَبِّب براسي واجعله طول الحبال»

شيء في الخواطر يخبثها فيشغل أصحابها عن كل جميل، بدل مريفة  
يتتابع بني بنيان صوب مجلسهم، يحلفون أن يفنوا الهذاليين والشجرة  
تشهد، لكنهم مثلها يرى البعيد فيهم شجرة واحدة، فإذا اقترب عرف  
أن لها بدل الجذع الواحد جذوعاً شتى، وأن شوكة ينفذ من طرف فرع  
لقلب آخر.

يقعدون حول وجارهم الذي حرّموا قهوته حتى يأخذوا بثأر قتلاهم،  
بجهة المجلس المقابلة للشيخ فتى معتصب يتوكأ على بندقه يسراه، وتحت  
ثوبه تبين اللقائف على جنبه الأيمن، تغيرت أصابع شافي الرقيقة، أظافرها  
تدرمت، واسودت واصفرت جوانبها من الرمي الذي يتدرب عليه بعيداً عن  
أعين العقيق بصحبة جمعان، شعر وجهه يغطي جانبي وجهه، والابتسامة  
الخجولة يخلفها اليوم وجوم .

تفور في الصدور حمية لعقيد حرب آل بنيان، التتمتات يدها أحد  
فرسانهم فيمسح بيده لحيته موجهًا نظره لشافي: «ذي ليست على رجل إن  
لم نأخذ بأبيك ثلاثة»

تعلو غمغمة توكيد في حشد بدأ نصابه يكتمل، الطنين في أذن شافي

بدأ مع رصاصة الموت وما فارقها، لكنه اليوم يميز اسم أبيه وسط هدير الرجال.

يناقشون خططًا تتضمن أن يداهموا الهذاليين في حيهم، وشافي يتخير من كبار العمائم فيهم من يأخذه بأبيه، يخبط مجاوره الأرض أمامه: نقطع عن نخيلهم التي ترتوي معنا من بئر هادي الماء، وتعرفون أن حيهم مكشوف لأبراجنا.. فمن جاءنا منهم قنصناه..

دوي أصواتهم يعلو: الرأي السديد.

يتدخل هرم عركته الدنيا ليتنبأ بتالية الخطة: آل فواز ينتظرون أي عذر ليعينوا الهذاليين علينا.. اقطعوا الماء إن كنتم تريدون إعطاءهم فرصة.

كانت كلماته كافية لتضع سقفًا لغضبهم وتعقلنه، بعد ساعة فضجت خطة لا تختلف كثيرًا.

اتفق الرجال على تشييد برجين آخرين يشرفان على نخيل آل هذال، وعندما هموا بالمغادرة أشهر شافي يده السليمة فوق رؤوسهم، ثم التفت للشيخ: تبقى واحدة.

- اسلم.

صوته الثقيل بدا غريبًا حتى في أذنه هو: نحن وآل هذال إخوان، وعروقنا مشتبكة، فإن استحر القتل بيننا فأكثر ما أخشاه أن يحمي أحدٌ منكم ولد خال له فيهم أو ولد عمة.

تجلجل أصوات الرجال معاهدة على قتل من تطاله رماحهم وبنادقهم من آل هذال أيًا كان.



ينقهر الرجال فتسوء ظنونهم، وتطعن ألسنتهم من لا يشاءون إيلامه، آل هذال على الجسر تغلي صدورهم، الماء مقطوع عن نخيلهم من أمس، وآل بنيان بين الحيين برماحهم وينادقهم وعبيدهم ينشدون عرضات حرب. قال أحدهم: هذه الحرب تحتاج تدبيرًا.

من سمع في الكلمة إحجامًا بادره هادرًا: تدبيرها معروف؛ أما تحارب مثل الرجال غداً، أو تلبس مقنعة أمك وتقعّد بجوارها.

يتواصون بالصبر، ويتطلعون لجبل فواز: «إخواننا يُشدُّ بهم الظهر؟!» يرسلون مندوبهم للفوازين يطلب المعونة، ويضج مجلس وئيل بالوعود: يبشرون بسعدهم.

ينحاز عنهم عمّوش، يقعد عند الوجار، يحمس قهوته، في غبار الآراء يناديه أبوه.

- لييك!

- رأيك؟

- رأيي آل هذال أخطأوا.. أما يصبرون على حر نار أشعلوها، أو..

يقتحم أخوه حوارهما: يصبرون على بني بنيان ينبلونهم كأنهم عصافير؟! ذبحوا من ذبحوا منهم وحرقوا نخيلهم.

رد عمّوش: من بدأ بالشر يا فيحان؟! فلترجعوا وإياهم لمريفة وتتعاهدوا قبل أن يفوتكم موسم الغوص هذا العام، وإن كان في ميزان القتل ميل لجهة ألزموها بديّة.

تجنن الحلول الغريبة فيحان، يتلفت في وجوه الآخرين ليردوا ثم يتذكر حجة: ها قد قطع آل بنيان الماء عن آل هذال.. ما حل هذه عندك؟

توسط بينهما الأب: احكو لنا عن اليوم.. الأمس فات بما فيه، إخواننا بنو هذال يريدون نجدتنا فلتتفق على طريقة نساعدهم بها ويقبلونها.

ينهض عمّوش غاضبًا والرجال يرجحون دخول الحرب، على باب المجلس يستدير منها المتحفزين: من راح مع آل هذال في غيهم لن يباريني بعد اليوم في تجارة.

تكدر وجه والده وسكت كل من يطمع في مرافقة عمّوش، بعد لحظات انفض مجلسهم فصاح فيحان موجهاً كلامه للشيخ: عمّوش رخمة، وأنت تقول عنه خير عيالي.

خبطه الكهل على صدره مثبتاً إياه في محله: إلا أشهد إن عزمه أكبر من عزمنا كلنا، لكنه يحكي لزمان غير زماننا..

يحاول فيحان أن يفكر بطريقة أخرى، يريد أن يدلي برأي يرضيه ويتبناه الأب ليخالف رأي عمّوش، جرّب فكرة أخرى: ما رأيك لو أغار آل هذال على آل بنيان ضحى، وأعناهم بعبيدنا يهدمون أبراجهم.. فنكون لا دخلنا حربهم ولا خذلنا إخواننا.

فحص الشيخ الشاب وهلة ثم ضرب صدره: فأنت مندوبنا إليهم، قل لهم اعجلوا.. أغيروا عليهم غذا.. قبل أن ينتشر خبر تدبيرنا ويحتاط آل بنيان.

\* \* \*

خلافات الكبار لا تشغل الصغار إن لم ينبهوا إليها، في ملاعبهم تحركهم طاقة فرح حتى تصيب واحد منهم عدوى الرشد. يعترض صبي هذالي القادم الغريب، ندم عمّوش لأنه لم يجلب عباءته، لو لف جسده بها الآن لوقته الحصى في يدي الصبي إن قذفه بها، يقف الولد في وجه عمّوش يبرم حصاة مسننة الحد في يمينه: أنت بنياني؟

يستغرب عمّوش كيف طعمت الحرب الصغير بالكراهية قبل أن تعلمه الاتجاهات؟ يمازحه: أنا منكم.. أنا رجل نفلا بنت صالح. يضيء وجه الصغير فيتخلّى عن حصاه ويختفي بين النخيل.

نسمات صباحية باردة تلمح وجه جابر، تحرك شعرات عارضه الخفيفة، أنفه ينال نصيباً من البرودة أكثر، يوازن ابن صالح في رأسه بين برودة الخد المقابل للريح ودفء الآخر، ويقاوم رغبة في قياس حرارة عارضيه بيديه الاثنتين، ويتفكر في الحرب التي ستطول.

يقول الجسر أن آل بنيان سيبدأون غداً ببناء سور على حدهم جهة الهذالين، وأن الطبول التي صاحبت بناء البرجين ستصاحب السور. يلمح ظلال الرجل الطويل المقبل، يتهلل وجهه ويرحب به.

ملاحم نسيبه الدقيقة وجديلتاه تسله من هواجسه، يعتذر حين يخبره عمّوش عن الصبي وسؤاله: الدم نزع عقول كبارنا فما بالك بالصغار.

تمر فرجة بحزمة حطب، يشير إليها جابر: بنت راشد. الله يعافيك. قولي لأمي أن تجهز قهوة فعمّوش هنا.

تختلس فرجة نظرات للرجل الذي أخذ نفلا من بيت آل صالح، تحفظ ملامحه الصارمة ثم تبتعد، شيء في حركاتها الصبانية ونبرة صوتها أوجساسة حركاتها يذكر ابن صالح بيتلا.

يستدير الهذالي آخذاً بكف صاحبه للمجلس. يعتذر شوق نفلا بأنه

مستعجل، ويدخل صلب موضوعه: ماذا ستفعلون إن استمر آل بنيان في قطعهم الماء؟ يتسم جابر محرّجاً: لن يطول الأمر.. يومان أو ثلاثة أيضاً ويعيدونه.. أظنه قرار جهال لن يرضى عقلاؤهم هذا الجور.. والجو بدأ يبرد والنخيل ستحتمل أياماً أكثر بلا سقيا إن لم تهدأ شياطينهم اليوم.

يعرف عمّوش هذا الجانب المسالم في شقيق زوجته ويحبه، ولكن انتظار الآخر قلة حيلة، يطرح الفوزي فكرته مختصرة على جابر: نحفر بئراً هنا في نخيلكم، اطلب همة ربعك معك وأنا سأبعث لك من يساعد مثلاً.. يومان وينبع الماء ولا تحتاجون بئر هادي.

جابر ليستوعب الاقتراح عرك عينه وعصب عمامته، وبعد أن أجرى حساباً بسيطاً مشط وجه الرمل بسعف نخلة يابس: لا يغرنك اتفاق ربعي اليوم لأنهم تحت مصيبة واحدة، إن جتتهم بهذا الاقتراح سيقولون لماذا نحفره في نخيلك؟

لا يستغرب الفوزي هذا الهاجس، ويدرك أن بعضهم سيكدر النية بلسانه ولو بعد حين، ويدل أن يتجاهل الاحتمال يلقن نسييه ما يرد به عليهم: نخيلك الأقرب لآل بنيان، وجدولك الساقى كان موزع الماء الوحيد على نخيل آل هذال كلها، ولو حفرتم البئر في موضع آخر ستحتاجون لشق جداول طويلة وهذا سيستغرق من الوقت ما لن تحتمله النخيل..

على الجسر عصراً يسط جابر الاقتراح ويتبعه باحتراز: فإن شتم أن نحفر في نخل غيري كنت معكم وأولكم.

وقبل المغيب يعلو غناء آل هذال وهم يحفرون البئر، يصل النشيد بني بنيان فيسمعون فيه وعيداً بدك بيوتهم فوق رؤوس أهلها، كان حفر البئر وسيلة أمان للهذاليين أما النشيد فترويع للحى الآخر ليظن خوف جاره أقل.

تهرب بنت صالح من الجبل الذي لا يورق غيابها عنه غير مبغضاتها، ولا يدركه عمّوش إن لم يتجاوز مغيب الشمس. الخمول الذي يجثم على روحها في وثيل يفارقها في بيت أهلها، في القصر يساعدها العبيد في كل المهام لكنها تؤديها أعجل وأدق في بيت أهلها؛ تطبخ نيابة عن أمها، وتعذل مجرى الماء من جدول إلى آخر عن جابر، وتحلب الإبل عن خفرة.

في المسافة التي تقطعها منحدره من الجبل لحياها تتلبسها روح عبدٍ هرب من أسياده، يصل مأمنه فيكتشف قيداً في رجله، وجود خفرة في بيت أهلها ينغص عليها بشكل غامض تألقها فيه، خيال ابنة الخال يضطر نفلاً أن تحتفظ قليلاً في كلامها وتصرفاتها، ورغم أن تحفظها لا يقارن بما تفعله في جبل فواز إلا أن له ثقلاً لا يحتمل في بيت أهلها.

تدخل بيت أهلها فتحوم كفراشة حول أمها وأخيها فإن خرجا من البيت هربت للنخل، بعد لحظات يأتيها ما تخشاه، تحديق في خفرة وهي تهادي حاضنة بكفيها المكتنزين بطنها، كاد جنينها أن يسقط، توقف النزيف وما فارقتها خشيتها عليه.

تقرب الحامل بمشية بطيئة تتباعد فيها ساقاها، وتشيح نفلاً زامة شفيتها حتى لا تنبس بكلمة، فلو أنت خفرة أمامها ثانية أو باحت بمخاوفها من أن يسقط الجنين فقد ينفلت الكلام غصباً وتخبرها أن ظنونها هي ماستسقطه.

بعد السلام تمسح خفرة بأصابعها بطنها المتكور وتزفر، وحين تلاحظ أن نفلاً لا تسألها عن حملها شكت لها من جابر الذي واساها بكلمتين ونقلها لأمها، وتتذمر من أمها التي لم تخرجها من البيت حتى غلّقت توائم كريمة الرائحة بعنقها، تخبرها أن بتلا تلوم أبويها: «جابر بارد أعطى ابنتكم كبدها في يدها وتستغربون كيف يسقط جنينها»

بدل أن تغضب نفلا تحسد خفرة على قدرتها على قول كل شيء، فزوجة أخيها تترك للكلام أن يتدفق دون تصفية ما لا يناسب المستمعين، تتخيل نفسها تتحدث بذات السلاسة أمام عمّوش، تنتهد حين تنتظر منها خفرة ردًا، تبحث عما تبدد به صمتها البارد فتلمح الزميم الجديد في أنفها، تمسّ بلطف قطعة الذهب وتساءل بنت خالها: هذا جديد! ماذا قال جابر لما رآه؟

بتوتر تمسك خفرة القطعة المدورة بقباها المثلثة، تبرمها في جانب أنفها المخروم وتحكي: جديد.. وضعته أمس، وجاء أخوك فأتيته بالعشاء.. أكل أقله دون أن ينظر في وجهي، ثم قام ليستلقي على الرف.

هذه المرة تنزعج نفلا وتشعر عادة أنها ملزمة بالدفاع عن شقيقها، لكن امرأته استدركت بعد لحظة: «قال إنه مريض وقد رأيت يتقلب في فراشه»، فجأة خبت رغبة الاصطفاف معه في صدر نفلا وأشفقت على الزوجين من مرض لا يبدو أنه سيبرأ قريبًا.

لحظة صمت أطول تندمت عليها نفلا حين لمحت الخطفة المعتادة التي أصابت خفرة، نظرت بعدها طويلًا لبطن نفلا وسألتها: متى آخر مرة جاءتك العادة؟

تتشاغل نفلا بالسلام على بنت جيرانهم فرجة، ثم تسألها عن إناء العجين في يدها: أمك تريد أن نخبز عشاءكم معنا؟

تعتذر بنت راشد التي لم تذكر طلبها بعد: ما عندنا حطب، ولم يعد في الوقت ما يكفي لأحطب وأرجع قبل أن تظلم الدنيا.

– «عافية وأمر هين» نخبزه وتأتیان للعشاء معنا.. كم مر من أيام لم أرك فيها.. لا أنت ولا أمك؟

تفرك بنت راشد راحتها وتعتذر، ونفلا تحلف بالله ألا ترسل عشاءهم

وأنها ستتظنهما مع أمها، أما خفرة فتجلد نفسها: أنا أعرف كل الكلام الذي تحكيه نفلا، فلماذا لا أقوله قبلها؟!

بعد ساعة تأتي رائحة الخبز الذي أنضجته حرارة التنور بجابر، من وراء نفلا يخطف شطر رغيف ويلتهمه وهو يشيد بطبخها، تختلس الشقيقة نظرة لخفرة فترى في عيناها أَلَمًا تعرفه، ترفع بنت صالح صوتها بكلام تجبر به كسر خاطر زوجة أمام رجلها: بل خبزته خفرة.. أما أنا فليتك يا ابن أُمي ترى طبخي عند آل عمّوش.. ظني إني ما بعد عرفت مواعينهم ولا عرفتنِي.

يضحك شقيقها: تقولين هذا الكلام حتى لا أحسد عمّوشًا! ليتك عندنا كل يوم يا نفلا، والله إننا فقدنا الطبخ الزين بعدك. كان مد البر يشبعنا؛ تحطين عليه من الخضرة والخير وبصير المد مُدّين، ثم يهمز خفرة: غيرك ما هو بمبروك.. إن احترق ربع العشاء فهو سالم.

يكركر فلا تشاركه الضحك، تلصق خفرة رغيفًا في قلب التنور، ويشعل جمره وجهها فيحمر أكثر، تلجمه: أطبخ لك كل يوم وتدخل رأسك في الإناء حتى تنهيه.. لا سمعت مدحًا ولا ذمًا.

تغادر المطبخ فلا تجامله نفلا: والله ما تدري بنت خالك ما تفعل لترضيك، أرجو ألا يؤاخذك الله بما تفعله بها.

عينه تحط على شفتي نفلا، ينتظر منها تراجعًا لا تتبرع بها، وبعد لحظة يقول: كنت أمازحها.

لم تتسامح نفلا مع سخريه جابر الأولى من امرأته: إن كان هذا مزاحًا فأنت تظلم خفرة به كما تقهرها بكثير من صمتك.

ينفجر ابن صالح: طبائعها أسوأ من مزاحي، فلا تحكمني ببعض ما ترين يا نفلا.

- عدّلها لكن لا تكسرهما.

- فإن لم تتعدل.. أردّها لأهلها؟ أقول لهم إن لسانها أطول منها وأنها ليست البنت التي خطبتها؟!!

توقف نفلا موازنات برأسه بين خفرة وبتلا: ذا كلام فات أوانه، أما الحكي الكثير فطبع نسوتها.. بنات خالي وأمهن وخالاتهن.. تذرهن كثير، وألستهن حادة، لو كانت إحداهن أغلى الغالين عند رجلها نفّرته بأنيها وعدلها..

تصبح خفرة في اليوم التالي بزكام وحمى، ويتبّه أنه مذ عرفها وهي تمرض، يتحسر على جهده في أن يألّف طبعها، غضباتها القصيرة وفلتات لسانها إن حكّت عنه أمام النساء، يرفع طرف لحافها فترتعش، يسألها عن حالها فتزد بسرعة: بخير! ثم تنطوي أكثر.

\*\*\*

الشعاب حول العقيق لم يفرش فيها مرقد واحد من أشهر، استعاض كل حي بالمساحات بين النخيل، يخرجون قريباً من منازلهم، مراقداً النساء أقرب لبيوتهن تليها فرش الرجال، وحين تغفو عواجيزهن ويائساتهن متدثرات باستغفاراتهن تفرقع ضحكات الشابات بين حكاياتهن، يتناو من جميعاً كلما اتضحت خطوات رجل يقترب، إن لم يميزن دعسات المقبل في الرمل عرفن صوته حين ينادي رفيقته: يا بنت!

- يا لبيه! تقولها أخت زوج بتلا وتقفز، فتشدها أيديهن فيما هو يتجه لأقصى المسيل، أمها تطوي لها حصيرها الصغير، وحماتها ترشها من عطر استلته من بين نهديها، وصديقتها تدس في فمها قرصاً كحبة قهوة هو خليط



سكر وهيل وزعفران ليطيب أنفاسها، أما حين نادى بتلا رفيقها فلم تتحرك فيهن واحدة بعطر ولا بفراش.

عادت إليهن فوجدتهن يجرين جرّدًا شفوياً لليلة، غابطات من ناداها عشيرها، حاسدات من نوديت ليالي متوالية، متبرعات بنصائح لمن كان الهجر نصيبها.

ولدت بتلا بملامح أمها كاملة ولكنها بعد زواجها انحازت لخصال أبيها، تدعيها وتعسف طباعها لتكون مثله، في بيت أهلها البعيد بدت أمها يابسة وأبوها اللين، ولتدرب على صفاتها الجديدة كتمت في صدرها كثيرًا مما يستفزها به بيت العم، منذ زواجها كانت قد عادت إلى أهلها مرتين، في الأولى ردها أبوها دون كلمة، وفي الثانية أوصاها بأن ترجع فلامته الأم على ما فعله بابنتيها، طيب خاطرهما وخرج، وقبل أن يعود كانت بتلا قد غادرت.

ضحى اليوم التالي زار بيت أخيه، ناداها رافعًا صوته بأول البيت وتحت أنظار النساء المتلصصة مد ابنته بقرطي ذهب لأذنيها، قبّلت بتلا رأس أبيها، فحثها على لبسها دون أن تنخفض نبرته: قلت للقينة أريدها - إن لبستها ابنتي - أن تمتد من أذنها لتلامس كتفها.

توسوس الأقراط في أذني الشابة وتضحك ثم تقبل يد أبيها، خرج بعد أن شرب فنجان قهوة وتبعته، لم يوصها مذ حجرها ابن عمها بكلمة، لم يقل لها حرفًا قبل أن تزفها نسوتها لابن أخيه، لكنه وهو يودعها بعد زيارته الخاطفة همس في أذنها: لا تجاهري رجلك بنقد أمام أهله.

هزت رأسها وعقدت نية صادقة على اتباع نصيحة أبيها.

عاد ظل نخيل آل بنيان يستلقي في جداول ماء الهذالين دون أن تبتره الدماء، والحرب بين الحيين تكاد تنطفئ جذوتها وفيحان لم تتسن له فرصة دخولها، ظل أبوه يماطل وأخوه يرفض، وهاهو قد حفر لنسيبه جابر بئراً يسكت بها مخاوف بني هذال من قطع بئر هادي عنهم.

يضيق به القصر فيخرج للمسيل: أنا عقيد الحرب الذي لم أخض حرباً قط، أقول لعمّوش بأنني سأنصر بني عمي الهذالين فيخطب صدري ويسكتني أمام الرجال، ويجري لهم في اليوم التالي فيحصد الشاء كله دون نقطة دم! غداً سيمضغ أبي الحكاية في المجلس وسيضطر الرجال لموافقته، يظنان أن الحرب ستنتهي هكذا.. أنا سأثبت خطأهما وسأجعلها تشتعل من جديد.

بعد ساعة سار فيها على غير هدى أزكمت أنفه رائحة عفنة، في حلقة الليل وجد نفسه يتتبع الرائحة ليقف على مصدرها، كان حماراً نافقاً، بطنه منتفخة وإحدى قوائمه مرتفعة، قدّر أنه نفق قبل يوم أو يومين.

يعود فيحان للجبل ويصطحب اثنين من رفاقه، يريهما الحمار النافق، يتلثمان بعمامتيهما من الرائحة: ذا خيرك يا فيحان؟! تسحبنا بليل لترينا جيفة؟!!

- بل أريكما ما سندخل به الحرب ونري العقيق كله بسالتنا. إلا إن كتتم كأخي عمّوش تهابان الحرب.

قبل أن يحسما تردهما شرح لهما خطته: لا نستطيع دخول الحرب دون موافقة أبي، لذا علينا أن نجعلها تستمر حتى يقتنع، سرمي الحمار في بئر هادي، وسيظن بني بنيان أن الهذالين يعاقبونهم لأنهم منعوه من مائه، وأنهم تجرأوا على ذلك بعد أن حفروا بئراً في نخيل آل صالح، سيغضبون وسيغيرون على بني هذال فننصرهم عليهم ونكسر البنيانين، ويفخر جبل فواز بنا.

يرفع الثلاثة الدابة الميتة على حصير ويتجهون بها من وراء حي آل هذال باتجاه البئر، وحين يدنون منه يثور البارود عند أذانهم.

أجسادنا أعرف منا بالخطر، والفرع لا يشل أحياناً حس الاتجاهات عندها، ينخفض الثلاثة ثم يهربون في اتجاه بعيد عن مرمى النيران.

\* \* \*

أبناء الرمل تكذب ألسنتهم لا أعينهم، كل مكنون تظهره العيون لمن يقرأ، وهم يعرفون ذلك فيهم، فيحبونها عمن يبغضون، يسلم الرجل على غريمه فلا يضع عينه في عينه، أما النساء فأول ما يقرأن الوله وثماره.

في قصر وئيل تسأل أم عمّوش ولدها: نفلا حامل؟!

- كيف عرفت؟

- «لم يعد كحلها يثبت في عينها».

في روشنها يخبر عمّوش نفلا أنه مسافر، تريح رأسها على كتفه: وترجع لي بقصيدة تغنيها القيان لصبايا العقيق في كل عرس؟

بعد ضحكة قصيرة يتفقد دراهمه وبندقه، وهي اعتادت صمته، صارت تميز أطيافه؛ فصمت رفضه غير صمت انزعاجه، ويختلفان عن صمت رغبته. تنظر نفلا في حناء اختضبت به أمس، تفرك بأصابع يسراها يمينها، تحوم في دوائر كرحلات عمّوش التي لا أول لها ولا نهاية. عمّوش يتحزم ويحكي لها وهو يضفر جديلة عن جده حين كان يسافر بتجارتهم هو وأبوه: «يجمعنا في المجلس ويقول نار وجارك تعرف يدك، إن عززتها عزت وإن تركتها هبت...».

تضفر نفلا جديلته الأخرى ثم تغني فلا يتحرك، ترفع ذيل ثوبها وتتفنعه

على رأسها، تغمض عينيها وبصوتٍ تحاول جعله أجشَّ تغني أغنية للجن، وترقص كمسكونة بهم.

يداري وجهه كي لا ترى طرف ابتسامته وتضحك ضحكتها التي يحب وينخطف لها لونه، تربكه بقبلة فيدوخ شطر الفكرة الباقي ويدوي.

بحزم تدرب عليه ينشغل عنها، وبصبر تعود لمواجهته، ترقص وتمد له أكفًا مخضبة ليأخذها، تشده وهو مثقل بحمول إبله ونوايا تجارته وحساباته، تدبر له ظهرها وتكمل رقصها وغناءها، بعد بيتين تلتفت له، تفاجئه وهو يلتهم جسدها الحبيب بعينه، تسقط نظرتة في حجره ثم يصرفها باتجاه الباب، ينهض ويضمها طويلاً، ثم يخرج. يحزنها غيابه فتدمع ثم تطبق على مرودها عينها لتجدد كحلها، وتغادر حتى لا تسمع شوقها يودع أهله.

ركائب الفوازي في آخر مدى الرؤية وباقي بعرها عند باب وثيل، تتوقد حرارة ذكراه بين نهديها، تهبط عن جبل آل فواز وتقطع المسيل، على باب أهلها تسمع ضحكات أمها وجابر، في ذهنها من الباب لجدار الشرف ربت تفاصيل يومها معهم: ماذا ستطبخ؟ وأين سيجلسون؟ وفيم سيتحدثون؟

شقيقها وأمها متقابلان ووجه جابر للباب، نظرتة الفرحة بها تطفئها بإشارتها ليسكت، يتواطأ بابتسامة ويكمل حديثاً تاه عن مساره، ونفلا تحضن أمها بقوة، ينتفض جسد المرأة فتصيح: «باسم الله علي وعلى صيبي.. باسم الله علي وعلى صيبي»

يهدئ جابر روعها: «نفلا.. نفلا. يا يمه.» ونفلا تضحك وهي تقبل رأسها: تظن أن أمي خافت.. ما عليك منها.. فرحت.. ظنت أن صالِحاً ظهر من قبره مشتاقاً إليها وحضنها.

يتورد وجه الأم خجلاً وجابر يضحك، ثم تسترد أنفاسها فتقرص فخذ نفلا: «يا بنتي الناس يتزوجون ويعقلون، وأنت أعرست وخبّلت».

- عَمّوش راااااا.. سافر.. رجعت بنتًا.

- راح وهربت من بيتهم قبل أن يركد تالي غباره؟! أبشري بنسوان أهله يفضحنك في الوادي كله. تذكرها أمها بأكثر ما تكرهه في جبل فواز (نساء وثيل) فتفتش نفلا في سيرتهن عن مفر من عدل الأم، تربعت وشدت فقرات ظهرها حتى علت هامتها عن رأسي أمها وأخيها، أرخت أجفانها وأمالت رأسها، ثم فحمت صوتها مقلدة لهجة عمته أم فيحان: روعني الخبط عندكم في الروشن البارح.. قلت إن كان عَمّوش يضرب نفلا فقد ماتت..

خفض جابر رأسه، ومدت أمهما عنقها للأمام جاعلة ذقنها بين سبابتها وإبهامها: «يضربك؟».

نفضت نفلا يدها في وجه الاثنين: «نلعب.. نلعب».. ساعة أطلبه يرقص معي.. يوم الله هوّن عليه قام ودار دورتين ثم قعد.

يضحك جابر: وكيف سمعتهما؟!!

ترد الأم نيابة عن نفلا: أم فيحان؟ «تسمع الذر وهو يجتر» ثم تعيد وصيتها الأزلية لابنتها: احذريها!

- ولكن روشنك فوق المجلس، لكي تسمعكم يجب أن تقضي الليل فيه!

تحرف نفلا الحوار للجانب الذي تريده: ما قهرني هو أن عَمّوش منذ أن أخبرته بكلام عمته أصابته أم الركب..

جابر المستمتع بسيرة العاشقين يعيش في تفاصيل حكايتهما ما لم يكتبه الله له مع رفيقته، يثني ركبتيه ضامًا فخذيه ويدس يسراه بينهما أما يمناه فتسند رأسه، يسأل نفلا: ما لعب معك بعدها؟

- «ولا هو بلاعب إلى يوم الدين» لولا الحياء لدخل الحجرة يحبو حتى لا تسمع النسوان خطواته. تقول نفلا ذلك، ثم تقلد حذر هيئة شوقها عمّوش، جلسته الساكنة وعيونه التي تروغ في محجريه دون أن يلتفت.

\* \* \*

للرجل من مهده للحدّه سبعة أوجه، وللحرب وجه واحد يلبسه كل الرجال، سحنهم فصطبيغ بلون الأرواح التي يقامرون بها. بندق شافي لا ينزل عن عاتقه، وفخر أمه به بعد أن دخل الحرب يعكره خوفها عليه.

تتفحصه فلا ترى تحت غلالة التجهم المشدودة على وجهه ملامح الشاب خجول الابتسامة والصوت، تكاد تجزم أن مصعقاً تلبّسه، حتى جسدها غدا يقشعر إذا ظهر على بابها فجأة أو جاءها صوته على حين غرة.

يتناوب الرجال على أبراج الحي، ويأخذ شافي في الليلة نوبتين، يتلثم ويمضي ببندق ميته، ولا يصعد إلا البرج الذي قتل عنده أبوه، وفي أعلاه يجلد روحه بذكرى، يقسم لأبيه الذي خطفته رماح آل هذال أن يلحقهم به.

في البرج لا يهدأ غبار غارة في رأسه حتى يثور مرة أخرى، ابن بطل آل بنيان يوجعه أن أباه مات ولم ير منه ما يفاخر به، كل ما رآه تناومه وقت الغارات، ثم حين خرج لم ير منه غير احتمائه بنخلة عن رماح الهذاليين. يتخيل شافي نفسه يقف على قبر أبيه بأخبار مشرقة: أبشرك يا ابن بنيان إنني قتلت من آل هذال بك اثنين، وأعطيت أطراف ثلاثة، وأبشرك إنني عقيد حرب الحي.

يزخرف شافي خيالات يكون فيها بطلاً كآبيه يتحاماها الهذاليون، في  
البرج يكاد يشم بارود الأعداء ويسمع ضجيج أصواتهم وهو يشق صفوفهم:  
«هذا شافي ابن الفحل.. نفسه على الموت مهديها» فإذا ملأته نشوة بأمجاد  
ستأتي اختلست عينه نظرة لجدول آل صالح، يصرفها عنه فترتفع صوب  
جبل فواز.. ساعتها يفتح باب حصراته وتأتمر به أوجاع تهرس روحه.

إكراماً لميته يسترجع حكاياته عن جدهم ابن هادي؛ كيف شق الفتى  
بسيفه صفوف أعداء قومه في الغارات، وكيف قاىض بالدم محله في مجلس  
حيه. يؤكد أبوه أنه لم يكن له أن يقعد بصدر مجلس الحي، فالصدر لرجال  
أسماء أجدادهم أطول. يتنبه شافي أن هذا ما فعله أبوه حتى غدا فارس آل  
بنيان، لكنه يقف عند تفصيل غفل عنه الميت وهو أن كل محاولات مانع لم  
تجعله سيّداً في قومه حتى اعتزلهم وأنشأ واحتة الخاصة.

هبط ثقيلًا مرهقًا وبعد لحظة التقطت أذنه صوتًا. ارتقى البرج ثانية  
وأنصت، سمع تكسر الجريد اليباس تحت أرجل قادمة. حدسه قال له أن  
عليه ألا يستعجل تصويب بندقه، انسل من البرج، جرى صوب بيت شيخهم  
وألف حساب في رأسه، بيديه السليمة والمعطوبة خبط الباب العريض، فتح  
له ابن شيخهم فأعطاه الخبر في كلمتين: اعجلوا.. أظنها غارة جديدة.

ابن الشيخ تبعه مع ثلاثة من عبيده، تتابع الخمسة جهة البرج، وبدت  
خطوات المتسللين أوضح، كان جلياً أنهم يتجنبون البرج. لمحوا في حلقة  
الليل كتلة برؤوس متعددة، ثم بان لهم ثلاثة ينقلون حمولة ثقيلة، تحفز  
شافي لرميهم فصده ابن الشيخ: اصبر لنعرف نيتهم.

تتجه ظلال المتسللين لبئر هادي، يقتربون من حافته فيصوب شافي  
بندقه باتجاههم، ويسابقه ابن شيخهم الرمي فتدوي طلقتان، يركض بعدها  
المتسللون الذين أخطأهم الرمي صوب نخيل آل هذال، يذخر ابن الشيخ

بندقه وشافي يصوب من جديد، يرمي طلقتين متتابعتين صوب أقربهم له: خذها وأنا ولد أبي. يطلق بعده ابن الشيخ طلقة أخرى، ويسقط أحد الثلاثة فيحمله رفيقه ويلوذان بهدائم حظائر الهذالين.

اقترح شافي على ابن الشيخ أن يلحقا بهم فرفض: لن نظاردهم .. يكفي أنني قتلت واحداً الليلة، عد لحراستك وهذا سيثنيهم الليلة.

يصحح شافي معلومة رفيقه: الذي وقع أصابته رصاصتي أنا، ولا نعرف إن كان مات أو ما زال حيّاً.

يأمر ابن الشيخ العبيد بأن يفحصوا ما سقط من المتسللين عند بئر هادي، ثم يسخر من شافي: يا الرخمة متى أجدت الرمي لتقتل .. يدك كانت ترتعش وفرغت رصاصك وأنت ترمي في اتجاه والرجال في اتجاه آخر.

يخبط شافي براحته صدر غريمه: «الرخمة جاءت به أمك!» ثم يتجه للجدار، خطواته المهتاجة تثير رماد الخرائب وباقي عطن البهائم، يتلفت في المكان فلا يرى أحداً يرفع صوته: بني هذال!

يأتيه صوت ابن الشيخ وضحكته: «زرع الظلال! ارجع لن يردوا عليك» يخطو خطوة أخرى فيصيح العبد عند البئر: حمار! حمار ميت..

كلمة «حمار» عصفت بشافي، كان يقف في الموضع الذي وقف فيه أبوه يفدي الحي بروحه، الحي الذي يجب عليه كل مرة أن يسابقه في غاراته ولو شاءوا لنسفوا جهده بكلمة.



مع الفجر ألقى فيحان في مجلس وثيل، كان دور فنيس ليشعل النار في المجلس، ورغم رؤية العبد لفيحان لم يبادره بالسلام حين رأى وجهه المكفهر، يعرف من مرات عديدة سابقة أن أحسن سلوك في هذه الحالة ألا يلفت نظر الشاب إليه، فالنصيحة التي يتساقاها عبيد القصر بشأن فيحان تتلخص في أن يغتموا طلاقة وجهه إن حانت ويجهتدوا في ألا تقع له عين عليهم إن غضب.

يدخل أبو عمّوش فيرى ابنه ويتعجب، ليبر عن استغرابه قهقهة: لا إله إلا الله سيموت اليوم من الجن عشرة.. فيحان قبلي في المجلس!

بنزق أمر الفتى فنيسا بأن يطبخ قهوة، التفت العبد للشيخ منتظراً تأكيد الطلب فوثب فيحان كملدوغ وركل العبد ولعنه، استدار للباب ليترك المكان فقابله فوزي، وقف الآخر ليصتبح عليه، لكن وجهه تغير ومال جسده لا إرادياً ملتصقاً بالجدار: فيحان ما هذه الرائحة؟

شحب وجه فيحان وانسل دون أن تخرج من لسانه الجاف كلمة، أمام وثيل لعن حظه، لم يقنصه حراس الليل البنيانين لكن توتره ورائحة الجيفة العالقة به قد تفضحانه، سبح قليلاً في أقرب بركة، ثم قصد بيت صاحبه الذي أصيب، أخذ الثالث معه في طريقه، لا يثق بأنهما سيتحفظان على أحداث الليلة الفائتة، بدا الجرح في فخذ رفيقه مطمئناً، فبالكاد دخلت الرصاصة وخرجت والتزف توقف، أفنعهما بأن يذهبا معه للرياض: نغيب عن العقيق فترة، ونعود بالموتر الذي ينوي عمّوش منذ سنة شراء.. سنذهب ونأتي به، ونتعلم قيادته، سنكون أول من يدخل به الوادي.. أفوده وتعاوناني.

لم تكن هذه الـ«أول» كافية لشحذ همهم كما ظن، علت نبرته وهو يتخبط في الحجاج ليقنعهم: بالموتر نستطيع أن نتقل أسرع من الركائب.. يقول عمّوش أن الرحلة عليه من هنا للرياض لن تزيد عن أربعة أيام..

سنحْمَل عليه أكثر مما تحمله ست ركائب.. لن نحتاج رفقة كبيرة، ما سنجلبه ستقاسم نحن الثلاثة ربحه.

ظل فيحان يتخبط في الحجج حتى وصل هذه الحجة؛ فقد كان مفتاح رفاقه الكسب لا الفخر. وافقا فأوصى السليم منهما بأن يرسل خبراً لأهله بأنهما ذاهبان للرياض، ومضى هو إلى عمّوش.

وقف على مسافة منه: عمّوش متى نشترى الموتور؟

يبتسم التاجر للحماس الطارئ على أخيه ويسأله: أذهب معي لنشتره؟

- بل أذهب أنا وآتي به.. إن كنت تثق بي فستعطيني ما يكفي لشرائه.

يضع عمّوش سبابته على رأس أنفه: على ذا.. أبشر.

\* \* \*

يسير الفوازيون الثلاثة متجهين للرياض، تعاركهم الصحراء، يخددون وجهها بأقدامهم وأخفاف إبلهم، أجنحة الريح تطمس أثرهم وتنحت وجوههم، حبات الرمل الصغيرة تلسع أكفهم وسيقانهم، والريح تضرب صدورهم، وتعوي في آذانهم.

عمائمهم مشدودة على أفواههم، وحين تهدأ الريح تشويهم الشمس، فتسيل قطرات مالحة على جباههم، وفي جداول ظهورهم. عينا فيحان على رفيقه المصاب، وبرأسه ألف خاطر عن الحرب التي تأججت أكثر وهو بعيد، ويخشى أن تنحسم قبل عودته ويلعن الإصابة التي اضطرت له للفرار.

رفيقه الثالث مشغول بالحصول على مهمة المعاون في قيادة الموتور، يدانيه ويسأله: ماذا قال لك عمّوش حين طلبت منه مال الموتور؟

توقعا بأن يثور لسان فيحان فيطال أخاه بكل سوء، لكنهما لم يدركا أنه ككل رجال وثيل إن وجد من يحثه على كلام صام عنه، ويصر - إن سيق في درب - على ركوب غيره، ليعطي من يطالبه بشيء عكس ما يأمل: عمّوش ليت في العقيق ثلاثة مثله.. قبل أن أتم طلبي كان قد مدني بضعف ما طلبت.

يهت رفيقه لكنه يكظم خيبته، ينصرف للمصاب ويهمس له: يمدح (عمّوش)؟! سمعته؟! أما كان يلعنه أمس..  
- ما كان يلقبه بغير جعيرش.

- ألم تقل لي إن أحد عبيدهم أخبرك أن عمّوشًا سخر منه حين أراد دخول الحرب فصرخ في وجهه «رح اذبح من ستذبح يا فارس الجبل وارجع للعشاء من كيسي»؟!!

يتنصل الآخر من بعض الحكوي: لم أسمع عمّوشًا يرفع صوته.. والعبيد لا يقولون كلمة دون أن يزيدوا فيها.. (ثم أشار صوب فيحان) ورفيقنا تعرفه.. هو إن رضي عنك جعلك شيخ العقيق، وإن غضب منك سلخ بلسانه جلدك عن عظامك.

في درب الذهاب تذكر فيحان كلام أمه حين جاءها بخبر رحلته ليشتري الموتى: «أنا فداك يا فيحان» والله إني كنت أخشى عمّوشًا وانفراده بتجار تكم.. غداً يأكلها كلها، أو يمن عليك بنصيبك منها.. وأنت يومًا تلحق الأرانب في البر ويومًا تتسمع الحكوي في المجلس.

- هداك الله! هذا الكلام ما له حاجة.. عمّوش أعطاني قيمة موتى، سأجلبه خلال أيام هنا، وأقوده وأقود تجارتنا.

يسترسل لسان الأم المحتقن: هذا هو أخذ العبيد وأرسلهم يحفرون بثرًا

في نخل نسيبه، وكلما جاء من سفر حمل من الخير ما لم يعرفه بيت آل صالح وأرسله لهم، والعبيد يخدمون في نخيلهم حتى وجابر موجود.. لو مات والدك غداً فسينهبنا أخوك.. سيعطي نصيبك من الحلال لنفلا وأخيها.

لم تكن فكرة موت الوالد قد خطرت ببال فيحان من قبل، حين سمعها من أمه لم يتوقف عندها لحظة، لكنها في الأيام التالية ستظل كالضيف الثقيل تطل برأسها في أغرب الأوقات وتطيل صحبته. روعته الفكرة وأخافه أن يتخيل تفكك القصر ونأي عمّوش عنه. بعد أن ركب ناقته طمأن نفسه: عمّوش لا يفعلها أبداً، مهما أغضبه بعض فعلي فسيظل معي.. ومهما أنفق على الهذالية فسيبقى في حلالنا ما يكفي ويزيد.. ولو جثته بالموتر فسيفخر بي.. أنا وحدي من سيعرف كيف يقوده، ولو أراد عمّوش أن يستعمله في قوافله فعليه أن يأخذني معه.. أخي عمّوش لن يستغني عني، ولن يتركني أبداً.

\* \* \*

ضحى أغار البنيانيون على آل هذال، جداول الماء عمائم مدماة ورماح، لم يخرج معهم شافي. أمه منذ الفجر تحوم كلبوة، تصفق بكف كفاً: فرحت بك يوماً وعدت تخزيني.. الرجال يحاربون وأنت لا شفع ولا نفع.

لا شيء يسكتها، لذا ظل في مكانه صامتاً بانتظار أن تستترف حججها وتكلّ، أتاه جمعان بناقته فأدار وجهه عنه، تشجعت حين رأت العبد يؤجج في بكرها ما تود ألا يخمد، فارقتها قلة الحيلة التي تلبستها لحظة، أنشبت أصابعها في فتحة صدرها وشقت جيبيها.

صوت تمزق الثوب روع شافي، منظر ثديي أمه المترجرين مع صيحاتها جعلته يقفز فيضمها، يدير جسدها بعيداً عن جمعان ثم يخرج متبعا صوت

الرصاص. شقحا مثله احتاجت وقتًا لتحسم وجهتها، يوجهها لنخيل آل هذال وتدير رأسها صوب البئر مرة، وصوب مريفة مرات، يلوي زمامها ويتجه بها صوب المسيل، تحت غبار قريب يلمح ابن شيخهم يطعن هذاليًا برمحه، عمامة الهذالي تخفي أكثر وجهه، لكن شافيًا عرف شقيق الحبيبة، جمد للحظة لا يعرف إن كان قد مات، ومصعق يشوشه ويغيطه: إن وقعت إصابته في مقتل فلن يكون أكبر همك أن نفلًا ستبكي، بعد هذه الضربة لن يحاج أحد ابن الشيخ في أن مصاب الأمل كان برصاصته لا برصاصك يا شافي.

يلمح شافي جارهم في حوض نخلة، أبو بتلا منكفئًا على وجهه ودمه يصبغ عمامته، وأخوه بجواره برمح مغرور في وركه، وابن الأخ يذود عن أبويه هذالين برمحه، يرى الفتى المقبل فيزعق: «شافي يا عصابة رأسي» يرمي شافي الهذالي الأول في ساقه، فيجذبه الآخر من فوق ناقته، يضربه شافي بعقب بندقه ويسمع طقطقة ضلوعه تتكسر، على عجل يحمل الجريحين البنيانين على شقحا، ويأمر ولدهما: عد بهما، وأنا ألحقكم. يبين التردد في الفتى فلا يمهل شافي لحظة، يضع زمام الناقة في يده ويضرب جنبها فتطير صوب الحي.

قبل أن يتعد رأى هذالية تنحني على ناقة نافقة، تنزع منها عظمًا، روعه بياضه في يدها وهي تهوي به على هامة ابن الشيخ فتفلقها، يراه يخر على غريمه لتختلط دماؤهما.

ترفع الهذالية جابرًا وتجره للبيوت، وأنظار شافي على قتيلين وبركة لزجة من دمائهما تحت أقدامه، كان قد خرج بنية ألا يضرب أحدًا في مقتل وها هو قد أزهق أرواح اثنين في لحظة، لو لم يقتلها لظن الحي أن يده معطوبة من الخور. ترتعش أطرافه ويستدير بغصة جهة حيه، تدوي طلقة

عند رأسه، صفيها يصم أذنه، ينبطح وتبحث عينه عن مريده، من بين النخيل يرى الهذالي يلقم بندقه، يرمي طلقة فتطيح ببندق غريمه من يده، لازال في بندق شافي طلقة، لكن الألم يفتك برأسه، وألف فكرة تدوي فيه، تتكور في حلقة عبرة فينسل وراء نخلة حتى تلفظ الغارة أنفاسها.

\* \* \*

حمى أصابت شيخ آل بنيان وعياله، اتفقوا على استضافة الحي ليشرفوا على رواية الرجال عن الغارة، شدد الأب بألا يخوضوا في ذكر الإصابات ولا حصرها، حتى تنسى الضربة التي تلقاها الابن، رغم أن مصابهم أكد أن أحداً لم يلح الهذالية التي ضربته «جنيّة ظهرت واختفت فجأة»

قبل الوليمة يقعد الشيخ وأكفه في حجره، يزفر الرجال تشفيهم في بني هذال وهم يحصون نتائج غارتهم: «قتلنا أربعة وأصبنا ثلاثة، ولم يقتل منا أحد، أما مصابونا فهم..» رفع يده قاطعاً الحديث: مصابونا يشفيهم الله تعالى! فلنحك فيما هو أهم.. الغارات شيء والخسة شيء آخر.. أغرنا عليهم اليوم لأنهم قبل أيام رموا جيفة في بئرنا..

قاطعهم رجل لم تكتمل نشوته بحديث النصر: فقد كسرناهم اليوم.. أما البئر فقد ستر الله عليه والعيال ردوا الهذالين عنه قبل أن يستم مكرهم..

اختطف أحد أبناء الشيخ راية الحكيم: أخى «بيّض الله وجهه» رماهم حتى ألجأهم للهرب في الليل، وعاد فأصاب اثنين في الضحى.

نظر الرجال للعصابة الملفوفة على رأسه فسكتوا، ثم سأل أحدهم عن شافي الذي لم يحضر وليمتهم. سخر منه المصاب: «أمرضه ريح البارود وصوت الرصاص»

لم تعجب كلمته أحداً من الجالسين غير أنهم يتفقون معه بأن شافي

يختفي أياً ما بعد كل غارة، كأنه على مهل يربي عزلته عنهم. انصب غياب شافي في مصلحة بيت الشيخ المشغول بتصدير نسخة عن الواقعة لا تتضمن فضيحتهم، فاجأهم أبو بتلا وهو يثني على جاره: أشهد أنه قتل اثنين، والله لولاه لكتنم اليوم في إثر جنازتي أنا وأخي.

في النهار الذي تلاه عاد جمعان، بحزمة الحطب على ظهره بدا كجذوع شجرة سمر تسعى ببطء داخل بيت آل شافي، يفضضها عن جسده في مكان الحطب بأغنية، تسمع أم شافي صوته فتخرج من حجرتها وهو يرتب الحطب: علمك؟

- صبحك بالخير يا عمة.

- صبحك بالعافية.

- شافي هنا؟

- ما لقيته في فراشه فجرًا، إن جاد ظني فهو يتصيد.

وجه جمعان المستدير يستطيل قليلاً وهو يضحك فتظهر أسنانه الناصعة الكبيرة، يغريها العبد بسؤاله: يتصيد وقد صاد آل هذال كلهم أمس؟!

يشرق وجهها، وتحمل عنه جذاذ الحطب: في ذمتك؟

- في ذمتي إن ولدك فعل.

جمعان أفضل من يجمع الأخبار في حي آل بنيان، يحسن الاستماع فلا يوقف مسترسلاً ولا يفصح وجهه لمن يزوده بعلم عن إنكار، ولا يصحح كلمة مهما بان غلطها. في قصر الشيخ سمع كل ما دار وحفظه، يحكي لعمته: بعد الغارة كادت حرب أخرى أن تثور في مجلس شيخنا.. يريد وعياله أن ينسبوا كل فضل لهم ويسلبوا الآخرين مجدهم، لكن الرجال حفظوا حق عمي.

يدخل شافي على هذا الحوار فيتجنبه، ويلحقه جمعان لحجرتة ليطمه، امتعاض «الفحل» بأن في العضلة التي انشدت تحت عارضه، سكنت مطاطًا رأسه فأكمل جمعان: لماذا تركت اجتماع بني ببيان للشيخ وعياله يسردون كذبًا طول الجبال؟! .. قال ابن الشيخ إنه من أصاب الهذالي في ليلة الحمار وكاد يقتل آخرًا اليوم، وأن ذلك ما جعل آل هذال يتكالبون عليه.

يوصل شافي عزوفه عن الكلام وجمعان يستفيض: ابن الشيخ رأسه معصوب بعمامة من كبرها حسبت أن ميقعة منكوسة فوقه، وأبوه عشي الجماعة على ذبيحتين، بعض عبيدهم قال لي: إن كل ذبيحة عن خبطة في رأس الولد، وأن في ذمة الشيخ ذبيحة ثالثة لتستقيم الحسبة لكنه بخيل..

يضحك جمعان ولا يشاركه شافي، فيظن أنه اكتشف أنه يلفق الكلام الذي يريده ويضعه على ألسنة آخرين، يدنو من شافي أكثر: والله إني رأيت رأس ابن الشيخ معصوبًا، ووقفت مع عبيدهم أخدم وأسمع ما سيقال.

لم تتحرر رغبة شافي في حكي أو إنصات لكن جمعان أكمل على كل حال: أتدري أن الشيخ ألمح إلى أنك لم تنجح في قتل رجل واحد، وأن إصاباتك كلها غير متقنة، قال إنك حتى حين واجهت أحدهم لا يفصل بينكما غير جدول أخطأته.. لكن عبيد الشيخ حكوا لي عن لفظ بين عمهم وعياله حول هذالية أنقذت ابن صالح ولم أفهم لماذا أزعجته سيرتها.

تذكر شافي المرأة التي أصابت ابن الشيخ، جسدها الأقرب لجذع نخلة بطوله الفارع وانعدام تفاصيله، مقنعتها التي ارتفعت عن فتحة صدرها وهي تهوي بالعظم على رأس ابن الشيخ، وبياض العظم حين لطخه الدم القاني.

– الهذالية!

يفرح جمعان باهتمام صاحبه فيصرف الحديث باتجاهها: إي بالله



الهدالية.. يقولون إنها بنت راشد.. اسمها فرجة.. هي جارة لابن صالح، وأبوها كان رفيقه في الغوص.

المرارة في صدر شافي ترغمه على الحديث: سأقول لك كلمة لم أخبر بها أحداً.. الهدالية التي يمدحونها هي من أصابت ابن شيخهم، ولم يكن في يدها بندق ولا رمح.. ضربته بعظم جيفة.

اتسعت حدقتا جمعان، واستعاده الجملة متمنياً أن يكون ما سمعه صحيحاً: يا عم «عدّل ذا الحكي أو بدّله» امرأة أصابته؟ يقول إنه رد ثلاثة عن البثر.. وألحق بهم آخرًا ضحى الغارة.

- عند بثر هادي لمحتهم أنا أولاً، وناديتهم ثم رميت أحدهم ورماه معي، ولم نعرف من أصابه.. أما ضحى الغارة فلم يكدر يرمي طلقة، طعن جابرًا برمح فهجمت عليه الهدالية وطرحته.

تفرق ضحكات جمعان وهو يصفق بيديه، ويخرج وشافي يناديه مناشداً إياه ألا يفصح بكلمة.

\* \* \*

ظل الغموض يلف حكاية الجيفة التي أنكرها الهداليون، وسلوك الشيخ وعياله كلما ذكرت الغارة يثير الريبة، فلم يجد آل بنيان غير سيرة الهدالية التي ذكرها أبو بتلا، يتساءلون من هي والشيخ كلما عادوا بالحكي لمجلسه صرفهم عنها، تلك كانت غلطته، فلو تمهل لتذكر أن جماعته - التي يعرفها - ما إن تُنتهى عن أمر حتى تولع به.

رواية شافي تفشت في آذان ستسد بها ثغرات غارة عجيبة، حققهم على الشيخ وعياله تعاظم، فاجتمعت ألسن عند مريفة ونسجت أبياتاً في الهدالية مطلعها:

«ياليت فرجة يا هلي متا      نجعل لها فعل تماري به»

كان هذا بيان القوم فيما حدث، فلا واضح في الغارة إلا فعل بنت راشد وهي وحدها من تستحق الثناء، سكت جمعان بالنشيد عن شافي حتى غتته أمه عنده، سألتها عنه فلم تنسبه لأحد.

تكمل أمه فتخبره أن بعضهم قال «لولا أن نمدحها بما ليس فيها لقلنا إنها لا تقل شجاعة عن شافي الذي ردهم عن البشر». عند الإبل شد أذن عبده، فأزاح جمعان يده: كنت أدافع عنك.. ما كان يجب أن نسكت وهو يكذب ويدعي فحولة هو بعيد عنها!

يستطرد جمعان مسترجعاً حكاية إنقاذ فتين من السيل، ويحكي كيف كان ابن الشيخ يرتجف ويبكي، يطأطي شافي رأسه فهو كان الغرقان الآخر الباكي المرتجف. يلومه شافي: ولو.. أنا نهيتك عن أن تحكي ما سمعته مني.

ينخرس لسان شافي فيكمل عبده: إن لم ترد نشر كلمة فلا تقلها لي. يخيم عليهما صمت يوقن شافي معه أن جمعان محق: ألومه وأنا ما استطعت كف لساني، وربما ألقمته الحكلي لأوجع غريمي كما أوجعني.

يكمل العبد كلامه: ثم ماذا حصل حين حكيت ما قلته لي؟ حكيت وغنوا في الهذالية.. أما قدرك فعرفه قاصيهم والداني.

- ترديد الشعر في الهذالية لم يقلوه في امرأة تستحق الثناء بل ليغيظوا الشيخ وعياله.

- وأنت موكل بسيرة الشيخ وعياله تحميها؟ وكيف تدافع عنهم وقد ستروا فعلك ونسبوه لولدكم؟!

شافي يجادل نفسه اللوامة بأن الحكلي فيما فات نقص في العقل، ويتشجع جمعان فينصح صاحبه: لا تحرص على أن تسترهم.. لو اطلعوا

لك على زلة لفضحوها.. يا رجل هم في مجلسهم إلى اليوم يقولون إن يدك معطوبة ولا تجيد التصويب.. عائلة لسانها أجرب.. أمس عند إبلهم كان المفلوق بين رفاقه يحكي عن يوم الغارة فقلت له «يا رجل عبيدك هم من حملوك على كتوفهم، يقولون إنهم أوصلوك بيتك لا تعي الشرق من القبلة»

حدّق فيه شافي وسأله: قلت هذا الكلام أمامه؟

تكاد عيون جمعان تخرج من محجريهما وهو ويهز راحته أمام ناظري شافي: أمجنون أنا لأقول له ذا الكلام في وجهه؟! يدير رأسه لينفض عنه الفكرة السمجة ثم يعيد لشافي صياغة جملته: الكلام قلته في خاطري.

يتبسم شافي: غربلك الله! انعقد لسانك لما وقعت العين في العين؟!!

كطعنة غادرة تهجم على شافي ذكرى كلمته عند المعاهدة؛ إصراره على ألا يحمي أحد من حيه قريباً له من آل هذال.. يمط شفّته بحسرة: ها قد واجهت شقيق الحبيبة، رأيت و امرأة تنقذه من ابن شيخنا، كانت لدي فرصة لقتله، ولن يعرف هو ولا سواه أنني ما فكرت في اغتنامها، لن يعرف جابر أنني لم أرغب بقتله لأنني أعشق أخته، فأنا لم أغن فيها شعراً ولم أراقصها عند سيل، ولم يرني أتحدث معها. ساعتها يسودّ وجهه وهو يستتج أن نفلا أيضاً لم تعرف كم أحبها، ارتعشت شفّته وقال لنفسه: ربما لو كنت قتلت أخاها لعرفت اسمي.

\* \* \*

مسيكة هدهد الأخبار لنفلا، إن استجد خبر في الحي استبقت زيارتها الأسبوعية لتمشط شعرها، استقبلتها بنت صالح بالترحيب وأشارت لها لتسبقها للروشن، لكن قينة آل هذال تريد أن تفاخر قصر وثيل ببطولة سجلتها امرأة في الحي. ظلت في مكانها تدير رأسها وترفع صوتها: أين عماتك لأسلم عليهن؟

أخرج الصوت الأجش أم عمّوش، وأسرعت نحوها مسيكة تقبل رأسها، ثم قعدت في باحة البيت: تعبت من المشي والوقفة.

تخبر العمة الأرملة أم فيحان بمقدم المشاطة، فتذمر أم فيحان مقدّمًا من الوقت الذي ستقضيه القينة عند نفلا: احسبي لها نصف نهار في شعر بنت صالح.

تهز الأرملة رأسها موافقة: «قرون امرأة عمّوش تقعد معها من طولها.. كأنها رشاء»

تغتاظ أم فيحان في موعد المشاط الأسبوعي ولا تقدر أن تفوته، تتجه إلى باحة البيت ومسيكة تقفز على تسلسل أحداث الغارة لتحكي أهمها: وتتوسطهم بنت راشد.. تشق صفهم شقًا.

تتبسم بنت صالح التي لم تستغرب هذه الشجاعة من صاحببتها، وتسترعي الحكاية اهتمام أم فيحان فتستزيد المشاطة لتسألها عن سلاح الفحلة.

- لا بندق ولا رمح.. ما كان بيدها غير عظم بعير (أو ناقة تستدرك) وكلما هوت به على جهة طرحت بنيانًا.

تشعر نفلا بقشعريرة فخر واسم صديقتها يقطر على لسان مسيكة، تتناول فنجانًا قريبًا فتكسره: هذا لعين بنت راشد.

صوت التكسير يأتي بعمّوش، فتنهض له نفلا: سأذهب لأهلي لأراهم. الامتعاض الذي لم تخطئه عينها في وجهه لن يمنعها من الذهاب لكنه

سيردها لوئيل بسرعة، ما إن يومع برأسه حتى تقبض على يد مشاطتها: تمشطيني هناك.. هناك عند أهلي..

خطوتها الحثيثة ترهق المشاطة في مجاراتها، على أول النخيل تشير لها نفلا بأن تكمل دربها لأنها ستزور آل راشد أولاً.

تدخل بيت آل راشد وهي تنادي: «يا حي فرجة يا هلي منّا» تقابلها الفتاة فترقص نفلاً وتغني. في الليل تروي لعمّوش حصيلة يومها، يغويه ما تسرده من حكايات لكنه يمقت سيرة الحرب، وحين يسمعها مجبراً يضع نفسه محل الفرقاء ويتخيل احتمالات للأحداث لو اتخذ نيابة عنهم بعض القرارات، تخبره نفلا عن دموع أمها الممتنة، وتحكي عن تخطيط الحي في فهم سر غارة آل بنيان عليهم: ألم يكفهم بناء الحواجز والأبراج؟!

يحتضن نفلا ويقبلها قبلة طويلة، يريق عينيها تتبعه ابتسامة صغيرة، تقبله هي بعدها ثم تتم حديثها، فيضع شفاهه على ثغرها في قبلة أطول، تقبل عارضه المشعر وتخبره أن بني بنيان جاءوا بفرية غريبة وتهمة بأن في أهلها من حاول رمي جيفة في بئر هادي.

يغلق عمّوش عينيه ويلف جسده في لحافه: ولماذا يتهمون الرجال بما لم يفعلوه؟!

تورد نفلا قناعة أهلها: نظن أن آل بنيان اختلقوا حكاية الحمار ليغيروا علينا.

بزفرة قصيرة يهمس: الحروب خسيصة.. ربما فعلها بعض جهالك.

- خسيصة؟! نفلا تكرر الكلمة وعينها على عشيرها الذي قبل اتهام أهلها بسهولة، تطفئ سراجها وتدخل فراشها.

مدح فرجة إشادة بها وذم في أهلها، يتردد في حياها فيرمي رجال لا يشكون في أنفسهم لأجلها عمائمهم: «تستأهل بنت راشد» أما أجنبهم في اللقاء فيقلقهم النشيد، يبحثون عن كبش محرقة فيوقدون نار اللوم تحت شعرائهم.

يولم جابر للحي على سلامته من ضربة لم تكن عميقة، وإكرامًا لفرجة يقدم ذبيحته في مجلس آل راشد، على الوليمة ترتفع أصوات الرجال لتسمع فرجة وأمها دعوات لها بالتوفيق ولأبيها بالرحمة. بعد أن تنهض المجموعة الأولى من الضيوف عن الوليمة يقعد عليها الشباب فيقف رجل على رؤوسهم يتفحص وجوههم ويخفي ربع ابتسامة: صاحب الحمار يخبرنا الآن كي نكرمه، أو سنجلده إن تفقدنا غداً حمير الحي وعرفنا صاحب المفقود.

لو كانت هذه المرة الأولى التي يطرح فيها السؤال لاختلفت ردة الفعل، أما على الوليمة فقد أبرز سكوت الفتية أصوات مضغ وبلع حثيثة. بعد لحظة هجم رجل بلحية شعثناء على الصحن، من فوق أجساد الفتية المنحنية قبض يديه على فكي الذبيحة، غرز أصابعه بين صفي أسنانها وانتزع اللسان، أو ما به للفتيان: من يأخذ اللسان بحقه؟

نبهه آخر بكلمة كان ينتظرها: اللسان لشعرائنا (وهنا توجهت أنظارهما صوب شاعر صامت قربهما)

ينتفض اللسان الأسود في يد حامله، ويبلغ الشاعر ريقه مظهرًا أن الكلمات لا تستفزه، يقذف المتحدي اللسان إلى فتى في الحلقة المصمتة ويقول هازئًا: شعراؤنا ألسنتهم منعقدة، لم يستطيعوا الرد على بني بنيان.

انتفضت الأوردة في عنق الشاعر وأزبد: لساني ما انعقد ولا يكذب، إذا خرج رمحك من تحت ملحف امرأتك مدحتك، أما قبل أن يرى المسيل فعلك فمدحي فيك منكر.. إلا إن كنت راعي الحمار فأبشر.

خوف أن يلتحما يفصل بينهما الرجال، يدفع جابر المتحدي خارج المجلس، وينزوي الشاعر وفي صدره عليه فوق ما فيه على آل بنيان. بدسم الوليمة في أيديهم يجتمعون على الجسر بعد العصر ليحاولوا مجدداً تفسير ما حصل، وتظل رائحة الحمار النافق لغزاً لا حل له: لم نتفق عليه وما أشار أحد به.

- ولم يدع أحد من صبياننا أنه فعله.

- أنرسل مندوباً لآل بنيان يحلف لهم أن الحرب بيننا لا تصل هذا الحد؟

- لن يصدقوا ذلك فلماذا نجتهد فيه؟!

- لأنهم قد يخربون آبارنا غداً.

يرسل الهذاليون مندوبهم، وآل بنيان بدل أن يقبلوا عذرهم يأخذون مندوبهم ليقف بنفسه على الحمار المنتفخ وقد بدأ جلده يتفسخ. يلف الرجل عمامته حول أنفه ويحاججهم بالأمصاب في حيه غير مصابي الغارة، فأين من يدعون بأنهم أصابوهم في الليلة التي سبقت غارتهم؟

رغم أن السؤال سمح بشك معقول بين بني بنيان إلا أنهم أمروا عبيدهم بأن يحملوه ويطرحوه في المسيل جهة الهذاليين.

\* \* \*





## (7)

لثلاث ليال ظل المطر يهمني على العقيق، فجر اليوم الرابع سطعت نجمة الصبح فتوقف، مع أول أشعة الشمس مدت النخيل قامات ناعسة، فتسلق الماء جذوعها وتمطى سعفها، في حفيف أطول الجريد تردد صدى هتاف الجن الليلي.

على الجدول الساقى وقفت نفلا، تلسعها برودة منعشة فتلف أصابعها في مقنعتها، يتنفس الصبح في وجهها بأريج أشجار الليمون، تتأمل أزهار البرسيم البنفسجية الصغيرة، وتنتظر شقيقها لينهي صلاة الإشراق، تفتقد ضحكته التي لم تعد ترن مذ خطف آل بنيان حلمه ببثلا، ويقلقها جسده الذي اكتنز ولا موسم غوص يعيده لرشاقته.

تلتفت في النخيل الذي شهد لعبهما طفلين، وتلمح التينة التي كان يسابقها على ثمارها، تختبئ خلفها حتى ينهي صلاته، وحين تشرق الشمس ويسلم تسحب أكمامها الطويلة مدخلة أطرافها فيها، وتشد جيب ثوبها ليغطي رأسها، وتقبل تغني بصوت عجوز أجش:

«البارحة جانبي المعلوم أهل الهوى طبوا الجنة  
واللي يصلون ويصومون ف أقصى جهنم لهم رنة»

يضحك وهي ترتب مظهرها وبطنها يرفع مقدم ثوبها، ولولا كلف الحمل في جيدها لأقسم جابر أن الحمل زاد أخته جمالا. يتأملها وهو يستر فمه بكمه ويضحك: «غربلك الله! إلا إن شاء الله أدخل الجنة وتطلبين شفاعتي»

يضحكان فيضيف بأنه ساعتها سيتمهل قبل أن يأخذ قراره بالشفاعة لها. تقعد أخته عنده، عينه على بطنها ويسألها كم بقي لتلد فتتحرر: عمّوش يريد أن يروح في سفرة طويلة لليمن، ولو ذهب فقد ألد قبل أن يأتي.

- ما دام عمّوش قعد حتى حملت فما قصّر..

في خاطرها هاجس مزعج يحسه جابر ويعشى أن تبوح به، يقطع صمتها الحزين: نرجع لأم جابر؟

تشدد طرف ثوبه: لا سأرجع لوئيل.. لكنني جئت لك لتفسر لي حلمًا رأيته.

- خيرًا!

- خير إن شاء الله! رأيتني في أرض خضراء، خضرتها على مد النظر (وترفع يدها فوق رأسها لتريه ارتفاع حشائشها) كأنه قصيل، الله أعلم، وأنا أمشي.. وأمشي فيه، حتى أصل شجرة، كأنها تينة، وتدلي علي غصونها وأنا أقطف وأكل.

تحكي له نفلا وتفحص كل خلجة فيه، تعرف أنه لن يفسره لها بما يسوء، لكنها تخشى ما لا يقوله. يشرد وهو يخطط الرمل بسبابته: خير.. خير، يمسح براحته ما خططه وينهض: لا تفكري فيه كثيرًا.

تشدد ذيل ثوبه: لا والله ما أدعك حتى تخبرني.

عين جابر على بطنها: تفسيري يا بنت أبي ما هو بعلم، إنما هي صور أراها وصاحب الحلم يحكي، وما رأيته إنك تنجيبين عيالاً؛ رجال لكن الخير الذي تنعمين به يكون على يد بنت قبلهم كلهم.

بقلق سأله نفلا: فلماذا كانت التينة نائية عن باقي الخضرة؟

أشاح أخوها بوجهه وتمتم: الله أعلم.

ضحى مسحت سحب منخفضة رؤوس النخيل في العقيق، تعلق عيونهم بها تقرأ حركتها مشفقة، فالمطر الذي روى شعاب الوادي من أسبوع بدأ يفيض عن حاجة الأرض. بعد المغرب انهملت قطرات ثقيلة، فلزموا بيوتهم وظنوا أنها ستوقف بعد ساعة، غير أن المطر استمر حتى أذان الفجر. أشرقت شمس اليوم التالي على رذاذ، مع الظهر تكاثفت سحب سوداء في سماء الوادي، رتقت فتوق سماءهم فغدا نهارهم ليلاً، لم يروا فيه غير سوط البرق الفضي يجلد شعابهم بلا توقف. تحت سقف بدأ يخربس جابر وأمه وزوجته، عين الأم على ثمرة بطن خفرة، وخواطر جابر عند مخزون التمر الذي يعسه كل ساعة متشككاً في صمود سقف الحجرة.

توقف المطر لحظات فاشتعلت الهمم: تضع خفرة الفرش على رف جابر المبلول لعلها تجف، وتسمع أصوات الرجال في الدرب يتبادلون أخبار الأسقف والجدران التي يجب أن يتداركوها حتى لا تطبق على أهلها، لحقهم جابر فجرت أمه لتعدل أحواض نخيل ثلثت، رأت صف رجال ينزحون الماء عن الدرب، ونصحها أحدهم ألا تذهب للنخيل فحالها أسوأ، رجعت لخفرة تغرف معها بركة الماء في مدخل الحجرة الأكثر أمناً، على سطح جيرانهم آل راشد كانت فرجة تنخس المزاريب المنسدة، وأمها تتحسس ثغرة ثقبها الماء أسفل جدار حجرتها، استفزعتها بأم جابر فوقفت معها على الفجوة التي تمص ماء باحة البيت، أمرت فرجة بأن تأتيها بما تحشو به الفجوة وأمرت الأم بأن تجلب قدرًا تغرفان به طينًا يطين به الشق المهول. بعد قليل عادت بنت راشد وفي ردها كرب نخيل مهترئ نزعته من أقرب النخيل، دسته أم جابر في الفجوة، ثم طلتها بطين أحمر.

عادت للبيت فوجدت مسيكة تعين خفرة، سلمت عليها المشاطة معتذرة: حلة العبيد تكاد تهوي فوق رؤوسنا واتفق بعضنا أن نلجأ لأعمامنا حتى..

تدخلها الحجرة وبعد لحظات ينهمل المطر مجددًا، ثلاث ليال يغفو العقيق فيها ويصحو على برق ورعد، ولا تسير في دروبه الزلقة قدم. رابع يوم كانت أغلب السقوف تخر، وقطرات المطر الكبيرة دؤوبة في قضم حواف الأسطح وجدران الشرف. تحت المطر يتجه رجال لمجامع السيل؛ تدفعهم خشية الأسوأ إن أترعت شعابهم، يقبلون على مريفة ليتوزعوا على مجاري السيول السبعة، ولم يتعدوا كثيرًا حتى فاجأهم زبده الأبيض، عيونهم تدرس سرعة جريانه، قال بعضهم: سيأتينا السيل غدًا إن أبطأ، وابتهلوا الله أن «يمسك ماءه في سمائه هذه الليلة»!

بعد الغروب أضاء الليل وزمجر، كتمرات عذق يصرم تساقطت حبات مطر أثقل، قبل الفجر كان ماء أحمر رائب ينساب عبر ممرات بيوت آل بنيان، ارتفعت الشمس فارتفع الماء لمنتصف الساق، قبل الظهر ارتفع صوت النذير من مئذنة المسجد يردفه دوي الرصاص وتحذيرات الأبراج: السيل.. السيل.

الماء حبيب الواحة الذي تنتظره كل عام ليغسل جريدها ويملا آبارها، ضيفها الذي ترقص له يفد غاضبًا يهدر.. وجهه طيني وزمجرتة تجلب الصمم، وكان على وشك أن يظلمهم جدًا.

في عطفات أزقة آل بنيان يطارد لسان الماء الفارين من وجهه على غير هدى، تخطف النساء صغارهن ويرتقين الأسطح، يعتصم كل بيت برواشن تخر، حتى بعد أن يستجيب الله دعواتهم بأن يتوقف المطر، مع خيوط الشمس الأولى بدت البيوت في عيون الغواصين كقوارب رست تواء على الشاطئ.

بعد الظهر عادت قطعان السحب للوادي، وقبيل المغرب انفتحت أبواب السماء مجددًا، هذه المرة كان النذير القادم من جهة مريفة يلوح بعمامته: العجل.. الزموا جبل فواز.

حناجر الرجال توجه الجميع عبر المسيل صوب الجبل، وهدير السيل يخض قلب الأرض، زبده يتلوى في دروب آل بنيان، وفحيح مده في ساقاتهم. أسرع الهذاليون يحلون قيود الإبل ويشرعون حظائرها، ثم جمدت أيديهم مع وضوح صيحات صغار بني بنيان ولهات الرجال وغمغمات الأمهات الذين يتقافزون في جداولهم وبين نخيلهم مولين صوب آل فواز، منظر البشر وأنعامهم تسابقهم كان لو استبعدنا فكرة السيل أشبه باجتياح، لكن الهلع الذي أصابهم بالبيكم سرى كعدوى في الهذاليين، يلوذ الحيان بالأرض المرتفعة والماء كثور هائج يضبح في ساقاتهم، ينطح الجدران، ويبلغ من توقف لينقذ مالا أو حلالاً.

فتح الفوازيون بيوتهم، وسط الصيحات ألقى الرجال أجسادهم في قلب السيل لإنقاذ الغرقى، عمّوش أخرج ثلاثة، ورغم قوة مد الماء كان يخطف واحدهم منه ويلقيه باتجاه الأيدي المتلطفة له في سفح الجبل، رابعهم اقترب منه شافي فتعلق به، الغريق بسبب حرارة الموت بدل أن يسمح لعمّوش بجذره كتفه، غطس به عمّوش حتى تراخت قبضته، ثم ضرب ساعده فكسرها، لف يمينه حول عنق الغريق وجزه للجبل.

أبو عمّوش ضربه فرع شجرة سمر وهو يحل عقال ناقتة ثم جرفه السيل. لم يتنبه عمّوش لغياب أبيه حتى جاءه فنيس يخبره، دخل على النساء فوجد عمته أم فيحان قد شقت جيها، وقفت بملابسها الملتصقة بها من الماء تنوح وتخبر الأخريات أنها حاولت إنقاذه ولكن المد غمره بسرعة.

عمّوش واثان من عبيده جروا على السفح يتبعون الماء ولم يعودوا إلا به وقد نخر الماء البارد عظامه، يردمون جسده المرتجف بعباءاتهم، ولا يتوقف ارتعاشه حتى يبرك عليه عمّوش.

غفوة الشيخ استمرت رغم لغط الناجين الذين يحصون من بلعه السيل

وهم ينظرون، رؤوس بشر وأنعام وأطرافهم تتقلب في اللجة الصاخبة، يتناوبون سرد مشاهد ستظل تزورهم في أحلامهم سنوات بعد السيل الذي أسموه قشاش.

بعد أن يسكت الصباح في الخارج يظنون يسمعون صخب الماء، تقطعه بين لحظة وأخرى صيحة امرأة أو شهقة تكتم على عجل. بتلا وأمها قصداً روشن نفلا، وامتزجت عبرات الثلاث خوفاً على جابر وأمّه وخفرة الذين لم يصلوا الجبل. ونشيج المرأتين لا يتوقف خوفاً على جابر وأمّه وخفرة الذين لم يصلوا الجبل.

\* \* \*

جری جابر بأمه صوب وئيل، بعد خطوات سألته عن خفرة، تذكر أنه لم يرها منذ النذير الأول. توقفاً والتقت نظراتهما للحظة صمت بترتها أمه: نومها ثقيل وزاد حينما تقدمت في حملها، ربما لم تسمع. يستدير بوجهه للنخيل فيصمه صوت اصطفاق الماء وراءه، يضغط على ساعد أمه ويجري، بعد ثلاث قفزات يلمح ابن قويت، كان الحبشي يسند كهلاً سميناً ويلهث، ناداه: خذ أمي معكم.. امرأتي ورائي في البيت.

مهما بدا الجري هرباً من الماء مفزَعاً فقد تضاعف وجابر يواجهه، الغواص الذي صارع عواصف البحر سنوات عديدة لم يجرب أن يخوض الماء بأقدامه ولم يكن لماء البحرين هذا اللون الأحمر. يتفادى فرع طلحة يقذفها الماء نحوه، بكلتا يديه يدفع باب بيتهم المبتل فيندفق ماء الشارع للدخل ويوقعه. يقفز ويجري صوب حجرته فيجد خفرة في وسط الحجرة الغرقانة ترتجف جاحظة العينين، يحتضنها فترتعش وتظل تحدق في ساحة البيت مذهولة. يشد كمها ليخرجها فتنفض رأسها بقوة ولا تتحرك، يصرخ: سنغرق إن لم نخرج الآن..

تهز رأسها بعنف وتشير لبطنها: سألد.. انسكب ماء بطني قبل قليل.

- ما زلت في الشهر الخامس.. إنه الخوف من السيل. يسوق ابن صالح حججه ويعاود جذب امرأته التي لا تتحرك، وبعد لحظة تدفعه: سألد.. ألا تفهم.

يجري صوب بابهم ويغلقه في وجه موجة سيل تنسرب من كل شق، يعود فيحمل زوجته للسطح، يقعدا في الحجرة العلوية ويهبط مسرعًا ليأتي بملحف لم يغمره الماء، يعود بواحد نصف مبلول ويأزاره البحري، يجد خفرة تحوم وتتن، تعض شفيتها وتغمض مستندة للجدران، المغص بأسفل بطنها يفتك بها، يغطي في تفكيرها على السيل الذي تهدر رعوده فوقهما، تضع يديها على بطنها الذي يكاد ينشق، حركة جنينها المضطربة فيه تضغط عانتها. تقبض على ساعد جابر: أريد أُمي.. نادِها الآن.

لا يعرف ما يقوله لرفيقته، يستمهلها فتصمت لحظة، لكن سياط الألم في ظهرها تجعلها تصرخ أعجل مما توقع، كانت صيحاتها تتر كل فكرة في رأسه قبل أن تكتمل، وفي راحة بين جولتي ألم تأملت زوجها وهو يعطيها ظهره ويطل من نافذة الحجرة، لم يكن الوقت مناسبًا لكنها انتهت أنها لم تشبع من وجهه يومًا.

يعود وجعها وصيحاتها لتشويشه، والبذرة التي وضعها في رحمها ستلفظها اليوم رغم توائم أمها، تقصم صيحة جديدة ظهر رجائه، يحاول إسكاتها فتخر دمة على وجنتها المبلولة، تغرس قدميها في الحصير فتشقه، تضم فخذها ثم تطوح بإحدى ساقيها وتصيح: جاءت.. جاءت. جاءت.

كل ما سمعه ابن صالح عن الولادات لا يجهزه لهذا الموقف، لا يعرف مقدار ألم خفرة الذي يفاجئهما بعيدًا عن أي رعاية خبيرة، يلتفت بجزع لها والوجع يكورها فتقبض على بطنها بيديها، تحشو فمها بمقنعتها لتكتم

صيححاتها، تتلوى وتحبو لتهرب من إعصار بطنها. ينطقه أئينها بتطمينات لا معنى لها، يقرب وجهه فيفرغه الدم على ساقها، يسند ظهرها للجدار، ويركض كسجين بين جدران تخنقه رائحة طينها المغسول.

رجفة قوية في أفخاذ خفرة يلحقها طقطقة كصوت قماش يتشقق، ثم تشعر بجرم الوليد يندفع ضاغطاً عظام حوضها. لم يسمع جابر صرخة، يحمل الوليد المغطى بدم مخاطي، يلفه في إزاره، يقطع حبله السري، ويرجوها أن تملي عليه توجيهاتها، على صدرها رأت سكونه ولونه الكاوي ففهمت أنه ميت، تشرق بدموعها ويفرّ ابن صالح من الموت فيهبط درجتين على السلم ويقعد.

عويلها يشوشه، يتذكر وجعها الذي أحسه وهي تضغط ساعده، لونها الشاحب وشفتها المزرقه، يعود ليواسي عيونها الغارقة في مائها، يبطء يدنو مقصراً المسافة الأزلية بينهما، يرفع ذقنها ويمسح جبينها، ثم يكيان معاً.

\* \* \*

سحب لم تفرغ حملتها تماماً لونها الشفق فتدرجت حمرتها من قلوبها إلى حوافها، العقيق الغريق رافت به ظلمة الليل فأخفت عن عيون أهله تالي جبروت الماء، تنشج النساء ويلقمن الرضع أثناء باردة، ويلجم صرّام الأرواح الرجال، على الجبل تلك الليلة ظلوا يسمعون الهدير، أما الخفة التي يحمل بها السيل أعجاز النخل فيضرب بها سفح الجبل فلم يروها.

أطول ليالي العقيق استضاف فيها آل فواز الهذاليين والبنانيين، تراصت أجساد كانت تتحارب أمس ناسية ما في صدورهما حتى حين، وكل بيت في حيي آل هذال وآل بنيان بحث في جذوره عن أقرب بيت له من الفوازين ليلتحق به. شافي وأهله لزموا بيت فوازي هو أخ لأمه من الرضاع، حول



وجار مضيفهم تجف ثيابهم وتبتل ألسنتهم بالثناء عليه، سيدة البيت ترفع يدها للسماء «يا رب يا عوني!» ثم تبكي وتكرر: يا راد يوسف ليعقوب رد لنا غائبينا! لا يسأل شافي عمن فقدت حتى لا يوجعها أكثر، ويخجل حتى من سلامته وانزوائه عندها.

صباح اليوم التالي أحصيت الخسائر في البشر، وسكت أغلبهم عن خسائر الحلال، وقف عمّوش وسط مجلس وئيل محاولاً حث الرجال على وضع خطة إن استمر المطر، ثم يدنو من أبيه، رجله المصابة تقلقه، رفع عنها عباءته الصوفية فرأى الكدمة الكبيرة وفي وسطها الجرح المفري، بصعوبة تبسم في وجه أبيه: احسب لهذا الجرح يومين أو ثلاثة ويبرأ بعون الله! ستحسس موضعه لتبحث عن أثره فلا تجده.

تحت السلم الطيني يقف عمّوش، يقلقه أنه في مثل هذا الظرف لا يستطيع أن يفرد بنفلا، وجهها يرد له طمأنينته وإحساسه بأن الدنيا بخير، كلما جلس بجوارها تبخرت الهواجس، قال لها يوماً إن قرين أخيه فيحان هو بلا شك «مصعق» ألا ترين كيف يشتعل غضباً في لحظة، وكيف يتحفز لكل عراك؟!.

يتذكر عمّوش كيف مازحته الحبيبة: فمن الجني الذي تعتقد أنه قرينك؟ قال: سمير ابن الرياح.. يخطفني.. يغريني بحكاياته ونشيده فأبني قصوراً في الهواء.. وأكره ما أراه على الأرض.

قالت له: لا تكره وادي العقيق يا عمّوش، لو كرهت أرضاً كرهتك.

لا يكره عمّوش العقيق بل يكره طريقة حب الواديين له. يضع رجله على العتبة الأولى للدرج وينادي حبيبته باسمها، تظل أمها قبلها: هل من خبر عن جابر وخفرة؟ تهبط رجله للأرض ويهز رأسه نفياً رغم محاولات لسانه لتطمينها، يختفي ظل الأم وتنزل نفلا، فوق بطنها المنتفخ لا يزال يرى نهديها يقفران مطلين من فتحة صدرها كلما هبطت درجة، تسأله: بشر!

- إصابة أبي لا تبشر بخير، والمجلس مكتظ برجال العقيق و..

تقاطعه: وجابر؟ يخفض عَمَوش رأسه: سنجده إن شاء الله!

تروح بخيبتها وتسبل عليه وحشة باردة، في المجلس انزوى عند الوجار، لام نفسه لأنه لم يخبرها أنه أرسل عبيدهم وعادوا موشكين على الغرق دون أن يصلوا أول النخيل، كيف يفهمها أنه لم يُرد إحباطها. يشفق على نفسه من شعوره باليتم خلال يومين لا يراها إلا خطفًا.

بزغ نوراليوم اللاحق وقد انتشر أهل العقيق على سفح الجبل، سنابل قمح تمد قاماتها للشمس لتجففها، تستدير وجوههم في الأفق فترى رؤوس البيوت المغطّسة في الماء، وحين لا يركد الماء ضحى تضج الحشرات بصدور الرجال نشيجًا ينتشر كعدوى بينهم. بعد الظهر تحت شمس حامية سكن السيل، وقبل مغيب الشمس بدأت البيوت والنخيل تمج الطمي فيرون كيف نقب قشاش جدرانهم.

\* \* \*

مساء اليوم الثاني بعد قشاش يخرج جابر من بيته، الطين الزلق في الدروب يمتص خطواته وينهكها، أحداث الليلة الماضية نزع ما فيه من حذر، يخوض الطين باتجاه الجبل وبرودة الماء الأحمر الثخين تبكيه لسبب يجهله. قطعة اللحم اللزجة التي كان سيسميها صالحًا على اسم أبيه جاءت ميتة.

يصعد الجبل فيغرق في حزن أعمق، يقبل على وئيل فيرتفع الهاتف فيه: جابر بن صالح جاء.. جابر حي.. ويركض فنيس لحجرة عمته نفلا: أبشرك يا عمّة.. أخوك جاء حي وسالم!

تلقي له من رأس السلم خاتمها مكافأة على بشارته، وتنزل قفزًا تتبعها أمها، تخطفه نفلا من بين أيدي خالها وعمّوش وتعانقه، وأمها تمطره

بابتهاالات حمد لله دون أن تلمسه. من باب الروشن يلح صوت أم خفرة تسأل عن ابنتها.

يدخل جابر مجلس وئيل في الوقت الذي يتحفز ضيوفه لمغادرته، مجيئه رغم ما حكاه عن خطر العودة للبيوت وعما تهدم منها يشجع بعضهم. بين الصفوف التي نهضت فجأة يقف أبو عمّوش متوكئاً على عصا يرجوهم أن يرجئوا العودة إلى بيوتهم يومين آخرين: ارأفوا بأنفسكم ونسائكم وعيالكم.. ما جاءنا في اليومين الماضيين لم ير الوادي مثله منذ ثلاثين سنة..

يهمهم المسنون مؤكدين ما قاله، لكن الشباب لا يخفون معارضتهم. يدرس عمّوش الموقف ويقدم حله الوسط: رأيي أن يذهب الشباب والعبيد فيعسوا البيوت، ويجمعوا الحلال ويطمثنوا على النخيل، فإن رأوا أن المنازل آمنة لحقهم الباقون.

- الرأي السديد! تدوي الكلمة في المجلس ويخرج فتية آل هذال وآل بنيان، وتعلو أصواتهم يجمعون عبيدهم لينزلوا عن الجبل. يسابق جابر بأمه وعمته وبتلا الحشد متجهين لخفرة، ويلحقهم أبوها.

خطوات النساء العجلى تتباطأ كلما ارتفع منسوب الماء، تحذيرات جابر لم تصف لهن ربع الخراب في العقيق، يسند ابن صالح أمه وبتلا تسند أمها وأباها.

تحمد أم جابر الله أنها منعت نفلا من مرافقتهم وتعتذر لخفرة نيابة عن ابنتها، فتسمعها خفرة ما يطمثنها.

في الحجرة العلوية ترى خفرة أمها فتمد يدين واهنتين وتنشج، تتناوب النساء نعي الوليد، ولا يعرف جابر كيف يهذب مظهر الحجرة لعين خاله التي تفحصها، يلقي بالملحف على بقعة الدم الجافة ويقف بجوارها، قربه من بتلا يخيفها فتهرب ناحية أختها.

بعد أن يجف كل هذا الماء ستخبر خفرة أختها أن السيل الذي حبسها مع  
عشيرها يومًا كاملاً شفاها من ظنونها به: مذ عرفته وهو يصد عني، لكن ربي  
ردّه لي بعد الإجهاض، كان مرقده في جهة وأنا في جهة.. فسبحان مقلب  
القلوب!

\* \* \*

قبل العصر يثور غبار في مدى الرؤية شرق مريفة، يسمعون الرغاء  
فيتسابق الصبيان والعبيد لعبة وثيل، يرون الدابة الضخمة المقبلة، تستدير  
جهة الجبل محاذية مجرى السيل، دويها حجب عنهم أصوات من فيها،  
لكنهم بعد أن لمحوا شابًا يلوح بعمامته فيها عاد أعجلهم للمجلس: «فيحان  
وربعه جاءوا».

يشير عمّوش لفنيس ليجري جهة فيحان فيوقف الموتى على ضفة الماء  
حتى لا يغرق في سيل لا يعرفون عمقه، صعدوا الجبل وأحدهم يحاول  
إخفاء عرج في مشيته منذ الحادثة.

بعد لحظات كان رجال الموتى في المجلس، لم يخرسهم الخراب في  
وجه العقيق كما أحبطهم اجتماع البلدة، رأوا رجال الأحياء الثلاثة في  
مجلسهم، التفت اثنان لفيحان فتفصد عرق بارد من وجهه. كان البنياني  
يقعد بجوار الهذالي بخواطر صافية، وقد أطفأ ماء السماء ما حرص على  
إضرامه أكثر برميهم للجيفة في بئر بني بنيان، خليط المشاعر المضطربة في  
صدره تتوحد في صورة هلع حين يرى إصابة والده، يعانقه ويبكي: باسم الله  
عليك يا والدي! ليتها في جنبي لا فيك يا أبي. يربت الأب على رأسه وينزعه  
عمّوش رافعًا إياه بساعده: ما فيه إلا العافية! ثم يدفع فيحان وهو يهمس في  
أذنه: لا تكسر عزيمة.

يقعد حيث وضعه أخوه وتظل عينه على أبيه، يختلس نظرة مستفهمة لعمّوش فيختصر الكبير الحكاية: كاد السيل أن يجرفه ولكن الله سلّم.

يصد عمّوش ويصرف الأنظار عن أخيه الموشك على البكاء بسؤال لصاحبه: ما بال رجلك؟ وانقضت كل الأعين في المجلس على رجل الأعرج، يطويها تحته ويلتفت لصاحبيه. كان الثلاثة قد اتفقوا على أن يقولوا أنه سقط عن ظهر الموتور وهم يجربونه، لكن السؤال حين طرح فجأة بلبل ألسنتهم، وجه فيحان المحتقن شحب في لحظة فرفع صوته بالحجة عن المصاب.

يسأله أحد الهذليين عن أخبار الرياض، وتظل أعين بعض بني بنيان تنتظر ساق المصاب لتمتد فتؤكد أو تنفى ما ظن بعضهم أنهم رأوه.

فيحان يجيب وعينه على أبيه الذي يحرك ساقه ويثن بين وقت وآخر، يتهدج صوته وهو يردد: الرياض.. الرياض..

ينوب عنه صاحبه بتصريح أَرْضَى أغلب المستمعين: «الرياض رياض الفلس» بعد هذه الجملة وعدهم الفوزي بحكاية، ثم التفت لفيحان: حكاية القصيمي.. تحكيها أو أحكيها أنا؟ أو ما ابن الشيخ برأسه وهو يبتسم فأكمل المتحدث: وصلنا الرياض في ليل.. ورقدنا في البطحاء (شرق قصر ابن سعود)

يصحح مسن هذالي: غربه.

بتردد أكمل صاحب الحكاية دون أن يلتفت لمقاطعه: يا رجل البطحاء شرق القصر. سمع صوتًا يحثه على أن يكمل، تنحنح وقال: وسرحنا من الصباح نبحث عن حاجتنا (الموتر) وبعد أن تعشينا في قصر ثليم.

قاطعه المسن مجددًا: أ رأيت أنك ضائع.. قصر ابن سعود اسمه خريمس.

بانتشاء من سيضرب غريمًا ضربة قاضية قال: قصر خريمس غدا مع الغادين، العشاء الآن كل ليلة في ثليم..

المسن همزه ولده ليسكت، ورفع صاحب فيحان صوته: فإن تعشيننا رجعنا لبطحاء يتوافد عليها كل مسافر، ولكل قوم جهتهم المعروفة (يتفقد بعضهم بعضاً من كد يوم طويل) ها ثالث ليلة جئنا موضعنا فوجدنا قصيميًا يفترش الأرض ليرقد في محل فيحان، نهفته أنا وأخي ذا، وقلنا: محل أخينا! وبدل أن يغير مكانه لعل صوته «ذي بطحاء ابن سعود».. متى اشترىتموها؟!

أسمع جماعة المجلس أرهفت بعد أن تأزمت الحكاية، سكت حتى صوت شرب القهوة وأكمل الشاب: تشاورت مع صاحبي فقال لي «الرجل ذا يحتاج علاجًا» فضربت صدري وقلت «علاجه عندي»

سكت الراوي وعينه تطوف على الحاضرين فاستحثوه: اسلم.

- استلقيت ملاصقاً للقصيمي فانتفض ونظر لي.. وطلب مني أن أبعد قليلاً.. باغته «هاه؟ بطحاء ابن سعود»

ضج من في المجلس بالضحك: وبعد؟

- القصيمي عرف كلمته فسكت، وخشيت أنا وصاحبي هذا أن يأتي فيحان قبل أن يتزحزح الرجل من مكانه فخلعت ثوبي، والتصقت به، والله إن رائحة خوفه للآن في رأسي.. صاحبي هذا صد، أما القصيمي فصاح «تنام كذا؟!؟» قلت له «لا أنام إلا كذا.. ولا عليك مني!»

- أخاف أن تنقلب علي!

- ما دمت يقظاً فلن أفعل.. أما إن نمت فوالله إن نومي سيء.

بين قهقهات الرجال وصف لهم الآخر القصيمي وهو يهرب، والعاري يصرخ بفخر «عالجته»

أحداث العقيق في غياب فيحان حشت بها الألسن رأسه في ساعة، وستلزمه أسابيع ليستوعب ما حصل ويتجرع خيبته بانتهاء الحرب. مع غياب الشمس عاد فتية الحيين بعلومهم: السيل أفسد الكثير، وأهلك الكثير.. لكن إن أمسك الله ماءه في سمائه يوماً آخر استطعنا العودة إلى بيوتنا. حين سكنت سيرة السيل سألوها فيحان عن الرياض: أمطر عليكم هناك؟

لم يفهم البنياني الذي طرح السؤال لماذا بدا كأن فيحان يتذكر حدثاً قديماً، لكن مصعق كان يوقد صدر عقيد حرب آل فواز «يسألك في مجلسك ولولا هذا السيل لكنت وإياه تتواجهان برمحيكما الآن» قال فيحان: ثاني يوم.. هاه؟ (والفتت لصاحبيه مستعيناً بذاكرتهما) بل أظنه ثالث يوم رش مطر خفيف ونحن في الدرب للقصر بعد أن اشترينا الموتور.

- ألم يأتكم الذي جاءنا هنا؟

- لا.. خفيف.. كان خفيفاً جداً، أتذكر أنني بعد أن أحسست بنقطتين على وجهي بسطت يدي لأتأكد، ولم يتبته صاحباي حتى قلت لهما إنها تمطر!

نصب صاحبه ساقه ليضيف ملاحظته: «والله يا جماعة إن مطر الرياض ما له ريحة»

أوماً كل هرم زار الرياض من قبل برأسه موافقاً، وعاد الشباب يسألون الفوازي عن الموتور، ويستعيدونه كل تفصيل عن قيمته وإمكانية قيادته، وكم يحتاج من رجل لذلك. يراوغ سائليه وهو يرى صاحبه الأعرج يخرج من المجلس، بعد لحظات يلحقه.

عند الباب يسمع همهمات بين رجلين من آل بنيان قطعها حين انتبها له، يغادر ويقفان على آثار خطاه في الدرب، يقول أكبرهما: والله إن الأعرج

حين مد كراعاه في المجلس عرفت أثره.. وانظر لأثر فيحان.. في رقبتى إنه كان معه..

- أمتأكد أنهم أصحاب الجيفة؟

- مثلما أنا متأكد أنى أراك، وإن جاد ظنى فثالثهما في الموترو هو صاحبهما تلك الليلة.. قلت لكم من ليلتها إن آثار الرجال حول البئر لا تشبه أيًا من آثار آل هذال التي رأيتها بعد غاراتنا.

قبل الفجر كان الخبر قد سرى تحت رماد وجوه البنيانيين الواجمة، وقبل قهوة الصبح كانوا بعيالهم ونسائهم ينزلون السفح دون كلمة.

كان خروج البنيانيين الصامت مريبًا للرجال في مجلس وئيل، بعد أن توقفت محاولات عمّوش والهدالين لردهم ساد صمت مقلق. اسودّ وجه تاجر بني فواز ووجه أبيه، تتحسس أصابع الشيخ مشدودة الجلد موضع إصابته المتقيح، ويزيد عمّوش الحطب في الوجار.

تظاهر رجال آل هذال بأن شيئًا لم يحصل حتى لا يخرجوا مضيفيهم، لكنهم ظلوا في حركة غير ملحوظة يخرجون من المجلس للأرض الفضاء خارجه، كلما دخلت زمرة خرجت أخرى، ظلوا يبحثون عن تفسير لسلوك آل بنيان، قال بعضهم: لعل كلمة أو موقفًا من القصر أزعجهم ولن يستطيعوا الرد وهم ضيوف.

محاولة التفسير الأولى لحقتها أخريات حتى حطت ألسنتهم على هذا الخاطر: عدة أيام معنا في قصر وئيل لم تنسهم ما كنا فيه، السيل لم يجرف ما في خواطرهم.. ربما ذهبوا لينهبوا بيوتنا أو يخربوا آبارنا. بعد الظهر كان آل هذال قد لحقوا بالبنيانيين مغادرين القصر، وكانت محاولات عمّوش لشئهم أقل حين أخبره جابر بهواجسهم.



نهار قضاء فيحان عند مركبته، والفضول يدفع أهل العقيق جماعات نحوها، كلما اشبعت جماعة رغبتها في لمس الموتر والسؤال عنه تلتها أخرى، ثالث فوج تتأمله أمه وعمته الأرملة، بأنفاس مبهورة تلمس العمة جسد السيارة، وتتحسس أمه العين الزجاجية الباردة على جانب وجه الموتر المفلطح، تضع يدها على جسده البارد: ذا «المتر»؟ ببطء تنهجا المرأة الاسم، وفيحان يضحك بفخر ويصحح لأمه الكلمة. يعدد لها الأجزاء التي يعرف بأسمائها وبخبث ينصحها ألا تسجد تحت الموتر لتعرف جنسه فقد فعلها بعدهم فنیس دون جدوى.

يقبل عمّوش فيضيء وجه عقيد حرب آل فواز، وكفارس ظفر في معركته الأهم يرفع ساقه اليمنى ليضعها على ذقن الموتر، ولقصر قامته كانت المهمة صعبة لكنه أصر على إنجازها. يسأله عمّوش عمن قاد الموتر من الرياض؟ وكم استغرقت رحلتهم؟ وإن كان قد تزود بوقود يكفي لمشوار طويل؟

يجيب فيحان بحرص على الأسئلة، لكن شرود أخيه سرعان ما يجبطه، ثم يروي له عمّوش ما حصل من آل بنيان: خرجوا هكذا.. لا سلام ولا كلام.. لا أريد أن أغضب من فعلتهم وأخشى أن يكون أحد رجالنا قد أساء إليهم دون أن أدري.

يخفض فيحان ساقه ويستدير خلف الموتر، يتحدث مع أخيه مطالاً عليه من نافذة قمرتها: استضيفناهم وأكرمناهم ورجعوا لحيهم.. يتحدث ويعلو صوته وهو يصفق بيديه نافضاً آل بنيان كلهم.

يغادره عمّوش وتتجمع نساء آل فواز حول الموتر، عادت الأم الفخورة تقودهن لتريهن أعجوبة ابنها، بعد لحظتين يتخلين عن تحفظهن أمامه ويتكدسن في حوض الموتر الكبير، يتخلين رحلة يقمن بها فيه ويختلفن في الوجهة حتى تقترح إحداهن: مكة! نذهب للحج.. ما فينا من حجت سوى أم عمّوش.

سيرة زوجة الشيخ الأخرى تغيط أم فيحان حين تذكر مقرونة بهذا التفرد، تضرب بيدها جنب الموتر ثم تمسح عظمتي وجنتيها فذقتها: «لك وجهي أن يأخذنا فيحان للحج ذا الموسم» يشرق وجه المرأة التي حلفت لها أم فيحان وتمتت الأخباريات بالدعاء له.

بشكل غامض يعي الفوازي مسار الحديث في ظهر المركبة، لكنه مشغول بأمرين مزعجين: الحرب التي يبدو أنها انتهت، وموقف أخيه الذي لم يتتهج كما يبدو بالموتر. نساء الحوض يختبرن بعضهن بعضاً فيما حفظن من أدعية، وحين يكون الحصاد شحيحاً تطمئنهن العمة الأرملة بأن بإمكانهن تتبع جموع الحجاج ونسج كل دعوة تلتقطها آذانهن في ابتهالاتهن.

يرفعن بعد برهة الشراع المسدل على الحوض، ينادين فيحان ليسألنه إن كان سيأخذهن للحج كما وعدت أمه. فيحان كرجال الوادي يرى الحج فرض كفاية، خرج أبوه وجده قبل سنين في الدرب الطويل، وعادا يرددان بعد إنهاء المهمة: «من عادك يا مكة مُكِّي عينه»

يسمع أنفاسهن المتحفزة ويتذكر عمّوشاً «سيغيظه أن آخذ الفوازين لمكة بدل أن أذهب بالموتر لليمن» خفق قلبه بعنف حين حاول تخيل رد فعل التاجر. ييلع ريقه وهو يرقب خيال صاحبه الجريح مقبلاً، ما زال يعرج من بعد رصاصة البنيانين، لكن مشيته كل يوم تتحسن، أم فيحان حين أحبطها تردد ولدها نهزت السائلة: أما قلت لكن سيذهب بنا للحج؟

صاحب فيحان قال نيابة عنه: أبشري يا أم فيحان.. طلبك أمر.. سنذهب ذا السنة إن شاء الله.. والآن ما رأيكن لو نأخذكن في جولة بالموتر؟

تمتم فيحان بما يؤيد كلام صاحبه، وصدت أمه التي ستعذله طويلاً لأنه سمح للآخر بأن يتحدث وكأنه صاحب الموتر: ثم تركته يركب معك.. غداً تقول الفوازيات إن الموتر شراكة بينكما.

علت بالبهجة أصوات الفوازيات، ثم احتفى صراع طريف لحجز المواقع في رحلة الحج، تسرد بعضهن أسماء قريبات غائبات ليرافقنها، وتحارب أخريات لحذف بعض الأسماء من القوائم: هذه حامل.. إن لم تلد قبل ذهابنا فستلد في الطريق، وتلك وراءها صغار لن تجد من يرعاهم.

خبط رفيق فيحان جنب الموتر ليسكتهن، وبسبب جادة قال: من منكن لم يُتم لها أهلها؟

تلفتن وتعالى لغظهن؛ من قد تعرف عن عقيقة ذُبحت لولادتها؟ بعد لحظة نطقت إحداهن: وما يدرينا؟

طرح المشكلة عليهن: من لم يتم لها أهلها فلا حج لها قبل أن تذبح عقيقتها. يقولها فيبدو مأزقهن بلا حل، وحين شوت الحيرة كبودهن رمى حله ببساطة: نتم لكن ونحن في الطريق.

أم فيحان رمته بنظرة حادة ثم حذرتهم بأنه يخدعهن. تبادلن حججًا مدغمة تحت المقانع، وظلت هي تزفر بفراغ صبر، سألنها: أهلك تممو لك؟

هزت رأسها إيجابًا فانحسم أمرهن، وبدأن يساومنه على ثمن العقيقة عن كل واحدة منهن. يحسب الرجل في ذهنه ما قد يجمعه من نقود وينظر لأم فيحان ممازحًا: وأنت يا عمة كم ستدفعين؟ حتى وإن تم لك أهلك فلعلها تكون صدقة عن والدك.

- معي ذا (وأشارت له بإصبعها الأوسط) فخفض طرف الشراع وانصرف. عادت النساء بقوائم الحاجات التي لم تثبت بعد، وفجأة زمجرت راحلتهم المهولة، نصفهن انبطحن حاميات رؤوسهن بأكفهن، والباقيات قبضن على أي ثابت تطوله أيديهن: قضبان الحديد المقوسة تحت الشراع

المغبر، أو أجساد رفيقاتهن، أعينهن المفتوحة وسعها تتلفت فيما حولها وعلى شفاههن ضحكات قصيرة متقطعة.

هدير الموتور يقتل كل فرصة لسماع كلمة، فيحان يحاذي به السيل، بعد مسافة ليست طويلة ظل أكثر الجمع في الحوض مغمضات العيون، يرتعش الشراع المسدل على الحوض، ويرتفع طرفه كلما هوى، فتقنص نواظرهن الماء والشجر، بدأت أيدي بعضهن تضغط أكبادًا مضطربة، تقيأت ثلاث عصارة أمعائهن، وبدأن يضرين جنب الموتور ليقف فيحان.

\* \* \*

صوت فيحان يملأ المدى أمام القصر، يملئ توجيهاته على عبيد لا يستجيبون له بالسرعة التي يأملها. الموتور غرّز في الطين حين أراد أن يقطع به السيل، صيحات الشاب تخرج أخاه عمّوشًا من مجلسهم، على عتبته العالية يقف، يفحص دون كلمة الموتور وأخاه الذي يقود عبيدًا ليخوض سيلًا وقف أمس، يدرس المنظر بصمت، يركب فيحان الموتور ويملي توجيهات متعارضة بدفع الموتور للأمام تارة وللخلف تارة، وعجلات المركبة تدور فتقذف الطين في الوجوه حولها، ومع كل الدفع والجذب ينغرس وجه الموتور في الطين، يقف فنيس بجوار عمّوش، يريح كفيه على رأس عصا معه ويتأمل المشهد لحظات كسيده، يزفر وبجدية لا تقل عن جدية التاجر يقول: المتر ذا - يا عم - كأنه بعيرنا سمحان.. إن ورد الماء فلن يرفع رأسه مهما نخسته.

يرسله عمّوش لفيحان ليناديه، ويرتد للمجلس، وبعد لحظات سمعوا خشخشة ثياب فيحان المثقلة بالماء والطين، كمن يرسف في قيد يدنو من الرجلين فيبادره عمّوش: دع الموتور حتى لا تحرق قلبه بمحاولة إخراجه.. غدا تسطع شمسنا التي تعرف حرارتها ويجف هذا الماء ونقرّبه من وثيل.

يخرج عَمّوش ويظل فيحان مع أبيه يتبادلان أخبار العقيق والرياض، ترك للأب إدارة الحديث وظل يحوم حول الشكوى من عَمّوش الذي لم يفرح بالموتر، ولم يساعده في إخراجه من السيل: كأنه لم يفرح به، أو أنه يتمنى لو يغرق ليقول إنني لم أحسن اختياره ولم أعرف كيف أقوده!

يثن الشيخ من رجله فيقطع تذر ابنه، يقفز فيحان ليفحص جرح والده، يرفع طرف ثوبه ويتخوف: جرحك ذا غريب يا والدي.

يضفي الشيخ عباءته على جسده: اسمع يا ولدي.. أظن إن الوقت آن لتزوجك.

يضحك فيحان: موتر وامرأة ستصيبني أعين الفوازين بسوء.

يكمل الوالد كلامه دون أن يتوقف عند ممانعة ولده المبتهجة: يبقى عليك أن تختار مع أمك المرأة التي تريدها لنخطبها..

- فرجة. بلا تردد ذكر اسم المرأة التي يريدّها، أمال الشيخ رأسه جهة اليسار وضيق عينه: «فرجة؟ من هي عليه؟»

- ليست فوازية.. هي الفحلة التي حكيت لي قبل قليل عن فعلها في آخر غارة بين أهلها وآل بنيان.

وفي حي آل هذال كانت الكلمة الأولى على لسان فرجة: «فيحان؟! لا أنا ولا هو» رافضة مجرد التفكير في طلبه، لكن أمها لم تفقد الأمل في إقناعها: يا بنتي فيحان ولد شيخ، وعقيد حرب آل فواز، وأهله خيرهم كثير «يطبخون ذي في مرقّة ذي» تنطقها وكفوفها ترمي ذبيحة ثقيلة في قدور وثيل المتخيلة.

أرسلت فرجة مندوبًا ينادي نفلا، وظلت بين النخيل تنتظرها، تهبط بنت صالح سفح جبل فواز فتحيتها نخيل حياها بجريدها وتلقاها الجداول برائحة الخضرة فيها .

تخشى بنت صالح الحنين الذي يتعاضم في صدرها للحي، كل هذه المدة في وئيل لم تستطع أن تحب غير حجرة، ولم يعد حب الحجرة كافيًا كيوم دخلتها، سيل عشقها الجارف ركد ماؤه وتغير طعمه. ركلة من جنينها أعادتها لما حولها فإذا بخيال بنت راشد يستقبلها، ترفع فرجة صوتها: أمك غدت تسميني ذا نون لكثرة ما أقف بالنخيل كل صبح أنتظر. تسند نفلاء بيدها أسفل بطنها الذي يرتج من الضحك، تستطيع أن تفهم وجه الشبه بين صاحبها والطروث الصحراوي الذي ينبت منتصبًا وسط الرمل غريبًا في لونه ومكانه وثابتًا جدًا. تقول لفرجة : في رقبتي إن هذه الكلمة لم تخرج من فم أمي .

- مادمت أقسمت فوالله إن أم جابر لم تقلها لكني أعرف أنها في خاطرها وهي تراني لعدة أيام أترقبك هنا.

- عدة أيام؟! ولماذا لم تأتيني هناك ؟ (وأشارت للأعلى) أو تبعني من يناديني؟

غيمة خجل صغيرة غشت بنت راشد فأحنت رأسها وسكنت. ضمتها نفلاء لصدرها: خطبة؟! من؟ ومتى؟ فأشارت فرجة إشارة نفلا ذاتها للجبل. جسد فرجة الذي لم يقاوم أيدي صاحبها وهي تجذبه استسلم أيضًا وهي تبعده بعنف: فيحان؟!

ضحكت فرجة وقالت: قلت لأمي أنا آخذ الجبعة؟ فغرزت أصابعها في التراب وحشته في وجهي.. قالت « هو شيخ وابن شيخ »

تسكت فرجة فتدرك بنت صالح أنها تريد رأيها، تمدحه بنت صالح بما

فيه وتبدي تحفظًا قليلًا، وتقبل عليهما أم فرجة: يا بتي يا نفلا قولي لها ما يلين رأسها اليابس.

تحتج فرجة: أطلال الله عمرك! أنت لم تريه.. الرجل طوله فتر، ووجهه كأنه قدوم.

نفلا تضحك من تشبيه وجه حماها بالفأس، وتخرسها نظرة الأم التي تواصل إقناع فرجة: ما عليك من وجهه.. أغمضي عينيك إذا أقبل.

– ما علي من وجهه؟! «من شين الله وجهه شان طبعه»

أما جرّت نفلا للمشاركة رغماً عنها: ها هي ذي رفيقتك بنت صالح مع أخيه وسعيدة.

أطلقت فرجة زفرة قصيرة: ليت فيحان مثله.. لو كان مثله ما ترددت لحظة.

استلّت الأم من غمد أوجاعها اسم الأب الميت، تنهمر دموعها وتنشق: «أبوك راح ولم يحضر عرسك، ووالله لو تركت على هواك لتجعليني الحق به وأنت مقيمة»

فرجة تدير رأسها في الفضاء وتكرر: فيحان؟ فيحان؟! (كأنها تتدرب على نطق اسمه عسيرًا) وبعد لحظتين تنفض رأسها وتلتفت لأماها: «لا، إن شاء الله» لكن الله شاء فوافقت وتزوجت الفوازي الذي فضّلها على نساء الجبل.

بين جنبات وئيل دوى الصياح: الموتري يحترق.

يجري عمّوش وفيحان بين عبيدهم، ويتحامل أبوهما على ألمه ويخرج من مجلسه الذي لزمه منذ قشاش، اللهب يتراقص فيما بقي من شراع المركبة وجلد مقعدها. يصبون ماء السيل الراكد عليها، وتأخذ وقتًا أقل مما توقع عمّوش حتى انطفأت.

على باب وئيل يسأل أبو عمّوش فيحان: الموتري سالم؟

أم فيحان من وراء رجلها تنتقد عمّوشًا الذي أشار بترك موتر ولدها بعيدًا عن القصر: «كأن هذا ما كان يريد» وأم عمّوش بجوارها تحوقل والعمة تتوسطهما: دبرة الله!

تسمع نفلا اللغط وهي في وسط السلم، تشجعها كلمة عاقلة فتبهط خطوة، وتخيفها أخرى طائشة فترجع خطوة، وبعد لحظات عاد لها تقززها من مشاحنات وئيل التي لا تنتهي.

دخل عمّوش الروشن بثياب ملطخة بطين وسخام وشمّت رائحة الحريق، تؤجل نصائحها للصباح، وتشفق عليه حين يظل يتقلب ليله كله، وزفرائه لا تنقطع.

قبل الفجر التفتت إليه: عمّوش أقول لك كلمة؟

أنفاسه اللاهثة تنتظم فجأة ويتظاهر بالنوم، تلتصق به فيركلها الجنين في بطنها ركلة تثق بأن عمّوش أحسها، لكنه يظل على صمته، تقول له: «يا زارع في غير بلده لا له ولا لولده» .. عمتك تضبح منذ جاء النذير.. تقول إن الحريق غلطتك، وبعد يومين ستقول إنك ابتليت ولدها بهذا الموتري.

يسحب جسده بعيدًا عنها، ودون أن يلتفت يقطع كلماته ببطء لتعيها:



فيحان أخي، لو سمعنا كلامها لانقطعت كل الأواصر بيني وبينه من سنين ..  
أما أنت فلا أريد أن تنطقي بعد اليوم بكلمة فيه.

دافع نصيحتها كان تحسراً على جهده الضائع، غير أنها بعد رده لم تعد  
تخشى إلا النكد الذي ستصبه أم فيحان على رأسها.

فجر اليوم التالي وقف عمّوش على الموتر ليرى في النور حجم الخسارة،  
يدور حول المركبة، ثم يتأمل الآثار التي أفسدها الماء وطوافه هو وأخوه  
وعبيدهم حول الحريق ليلة البارحة، يخطو خارج محيط آثارهم ومائهم  
فيلحظ خيط الخطوات القادمة من طرف المسيل.

يأتيه فيحان، يضرب جنب الموتر بغضب: شاربى هذا ليس على رجل إن  
لم أحرق من حرق موتري.

يقرب منه أخوه حتى يلتصق به، يتراجع فيحان ضاغطاً جسده على  
الموتر، بصوت خفيض يسأله عمّوش: أنت صاحب حمار بئر هادي؟

احمرت عينا فيحان: أي حمار وأي بئر؟

وجه عمّوش الخالي من أي تعبير يخيف أخاه: حمار؟ تحاربهم بحمار  
يا حمار؟! أرايت كيف تصرف الرجال؟! خرجوا دون كلمة وأخذوا حقهم  
بأيديهم.. كان يجب أن أعرف حين هربت من العقيق.

بصوت رتيب وكلام متمهل يخنقه عمّوش: أصبحت تريد أن تهتم  
بالتجارة، وتريد أن تشتري الموتر!

يبتعد عمّوش مقسماً ألا يسمح له بأن يذهب بتجارتهم، يستجمع المتهم  
ما يدرأ به قصف أخيه، يتهدج صوته: أنا عقيد الحرب.. لم أرد تجارتكم..  
أنت مثل أبيك تريد إقحامي فيها لتسخرها مني.

يلمح عَمَوش عبداً مقبلاً فيدنو من فيحان: عقيد الحرب يواجه الرجال لا  
يتسلل بين بيوتهم كلص في الليل.. والله لو أن آل بنيان البارحة أمسكوا بك  
وقطعوا أنفك ما كنت لأخذ بئارك منهم.. والله لو سمعت في الجبل كلمة  
مما قلته لك الآن لتزعت لسانك من حلقك.

\* \* \*

## (8)

تهدمت الأسوار التي أقامها بنو بنيان بينهم وبين الهذليين، ومن بين أبراجهم اختار السيل البرج الذي كان شافي يلزمه، يقول شافي لجمعان: تدبير ربك.. كأنه يريد أن يقول لي لا تعد لهذه الحرب.

تقف أم شافي بباب حجرة التمر تصفق يداً بيد، فجوات في سقف الحجرة يدخل فيها الصبي كفه، نصف مخزونهم من التمر غرق، وسيقضون شهوياً حتى الموسم القادم بلا تمر، كما أن السيل راح يبعث شياهم. تصمد مخاوفها أمام مساعي جمعان لتهدئتها، فهو يعرف مثلها أن التمر واللبن عماد حياتهم.

شافي يمتص قلق الأم بتذكيرها بحال بقية بيوت الحي: احمدي ربك، غيرك انهدمت بيوتهم، وغيرك انقعدت نخيلهم، وغيرك لم يترك السيل لهم شاة ولا ناقة، حتى شيخنا جرف الماء شق بيته وثلاثاً من إبله.

شيء في نفوس البشر يطفف ثقل مصائبهم إن قورنت بغيرها، فرغم أن أم شافي لا تمنى سوءاً لأي بيت في العقيق إلا أن كلام ولدها جبر كسر خاطرها. تنشط في محيط بيتها ونخيلها، وتزور جيرانها لتشد أزهرهم بذات الحجة التي شفاها بها وحيدها.

تكفل شطر نهارها يردها للقلق؛ فقد رأت الجيران يرممون الجدران والأسقف بلا غناء، ويحسبون على أصابعهم المتبقي من الأيام والأشهر حتى القيط القادم، ومرت بالنخيل الذي لم تعد فيه حظيرة ولا عشة.

خسائر آل هذال كانت أخف قليلاً، حتى عدد البيوت التي سقطت كانت أقل، أما حلة العبيد فقد غدت كقطعة لحم مضغت ولفظت، جدرانها القصيرة التصقت ببعضها بعضاً وسجدت على الأرض. لو أن قشاشاً أتاها قبل ثلاث سنين لنهض مردود موسم غوص واحد بعزائم الرجال، ولو أنه تأخر لأول القبط لكان رجاء الصرام سيصبرهم، أشغلتهم الحرب فلم يجلبوا أصدافاً لبخور نسائهم، ولن ترويهما النساء بالطيب فتشكل في حجراتهن غيوم عطرة تحجب مخاوفهن وترفع همم رجالهن.

اليوم يرصد العقيق الخراب الذي خلفه قشاش بقلق، يتهامس الغواصون باسم البحرين بإحباط، والحرب التي جرفها السيل لا يثق أحد إن كانت تتحضر في الخفاء لجولة أخرى.

يقلّب جابر في رأسه خياراته القليلة، فمردود الغوص الشحيح من العام الماضي لن يسمح لبيته بالصمود، وعبيده يتهربون من نخيله لخدمة آخرين، ويعذرهم فليس لديه ما يسكت به جوع عيالهم.

في نخيله يعدّل أحواضها المتثلثة، ويتلهف على ما انقعر منها. يتحسس براحتة المتشققة كرب المقفزية، يبكي وهو يقطع الجريد الأخضر من هامتها التي هوت، يقرر أنه لن يسقف عشته الجديدة إلا بجريدها، ويقترح عليه جارهم أبو هليله أن يركز جذعها في حافة العشة: سائبته لك فتستند عليه كأن لم يتغير شيء.

يمسح ابن صالح دمة بطرف عمامته: تغير كل شيء.

يجفف عبراته بعد مغادرة الصانع حتى لا يرجع بآثاره لأمه، ينهض من محله يأتيه أحد رفاق الغوص. بدا من سلام ضيفه الشارد أن لديه ما يقوله، بعد لحظات سأل الزائر جابراً: ألك نية؟

- لا أحد في الحي عنده اليوم نية.

- «من كتب عليه الله الدرب لازم يظهر».

أم جابر تلحظ شرود ولدها، كلما تقلصت عضلة في وجهه الصامت احترق قلبها، تخشى حنين الغواص لمفارقة الرمل، ولكن زادها القليل من العواطف لا يوازى معرفتها، ولا يكفي لأن تضم ولدها لصدرها لتثنيه عن خروج غير مأمون، أو تريحه من تفكير مرهق في رزق الغد. تنفرد بخفرة فتمليها طلباتها معتبرة أنهما تنفقان فيها: اقعدي معه.. خذي مما في خاطره قليلاً.. قولي له سيرزقنا الله فلا حاجة لأن تذهب، الخواطر لم تهدأ بعد.. قولي له إن أمك تقلق عليك وأنت وحيدها فلا تذهب.

اقتراحات العمة تنتقل لمرتبة التوصيات الملزمة، وتتضايق خفرة دون أن تستطيع تحديد ما أزعجها بالضبط، لا تدرك أن أم جابر لا تشركها في هم حتى تعيينها الحيلة فتجرها في صفها.

يأتي جابر فيحوم لسانها محاولاً تمرير وصية عمتها، تلحظ ذهنه المشغول والرقعة الطارئة فتحجم، لم تعدد اللحظات الصافية بينهما فتشفق على نفسها من أن تفسدها.

يصيب أم جابر الإحباط حين لا ترى في وجهه ما يوحي بأن امرأته حدثته، تسأل ابنها فلا يفصح عن نية، تخوفه نوايا آل بنيان فيصمت. ابنها الغواص وهبه الله النفس الطويل لكنه لم يطلق لسانه، قبل رأسها ووعداها ألا يذهب.

- أظهر لي وجهك.

يمسح يمينه عارضيه ويقسم مشيراً باتجاه المسيل: لك وجهي ألا أخرج من هنا.. وكي لا تنتبه لخدعته يكمل: الغوص انتهى، وطالبو الرزق صاروا يتجهون للرياض يا أم جابر.. أما رأيت موتر عمّوش وأخيه؟!

مسيكة تسقي نفلا مخاوف الأم، فتزور أخاها في النخيل، يقبل رأسها

وتقبّل جبينه، وفي يده تدس زميمها وحجلها، يفردّها أمامه ويترمد وجهه:  
نفلا..

تغلق فمه براحتها وتسكته برجائها: لا ترد عطيتي.. متى ما فرّجها الله  
عليك هات لي عوض هذه، تضحك وتضيف: «الله الله في أثقل منها»  
يخفض رأسه وأخته تتهادى في الدرب الذي جاءت منه صوب وثيل،  
تحسر إذ غابت قبل أن يمازحها كالعادة بشأن جنينها، ودون أن يتوعدها إن  
أشبه المولود آل عمّوش.

\* \* \*

هل تتذكر الدروب ما يعبرها من ناس ونشيد؟ في درب ظعن نفلا سار  
ظعن فرجة بنت راشد، وفي النخيل التي دخلتها خفرة عروسًا خرجت مع  
بنت عمّتها، قعدتا تحت عشة تم تجديدها تنتظران فرجة، عرسها الوشيك  
يغري خفرة لتتحسر على ظروف زواجها، تعتذر لنفسها عن عرس تخجلها  
بدايته المرتبكة: يا حياة الشقاء! صغيرة.. أغبى مني أهلي حين زوجوني..  
نادتني أمي وأنا ألعّب مع البنيات، لبستني ثوبًا جديدًا.. وأفلحنا.

فرجة تحرص على أن تسمع من غيرها، تسأل نفلا التي لم تحدث امرأة  
قبلها عن عشير عاملها كضيفة أثيرة ثلاث ليال سويًا، يمنعها الحياء أن  
تخبرها عن جسدها الذي عرفته معه وأحبته معه. تركت بنت صالح الشابتين  
تتخرسان أحداث ليلتها الأولى وتكتفي بابتسامة تحنهن على الاستمرار،  
وحين تصمتان تشير بأصابعها لتعطيها سرًا.

- ليلة عرسني نقلتني أمي ونسوتها لقصر وثيل، أجلسني أمي على  
الفرّاش والتفتت لتغادر، كان عمّوش قد قعد، شددت كمها فقعدت بجانبني  
لاهثة، قلت لها ستذهبن؟ استرقت نظرة لعمّوش وأشارت برأسها، فبحث

لها بتعجبي «ستذهبين دون أن تهمني في أذني بكلمة؟» ارتبكت أمي..  
بلعت ريقها بصوت مسموع ثم قربت شفيتها من أذني..

تحمست فرجة: وماذا قالت؟

صفقت نفلا كفًا بكف وعلامات التعجب ليلة العرس مرسومة على  
وجهها: قالت ودعناكم الله!

تفهقه خفرة، وتخبط فرجة براحتها الأرض: ههههه.. وراحت؟!

- راحت!

ضمت خفرة مأخذًا آخر على تصرف أهلها ليلة عرسها: أمي أيضًا لم  
تهمس في أذني بكلمة!

استدارت لها نفلا: عجيب.. حسبت أن كل الأمهات يوصين بناتهن.

نهضت فرجة: سأذهب لأمي أطلب منها أن تعطيني ما لديها من نصائح  
قبل أن يبلبل الطيب ومرأى الجبعة لسانها.

تموت نفلا وخفرة من الضحك وهن يحاولن أن يصدقن أن فيحان  
سيربك أرملة راشد، ثم تصدمن فرجة بصورة أخرى لا تصدق: وحتى لو  
لم تنس العجوز النصائح تلك الليلة فأنا سيصيني الصمم من الخجل ولن  
أسمع كلمة.

تغادر وخفرة تستتيبها من ادعاء الخجل، ونفلا تتحسر على فرصة  
ضاعت لتحذيرها من قصر وثيل، تشفق عليها أن تواجه ما لقيته هي فيه.  
تطمئن بنت صالح نفسها بأنها قد تعهدت أمام أم فرجة بأن تعين العروس  
على كيد نساءه، رغم أنها تود لو تنهى صاحبتهما عن دخوله.

في الصباح التالي افتعلت عمتها أم فيحان مشكلة بترت كل سبيل  
للنصيحة التي ترتبها لصاحبتهما، كان القصر بلا أي توتر منذ أيام وهذا ما لا

تحتمله العمة، فبدأت تشيع في حديث استعدادها لعرس ولدها أنه سيصعد للروشن وستنزل بنت صالح لإحدى الحجرات السفلية، وقد تعلمت نفلا في وثيل أن ما تطحنه رحي الألسن داخل القصر لن يبدو في وجه عشيرها أنه سمعه. تسأله: الكلام صحيح؟ فلا يزيد عن كلمة: لا!

حين تجد أم فيحان على باب روشنها يتفصد عرق بارد من جبينها، تتفحص العمة بصمت سقف الحجرة وزواياها فتشعر بأنها تعريها على مهل، وحين هبطت بركت بنت صالح على عتبة الباب وانخرطت في بكاء طويل أخرس. انتظرت وقتاً يكفي لتهي العمة زوبعتها، نزلت بعد ساعة على هدوء في باحة البيت، اتجهت لحجرة عمتها أم عمّوش فوجدت المرأتين تتجادلان حولها، كانت أم فيحان تخط براحتها الجدار: أليس فيحان رجلاً مثله؟ أما كان يجب على ولدك أن يترك له الروشن؟

انسلت نفلا راجعة، وفي حجرتها بكت مرة أخرى، تخيلت فرجة التي تعبر بوضوح عن أول خاطر ببالها، الصبية التي إن ملّت شكاوى النساء قلبت اجتماعهن ضحكاً؛ تنسل لتعود بعمامة، تضعها فوق رأسها، وتقبل مقلدة صوت رجل ومشيته دون أن تسميه والنساء بين الضحكات يتخرصن المقلد، تساءلت كيف ستصمد الصبية في وجه عمتها التي الخصام زادها اليومي؟

تخرج من وثيل، تقف بأول الدرب الذي عبدته الأقدام باتجاه حيهها، لكنها تراجع حين رأت أن دموعها لا تتوقف فسلكت درباً آخر، يجذبها صوت الطبول فتتحدر بها جهة سفح أصغر جبال آل فواز الثلاثة، حلة عبيدهم عجن السيل جنبها وأكل بعض سقوفها، كانت الجزء الوحيد من الجبل الذي تضرر من قشاش، لكنه ضرر لم تسمع به في القصر.

تطل عليهم فتجد صف نسائهم بالدفوف يغنين:



«عند العشا كلّ خطف مرقده وانحاش

وقال القيامة جات هذي مواربها»

وترى الرجال والفتيان يتعاونون في ترميم الحلة، لمحها فنيس فجاءها  
يجري: سمي يا عمة!

أول خاطر برأس العمة كان أن تعانقه وتبكي، وثاني خاطر كان أن ترقص  
في الملعب الفارغ أمام صف القيان، أحست بحرارة في حلقها لكنها رسمت  
ابتسامة على وجهها ثم استدارت عائدة لوثيل.

\* \* \*

قشاش راح مخلفاً تركة ثقيلة، مستنقعاته في نخيل العقيق تنكمش،  
وتتمدد في أماكنها شجيرات الخبيز التي يكرها المزارعون، صوب شمس  
غدا العقيق يشاق لها تدير أوراقها ويتضاعف حجمها كل يوم، عاد الذباب  
الأخضر للوادي، والنمل الأبيض لم يعد من النادر رؤيته في البيوت، لكن  
أسوأ ضيوف الواحة انتظر أسبوعين ليأتي.

في الغبش حطت قطعانه في شعاب الوادي، وفجرًا رآه الرعاة يحك  
قوائمه بجسده، الكائن العجيب الذي له وجه فرس وأفخاذ إبل وذنب أفاعي  
اختار أسوأ الأوقات لزيارة الواحة، سيلتهم الأخضر واليابس وهم ينظرون.  
قبل الإشراق بدت طلائع الجراد على جبل فواز كعجاج لن تغير أغاني  
الصبيان وجهته، غشى قصور آل بنيان وآل هذال، تقافز في براحتهم وسمعوا  
خترشته في أحواض نخيلهم.

اسودت وجوههم، وبدأوا يصلبون فزاعات يعرفون أنها لن تثني أسرابه  
عن زرعهم. أما فجر اليوم التالي فباغتوه قبل أن تدفئ الشمس أجنته  
فجمعوا منه ما استطاعوا، سلقوا أقله ليومهم، وجففوا أكثره ثم حفظوه في  
زنايل لأيام قادمة.

يدخل فيحان مجلس وثيل فيرفع صوته: «زودِ على العجمان جاء آل مرة» يسأله أبوه: من تقصد بالعجمان وآل مرة؟

يختلس الشاب القصير نظرة لأخيه، فقد اعتاد منذ الحريق ألا يفاتحه في أمر، واتفقا دون تصريح ألا يحس الشيخ بشيء، فكان فيحان كلما اشتاق للحكي مع أخيه جاء المجلس بطرف خبر منتظراً من عمّوش بادرة فضول ليتحدث معه.

صد عمّوش الملازم لأبيه منذ الإصابة، وتظاهر بأنه يطوي فراشه في طرف المجلس ليعطي أخاه ظهره، قال فيحان بإحباط: «الجراد يا شيخ! بعد قشاش جاء جراد سد عين الشمس» ولا ندرى أنأكله أم يأكلنا.

أملى الشيخ على أحد عبيدهم توجيهات عاجلة بتغطية بثرهم، وتكميم عذوق النخيل. أمسك الشيخ ساعد العبد يهزها مع كل أمر ليحفظه، وبان في وجهه انزعاجه من رائحة ينزها جسد الشيخ مع صديد جرحه. عمّوش يصوّب توجيهات الأب دون أن يخطئه أمام العبد: غطوا البثر، ونبهوا باقي الحي ليغطوا الآبار الأخرى، وانظروا إن كان النخيل قد أزهى فلقحوه وكمموه، وإلا فأشعلوا في الجريد اليباس كل يوم في النخيل لتبعدوا الجراد عنه.

لم يسمح الشيخ لعمّوش بأن يرى الجرح، وكانت التتانة التي لم يعد يغطيها بخور النساء في المجلس تثير قلقه، حتى زوار الشيخ الذين لم يبدووا ملاحظة صاروا يتلثمون في جلستهم القصيرة عنده.

أمر عمّوش أحد عبيدهم بأن يوحى للمصاب بأن عليه أن يغتسل: اهمس في أذنه «رائحة ثيابك يا عم مؤذية» وقبل أن يغادر العبد قبض عمّوش مرة أخرى على منكبه: إن رفض فلا تلح عليه.

ينقل العبد الشيخ خارج المجلس، ويخوض معه معركة لنزع ثيابه، ومن بعيد ظل عمّوش يطل عليهما ويربك العبد بتوجيهاته.

الجسد ممصوص العافية صدم عمّوشاً، يقعي والده كرضيع تحت دفع الماء، ويقرب الابن منه بخطوة خفيفة، فمن مكانه لم يستطع أن يرى الجرح. اللطخة السوداء الكبيرة من مفصل الحوض حتى منتصف الفخذ أربعته، «أم العفن» الجنية الرهيبة تسلفت عبر جرحه فسممت لحمه، نفثت تحت جلده سوادها وحوافاً متقيحة صفراء.

تضيق أنفاس عمّوش ويصعد لحجرتة، تسمع نفلا خبطات أقدام على الدرج، تفتح بابها فإذا به أمامها أسود الوجه، قعد ضاماً يديه في حجره، لم تسأله ولم يقل كلمة، بعد لحظات اندفع من باب الحجرة كرصاصة، أخرج نصف جسده من حافة السطح بأول الدرج وتقياً، لحقته نفلا ووضعت يدها على بطنه الذي كان يتقلص بوضوح، وعاد يستفرغ سائلاً لزجاً. بصعوبة جرتة لفراشه وغطته، وبعد قليل رفع اللحاف وقد استعاد وجهه بعض لونه ثم نزل للمجلس.

دخل عمّوش المجلس فقبّل رأس أبيه ويديه وحين خرت دمعته خرج. بعد لحظات كان يملي توجيهات للعبيد لينادوا رفاقه ويتجهزوا لرحلة جديدة. لم يكن فيحان قد بادره بحديث منذ أن احترق الموتور، علم بنيته فعصب عمامته على رأسه بتوتر، وظل في مكانه ينظر إلى أخيه الأكبر، لم يكن غضب عمّوش منه قد تلاشى، فنفت مصعق في صدر عمّوش ما يوغره: مذ خط شارب هذا الولد وهو ينحاز لكل رأي يخالفك، أراد أن يشارك في حرب فجور، ثم جاء بمصيبة سترها الله.. حتى الموتور الذي جاء به لم يحضر له من الوقود ما يكفي وكاد يعطبه وهو يخوض به السيل وفي ظهره عشرون امرأة.. ثم حرقه الرجال لسوء فعله فيهم.

ظل فيحان واقفاً أمامه وهو يرقب الأفق، ويقنص بنظره كل عبد أو طفل ليأمره بأن ينادي رفيق سفر لم يبلغه الخبر، قال فيحان: ستذهب؟

- بعون الله!

- عرسي بعد ليلتين.

- في الحاضرين خير وبركة.

- أبونا مريض.

- يعافيه الله!

- ألا تريد أن تقف معي في عرسي؟

- أريد أن أعود فأجدك قد جلبت وقوداً كافياً للموتر وأصلحت ما أفسدته فيه بالحريق.

يدخل حجرته، تنتظر نفلا منه أن يؤكد خبر سفره الذي سمعته من غيره، يتمدد بانتظار أن تستجوبه، تسقيه بواكير صمت تعلمته منه، يجلس ويناديها لتضفر جديلتيه، وتخيب ظنه مرة أخرى فتضفرها بلا سؤال، يستلقي ويتناوم ثم يستدير لها: أيقظيني قبل الفجر لأنني سأذهب.

تهز رأسها وتخفض ضوء السراج، يغمغم: في عرس فيحان لا أريدك أن ترقصي.

رفعت فتيل السراج فأضاء اللهب دائرة مركزها عمّوش، قابلته: لماذا لا أرقص؟

غطى وجهه بلحافه فرفعته عنه: ستقول أو سأفعل ما أشاء.

تهديداته التي يتر بها الحوارات تقتل نفلا، تود أن تخبره كم تشعرها أنها ثقيلة على قلبه وأنه يستكثر عليها كلامه، ستتدمر مرة من أن عدوى الشيوخ

أصابته، لكنها لن تدرك أن عمّوشا الذي ولد شيخاً لم يعتد غير إلقاء الأوامر، وأنه حبه لها هو السبب الوحيد الذي يجعله يناقشها، كان عمّوش يتنهد ليحبر نفسه على طبع لم يرضعه من أمه ولم يضطره له لعبه مع الصبيان، تقارنه نفلاً بجابر، ولم يجرب كأخيها أن يقف بين عشرات يحاول إقناع نوحدة بالاً بتركه على الشط.

قال عمّوش: أبي مريض، ولو أطاعني فيحان لما أقام عرساً هذه الأيام.  
ضيقّت بنت صالح عينيها وغرستهما في حدقته: أبوك مريض وسيشفى إن لم أرقص!

تأفف بصوت مسموع ثم استدار مرة أخرى، اتكأت على يديها لترفع ثقل جسدها الذي كاد جنينه يكتمل، فهم أنها ستلعب هذه اللعبة مرة أخرى فكلما استدار قابله، أدار لها وجهه وفاجأها: أنت حامل وستلدين في أي لحظة، قد تلدين حتى في الملعب، ألا ترين ذلك؟

مسحت بأناملها جلد بطنها المشدود كدف أحمته القينة على النار حتى رق، نظرت لحبيبها ورجته: قم ارقص معي.

كان العاشق فيه حزيناً بسبب الجميلة التي لا تفهمه، والتاجر فيه يحاول أن يتهج بأن قد أنهى الصفقة بريح، هز رأسه ووقف، حاذته فارتبك، سألها: تغنين أو أغني؟

تغني وتقبل عليه، يرفع ذراعاً ثقيلاً، تلتقي عينيها بعينه، تبسم للوجه الجريء الذي سرق قلبها على الماء، تشبك أصابعها خلف عاتقه فيضمها بعنف، يحاول أن يثبت جسدها المتمايل، تملص وهي تبسم وتقهقر لتشجعه على العودة لمحيط الضوء.

صوته في الغناء صدى خفيض لصوتها، وحركاته تجاريها قليلاً، تظن

في وقفاته كم هو منفصل عن الطرب، تدنو منه ويتراجع، تلصق به صدرها، فيضمها الضمة السابقة وأنفاسه في أذنها.

حين تبتعد هذه المرة يقعد، جلسته المسترخية كمن أدى واجبًا ثقيلًا أطفأت شعلة قصيرة في ضلوعها. بترت النشيد واستندت للجدار، ثم قعدت دون كلمة، لحظات مرت عليه قبل أن ينطق لسانها بحسرة: أتعرف كم مر من وقت دون أن أرقص؟

صفحه السؤال لأن إجابته ليست في صالحه، بلع ريقه فصرخت: أنا منذ أن دخلت بيتكم لم أرقص..

ينتفض جسدها ويسمع أنين طفلة تخفي عبرتها، يقبل رأسها وشفاهها التي سقتها دموعها: لك ما تريدين.. كل ما تريدين..

يريد أن يرجوها أن تخفض صوتها لكنه يخشى ردة فعلها.

تتنحب ويمد لها بدل الحل كفتًا؛ يعدها بأن يرقص معها كثيرًا وكلما شاءت.. ويضيف: «هنا في روشنا.. بعيدًا عن العيون»

تسحب يدها منه وتدفعه: هذا ما هو برقص.

\*\*\*

ثمة أدوار في الحياة يجب أن تلعب؛ في كل بيت فردٌ يهابه الصغار، وفي كل مجلس معارض إن ائتلف القوم سقّه رأيهم، وفي كل رفقة سفر من يتسبد الحديث ليغدو الدرب أقصر، لم يكن عمّوش رفيق السفر الذي يقصّره على الرفاق إن طال، لكنه كان البوصلة التي تعيد توجيه قطعان الكلام إن ضلّت. في الدرب يسمع السن رجاله تعيد إحصاء نتيجة الحرب بين الحين الآخرين بالوادي، ويغضب حين يطلع له وجه نفلا بلا ضحكته التي تأسره، سافر وقد اختفى الديرم من شفّتيها، لم تسمح له بأن يودعها، لم يشم عقب المشاط في شعرها، ولا أن يقبّل حمرة الحناء في أكفها.

وقف فجأة وصاح في القافلة: نزول.

التفت رجاله في وجوه بعضهم بعضاً ونزلوا على مهل، عيونهم اتجهت عنوة صوب العقيق، فأوصلت للتاجر رسالتهم: لم نبتعد بما يكفي لتتعب فننزل، أحدنا بصراً لا يزال يرى عِلّةً وثيل.

أناخ عمّوش راحلته وخفض بصره حتى تأكد أنهم نزلوا جميعاً، تنحنح ثم سألهم: ألم نخرج والجراد يأكل نخيلنا؟ ألم نخرج وقد طمس قشاش بيوت ربنا؟ ألم يجرف أنعامنا؟ ثم نظر في وجوه بعض من الرفاق الجدد فقال: أما فيكم غواصون لفظهم البحر وأبعدكم نواخذته؟

الهمهمات رافقتها هزات رؤوس مطأطئة، ثم فرضت سكتته الطويلة صمتاً غير مريح، قطعه بسؤال أخير لم يرد له إجابة: فلماذا تلوكون سيرة حرب آل هذال وآل بنيان ومن قتل منهم الآخر والخراب يزحف على العقيق كله؟

سؤاله كبح أي رغبة في الحديث، ووجد دون أن يدري عمّوش قلوب رجاله خوفاً على كل العقيق، ورفرفت في صدور بعضهم دعوات لله بأن يحرس واديهم.

حرب الوادي مع الجراد معتادة، لكن أسئلة قائدهم ذكرتهم أن الوضع الذي خلقوه وراءهم لا يشتر بانتصار سهل للواحة عليه، توجسوا وحماهم البعد من أن يروا بأعينهم أعمدة موجته الثانية تغزو أحياءهم.

لم يستطع الدخان الذي ينبعث من جريد أحرقه أهل النخيل ردع الغازي النهم، ضج صرير أفواج الجراد في بيوتهم. أكل كل نبتة على حواف السيل أو في المزارع، ونخلهم الذي صمد في وجه قشاش جرّده من تيجانه. كانت حرباً مع من لا يريد أن يستقر في أرضهم، يدركون ذلك فلا يطمئنهم، يحرقون مواقع بيوضها وتقرض أبواب بيوتهم.

استجاب الله صلواتهم فأمر الجراد بأن يغادرهم، ابتهجوا ليلة بالصمت المطبق في نخيلهم وأصبحوا على جوع لا نية شبع معه، كأن الجراد حين ذهب ترك لهم نهمه.

لم يكن جوعاً قدر ما كان خشيته؛ في غضون أسبوع لم يعد في الجداول ثمرة لم تنهب، تقطف الحبة الفجة حتى لا يسبق لها راصد آخر، حجرات التمر التي خربها السيل تخفي النساء مفاتيحها في الليل ليصبحن على آثار من سرق آخر قطرات الدبس في قيعان أحواضها،

في مجالس لم تعد القهوة تدور فيها غير دورة واحدة عادت سيرة الحرب، لم يحنوا لأيامها لكنها وحدها القادرة على أن تعلو فوق قرقرة بطونهم، ومع الأيام لم تعد تقترن في ذاكرتهم بغير الشبع، بدت الحرب في أفواه خالية من نكهة الهيل أرأف بهم من الجراد، حتى الجدري إن قارنوه بالجراد كان أعقل، يزورهم فيتخير صغارهم، يسندونهم مرقشي الوجوه لجذع مريفة ومن شفي عاد، وينجبون بدل الصغير عشرة، الحرب تقتل أبطالهم، أما الجراد فلا يفهم حد ما يأخذ.

آل بنيان بعد أن تفحصوا الأحياء الثلاثة وثقوا أن وضعهم أسوأ: متنا من



الجوع، كان الجراد لم يأكل إلا نخيلنا، وما نفق في قشاش غير بهائمنا.

قال شيخهم: الجراد أكل نخيل الجميع.

رد الأول: آل هذال بخير.

كلمته وجهت سهام حسد البقية ناحيتهم: القهر أن أكثر العقيق في أيديهم، وأكثر النخيل عندهم، ونحن يبست نخيلنا.

صرح جائع آخر: «الفقر حَتَّ رموشنا» وغداً يأكل الناس الجيف.

مجلس آل بنيان تصدره جوع أعمى أصم، مصعق يحلّق في سقف المجلس يؤلبهم: بينكم وبينهم ثأر لم يستوف بعد. كقراد وسط المجلس صاح ابن الشيخ مديراً وجهه فيهم: لا حل إلا أن نعدو عليهم.

يسيل لعاب أكثرهم، لكنهم يعرفون أن النخيل لم تلقح بعد، وحجرات تمر الهذالين ليس فيها ما يستحق الجهد.

قال أبو بتلا: لا طاقة لنا بحرب.. فلا تشرعوا باباً سده قشاش.

– وباب الجراد من يسده؟

السؤال بسطه جمعان أمام شافي: في مجلسهم الذي لم تعد تزوره شكا الرجال أمعاء عيالهم الخاوية، وأثناء الأمهات اليابسة.

\* \* \*

أعداء الواحة الأزليون (السيول والحروب والأمراض)، كلها كامنة كالجن في آبارهم وشعابهم، لكن أحدًا منها لم يهدد النخيل مرة واحدة. ما إن تداولت الألسن اسمه الكارثي حتى نخر أمعاءها أكثر، يأكلون فلا يشبعون، حتى الفضائل التي ربوها جيلًا بعد جيل لم تسلم؛ فالألسن التي ترى جانبًا من شرفها في ألا تصرح بنهم لطعام نهبت مخزون بيوتها وتوجدت على غيره، والأيدي التي تربت على أن ترتفع عن الصحن تاركة آخر اللقمات انتصارًا على شهواتها له ثلمت حجرات تمرها وجداول خضرة نخيل جيرانها.

بدأ الرجال يعسون حيواناتهم العجفاء، ما إن تترنح بهيمة حتى تنحرها أقرب يد، وبأقل المناوشات يخطف كل شاهد ما يدانيه من لحم أما آخرهم فيكحت جلد الجيفة لأهل بيته.

أحكمت بيوت بنيانية مغاليق حجرات مؤونتها وأشرع شافي باب بيته، الليل فيه نهار يقسم مع أمه وعبيده ما يستطيعون بين بيوت ما طرقتها خير من مدة، تلك العطايا ستوثقها ذاكرة آل بنيان كأعياد صغيرة تطرقهم ليلاً. جوعى الحي يغشون بيته، ومقنعة أمه المشدودة حول وجهها الصغير لا تفارقها رائحة الدسم، تحرث عراقيبها الدرب بين مطبخها والفسحة أمام بيتهم وعبيد ابنها ينقلون بعض ما تطهوه للبيوت المتعفة. دعوات أمهات الصغار تحمي همتها، وبعد أيام تأتيا بتلا وأماها، دعواتهما لشافي وأمه تشرح صدر العجوز.

لا أحد يعرف كم يملك شافي، أمه تقول: لأن نيته طيبة وسع الله رزقه، وأهل الحي يقولون إن ما جمعه أبوه في سنوات يضيعة الشاب الذي ما تعب فيه، لكنه وأمه يطربان لدعوات أمهات الصغار، ويصمان آذانهما عما سواها.

بعد أيام تنضم أم بتلا لأم شافي، وفي النهار التالي تخرج بتلا من بيت رجلها فتلحق أمها، تلمحان شافي فتريان تحت عباءته الشتوية كم انبرى حاله، تدعوان له فينشرح صدر أمه، ثم تغريها أم بتلا بفتح موضوع أغلقه موت الأب: يا أم شافي ولدك يزین الأرض التي يمشي عليها أما آن لك أن تزوجيه؟

صباح النهار التالي تبسط أمامه فكرتها فيضع يده على صدره كمن يزور مكاناً طال غيابه عنه، كانت ضلوعه باردة خاوية، قال لأمه: الرأي ما ترين. فرحت برده فأرادت أن تنهي الأمر في ليلتها، تبسمت: أتريد امرأة مرقد أم امرأة شغل؟

- ما تجتمع؟

- ما تجتمع.

بعد تفكير قصير اختار، ما رأى شافي عشقاً بين أبويه ولا كتب الله له حبيبته نفلاً، ولا يريد عاشقة تطلب من قلبه ما جفت منابعه.

\* \* \*

فرجة بنت راشد تسير أولى خطواتها في محيط الجبل، ترافقها نفلا لتختصر لها عمرًا من التجارب الخاطئة في محلها الجديد، أرادت الذهاب مع صبايا الحي للحطب، وأشارت لها صاحبها بألا تستعجل. تثق برأي بنت صالح رغم أنها تتحرق للخروج، قعدت مع نفلا وعينها عليهن، رأتهن يتجنبن أقرب ما يواليهن من شجر، سألتها فتعفت نفلا من أن تخبرها عن الخسيس الذي يتلصص عليهن في الخلاء ويسمعهن من الكلام ما لا يليق، قالت: يردن مكانًا أستر.

لم تقبل فرجة هذه الاستهانة بذكائها: به غير ذا الحكي أو الحق بهن. أمام إصرارها اعترفت لها: «مقطوع نصيب».. كأنه محارب الشمس يتبعهن في كل مكان، وكلامه رخيص.

– أفا !

تمد نفلا سيقانها لتخفف ضغط جنينها على حوضها، وتهمس لصاحبها: لو أخبرن الرجال فسيحزّون أنفهم، وقد تجر الحكاية حكيّات.

سألتها العروس: ماذا يجب أن أفعل؟

تبسمت بنت صالح: اضربيه.

تلاشت ابتسامتها والعروس تفرّ وتلحق بهن. تسير فرجة حريصة على ألا يتبهن لها، خطواتهن الخفيفة المرتعشة تحنقها، بعد أن ابتعدن أنه يقبل كحرباء، يتلصص عليهن وحين يراهن يتكورن عند حطبهن يغريه سكوتهم فيدنو منهم.

هوت يدها على عنقه، ظنها رجلًا لكنه عرف الهذالية الفحلة فسقط قلبه في أحشائه، في لحظة عَقَلَتْ إحدى يديه ورجله بعمامته، يرفس في مكانه وركبتها على صدره تطلب منهم حبلاً. بتردد مددنها بالحبل فسحبته عند

شجرة سلم ثم ربطت يده الأخرى في جذعها، وقفت لحظة وهو يهددها فشقت ثوبه من جيبه، صاحت الفوازيات حين بانت عورته، وظل هو يجأر ويرفس برجله الطليقة، أسكتت لغظهن بنظرة فالتصقت أعينهن بالسواد بين فخذيه، وما منهن - ثيبات وأبكارًا - من رأت عورة ذكر بالغ جهازًا نهارًا. أخذت من كيس إحداهن عجوة، ودعكتها في شعر عانته، ثم أدنت حمارهن الوحيد ليأكلها. رجونها أن تطلقه، وضبح هو كشاة متعهدًا بألا يلحقهن مرة أخرى.

في طريق العودة يتعاهدن على ستر الأمر، تظن فرجة أن السبب أنه قريبهن ومن الحي، لكن عمتها أم فيحان استدعتها لتسألها ثاني يوم عن الحدث، كان تحقيقًا باردًا حضرته العمة الأرملة انتهى بأن بلغتها أن بعضهن قال: «امراتكم الجديدة معها عرشي»

نفثت الأرملة في جيبها مسميةً بالرحمن عليها وعلى عيالها، ثم سألت فرجة إن كان صحيحًا أنها رفعت الرجل بيد واحدة، قبل أن تجيب العروس شرحت لها بأن هذه القدرة ليست لبشر، ولا يمكن أن تكون لامرأة. تحاجها بنت راشد: لو كنت رجلًا ما احتجت جنيًا ليساعدني فيما فعلت؟!

تشد الأرملة طرف مقنعتها: الرجال؟! ثم تدير وجهها لأم فيحان لتؤكد جملتها التالية «الله خلقهم أقوى»

تعرض فرجة: أقوى؟! أيقدر أن يحمل ويلد؟! الرجل إن انغرزت في قدمه شوكة عرج منها يومه كله، وأنتِ يصب منك الدم أسبوعًا كل شهر وتقومين بشغلك كاملاً.

العمتان اللتان ودعتهما الدورة الشهرية من سنوات يؤثر فيهما ذكرها بطريقتين مختلفتين: الأرملة تميل رأسها ناحية وتضحك بخجل، وأم فيحان

تحاول أن تفهم زوجة ابنها: المرأة عندنا لا تمدح بمثل هذا يا بنت راشد، ولا أخشى إلا أن يعرف فيحان أو أبوه بما حصل.

- فيحان أخبرته البارحة. قالتها فرجة وخرجت تاركة لعمتها مرارة إخراجها، وللأرملة ضباب هواجسها حول موقف فيحان.

\* \* \*

بدخول فرجة وثيل تحظى نفلا بفرصة مراقبة أهل القصر، شريط الأحداث الذي يرتد بتفاصيله أمامها مؤلم؛ استغرقت أسبوعاً لتعرف أسماء نساء وثيل، واثنين بعده لتفهم تشابك علاقاتهن، ولم تفهم بعد طبعهن؛ يغمزن بعضهن بعضاً إثر أي همسة منها وكل نفس، يخطفن ما تخبزه من بين يديها ليقدمنه للرجال، ثم على القهوة يمجدن أي إضافة وضعنها على ما خبزته ويسكتن عن دورها فيبدو أنهن قمن بكل شيء، أما فرجة فقد بدت بينهن وكأنها ولدت في المكان، تعرف كل فرد باسمه ولا تجرؤ إحداهن على أن تسرق جهدها. تلحظ نداء فيحان لعروسه عند جدار الشرف، تشبر طول المسافة بينه وبين عروسه، تقيس خفة خطوته الليلية باتجاه حجرته، رغم بعض التشابه رجحت كفة فيحان في إظهار مشاعره.

تغار نفلا حين تراه كلما دخل عندهن بحثت عينه عن فرجة ليقعد بجوارها، يتجاهل إلحاح أمه على أن يجاورها ويلتصق بعروسه، يغيظها حين تجده بعد كل حكاية يسردها يلتفت لامرأته ليرى مدى رضاها عنها.

تشكو لها فرجة من أن لرجلها في الليلة ألف مزاج كلها متطرفة، مرة تدوي قهقهاته على طرفة لم تتعمد إضحাকে بها، ومرة يأتي غاضباً تكاد الحرارة التي تتنفس في مسامه أن تحرق حتى شرفها، وتفهم نفلا أن الوجه الذي لا يرتديه فيحان أبداً هو الواجم الهادئ، لقد تركه كله لعمّوش.

حين تروي بنت صالح ذلك لأمها تنهيه أم جابر بكلمة صارت ترددها كثيراً: «الله كريم!»

- كنت - يا أمي - كلما جئتكم أحرقت أم فيحان كبد عمتي «ما فاز بها إلا بنت صالح.. إن حضر عمّوش باطنته في الروشن، وإن راح ركضت لأهلها» جاءتها فرجة.. تضرب بالباب ولا تلتفت لامرأة ولا لرجل..

تواسيها أمها بأن ذا طبع البشر؛ لا يعرفون قدر أحد حتى يجربوا غيره.. اصبري عليهن وستسمعين منهن في بنت راشد أشد مما قلته فيك. تؤكد لأمها بأن ما تتنبأ به يحصل منذ الآن: ما بقيت كلمة لم يقلنها، حتى عمتهم الأرملة تقول «امراتكم الجديدة كأنها رجل.. كيف ترقد مع فيحان؟!» تضحك الأم: «والله لو سمعتها فرجة لصاح الصايح بينهما».

- ما أمهلتها لتفرح بسؤالها، قالت «هيا أنا وإياك وراء الأثلة ذيك وأريك كيف أرقد معه»

تضع أم جابر يدها على رأسها وتغمض عينها، ثم تصد: يا بنتي بعض الحكي يوجع.. سماعه يوجع.. وترديده يوجع، أعانهن الله على أنفسهن.. وأنت - وأنا أمك - اردعيها من بعض الحكي..

تتنفس نفلاً بعمق ممتنة لأمها التي تردّها للصواب مهما شوشها وثيل وأهله، تترك سيرة فرجة وتشكو لها لأول مرة نأي عمّوش ووجهه الواحد. مواساة الأم جاءت في سيل أسئلة تعرف أن إجابتها بالنفي: يقصر في واجبك؟ يضربك؟ يهينك؟





## (9)

ليلة تمام أربعين خفرة سبقتها أمها لبيت آل صالح، وصلته بعد الظهر تحمل ما جمعته لمثل ذا اليوم قبل سقوط جنين ابنتها الأول. كلما سمعت العجوز خبر ولادة بنيانية أقسمت أن تعوض صغيرتها في ظعنهما المتكشف، وها هو اليوم الموعود يأتي مع تقشف الجراد، بعد أن قايضت ببعض العود والطيب قمحًا وقهوة. تذكر تفاصيل العرس بخجل ممزوج بحنق على رجلين، ويقر في خاطرها أن هذا زواج منحوس من أوله.

الرمال الذي جلبته من المسيل وضعته في إناء نحاسي، أوقدت تحته قطعتي سمر، دست فيه أصدافًا رقيقة كأظافر عفريت فتي، لهب نارها يذيقه جفافًا كالذي يعرفه رمل العقيق، ثم وضعت أوراق الشنة الفضية، تحركه ليسخن للدرجة التي تريدها دون أن يحترق، تقلبه ثم تضعه في منخل جلبته أم جابر، حين لم يبق في المنخل غير الأصداف والشنة أعادته للإناء النحاسي وصبتا عليه الطيب، نشيش ارتشافه له يعلو على صوت العمة التي تدعو للزوجين بالذرية الصالحة. في الليل يدخل جابر حجرتة، وقبل أن يلمسها يخبرها: سأذهب إن وجدت من يرافقني.

لا تخفي خفرة التفجع في صوتها عنه، فهو أقرب تصريح بالحب تستطيعه: ستذهب للبحرين؟

يهز رأسًا تملؤه الحيرة: والله لا أدري أين أذهب.. ربما أبحث عن عمل في الرياض أو الحسا. لحظتها تذكر جابر ما هو أهم فدنا منها: أنا لن أخبر

أمي، ولن أودعها (لا هي ولا نفلا) فلا تقولي لهما كلمة. قبل أن تستم فرحتها بالسر الأول بينها وبينه لوى أصابع كفه وهمس: وأنت يا ابنة خالي إن شئت أن أعطيك.. قد أتأخر هذه المرة وقد لا أعود.. إن أردتني أن أطلقك فعلت.

عانقته وأجهشت بالبكاء، مسح دموعها الحارة بصمته ورفع رأسها جهته، تصد خفرة ويتحسرج صوتها فتومئ برأسها رافضة التحلل مما يربطها به فيقبض على كفيها المكتنزتين، يدس فيهما ذهب أخته: أعطيه أمي إن رحت.. ولا تمديها بها إلا إن وثقت إنني تعديت الوادي.

نوبة بكاء جديدة يسكتها جابر، في دفء صدره الذي يوشك أن يغيب وجدت نفسها تعدد لنفسها مزاياء، فمذ عرفته لم تفته في مسجد آل هذال صلاة، ولا سمعت منه شتيمة ولا غيبة، هو الأقل تعبيراً عن رأيه إن تجادل المتجادلون، وأقلهم تشبهاً برأي إن طرحه. بعد أن نام تذكرت كلمة لأبيها فيه: جابر رجل من نخيله للغوص، لا له في حرب ولا في غزل.

\* \* \*

- أرى قصرًا تحيط به أشجار عارية، ونخيل مستدق الجريد يابس (دون أن ترفع رأسها تكمل وكأنها تخشى أن تبتهت صورة قبل أن تروي تفاصيلها) أرى شاباً قصيراً نحيلًا في العشرين من عمره عند بلية رمادية يرقاها وينزل.. ووراء القصر ناقة لك أو لقريب لك طرح بطنها حوارًا أبيض ميتًا وأرى عبدًا عندها يسحبها والناقة تمنعه..

يسأل عتموش العجوز التي تنظر في رمل خططته على الأرض: أترين مجلسنا؟ هل رأيت أبي؟

- امرأة لك ولدت بنتًا، وأرى شيخًا بعباءة صوفية نائم في المجلس..

– أهو بخير؟

اعتذرت منه: لا يبدو لي أنه بخير.

كانت قارئة الرمل آخر محطة له قبل العودة، لكن بهجته بخبر ولادة نفلا قاده لوقفه أخرى.

بغبار سفره دخل عمّوش مجلس وثيل، قبل جبين طريح الفراش، تشكو له أمه حال أبيه، ثم تبارك له مولودته فيظهر اندهاشه، لم يشأ أن يحرّجها فيخبرها أنه عرف وهو في الجنوب. شم رائحة طيب حجرة أخيه فيحان فخرج ليتجنب لقاءه.

رأى ما نهفته أفواج الجراد قبل أن تروح، ولم يحتج طول تأمل ليدرك كم سيكون موسم التمر شحيحًا هذا العام، هبط الجبل باتجاه حي آل هذال. عبر نخيل آل صالح، ورفع صوته بأول البيت، أدخلته أم جابر حجرة الحبيبة معتذرة بدموعها عن غياب جابر: عاهدني ألا يذهب وذهب.

حبيته كساها اللحم، يمد يده لمهد ابنته، يضم قطعة اللحم الدافئة الهادئة، الصغيرة أخذت كل ملامح أمها، ولم تترك له من أثر فيها غير عينيها الصغيرتين الحيتين، قبل عمّوش الممهودة، ثم قبل رأس نفلا.

تميل بنت صالح رأسها وتفحص الواصل من السفر: هذا سلامك بعد غيبة، وبعد أن أشرفت على الموت؟!

عينه تحرس الباب الموارب، يود لو يخبر حبيته أنه حين يبتعد يحن كحوار أفرد عن أمه، لكن عسر التعبير يلازمه. تروي له أحداث ولادتها والألم الذي لم يجهزها له كل وصف أسمعتها إياه المجربات، تصمت قليلاً لتعطيه فرصة للحديث، ثم تسأله عما أحسه حين رأى الصغيرة، يُخرج من جيبه قلادة ذهب أطول من المولودة ويلبسها نفلا، يلتفت مرة أخرى للباب،

ثم يدنو منها، يحضن وجهها بكفيه وقبل القبلة ينكسر شعاع الشمس بالباب، هربت أم جابر مرتبكة، واستحيا عموش.

يفادر فتخرج نفلا باحثة عن أمها، البريق في عينها لن تلمحه الأم المنحنية على قدر تعجن، تؤرجح القلادة أمام ناظرها: أحسنت اختيار وقت دخولك يا أم جابر.

يصفرّ وجه العجوز حين تذكر المنظر الذي رآته، ثم تخبط أصابع نفلا التي تعبت بالعجين: أبعدي عن شغلي.. ثم تردف: واثقلي على الرجل.. أربعين ليلة ثم الله الله!

حضنت أمها وهمست في أذنها: وهل تركتني - أطل الله عمرك - لأصبح أخف أو أثقل، حتى شوقي روعته، كل ما دنا مني دخلت علينا.

ارتبكت أم جابر، تخبط لسانها بين أكثر من رد حتى لمحت القلادة تسترخي بثقلها على صدر ابنتها، بسطت راحتها لتزنها فيها، ثم همست: ما شاء الله! ذي ثقيلة.. أخفيها عن امرأة جابر، إن رأتها انكسر خاطرها.. ولو عند ولدي ما يكفي ربع قيمة ذي ما استكثرها عليها.

تباغتهما خفرة، وتبارك لنفلا على الذهب، وتجمد المرأتان في محلهما، كانت نفلا قد قالت لأمها إن قرين خفرة له طبع لص فهي مع سوء خلقها تمشي كمن يتسقط زلة.

جمود اللحظة تكسره نفلا: خفرة أتدرين أننا سمينا ابنتنا سلمى.

تصمت زوجة الابن فيتوتر المكان أكثر، قالت أم جابر: سلمى؟! على من؟

طرح العجوز سؤالها لأن المولودة لم يكن لها سمية في العقيق، أما

خفرة فأشغلت عمتها بعطية لم تنلها من جابر: يا وجه الله! أهدّ يعطى الذهب كل يوم، وأهدّ ما رأى كسرة مذ دخل بيتكم (تقولها وبسبابتها وإبها مها تنقب الكسرة التي لم تأت عن ناجزها)

\* \* \*

حواف الواحة بلعت ماء قشاش على مهل أنبتت الجراد، أنذرتها جموعه بأيام أسوأ. يتشجع جابر فيتسلل هو ورفيقه بين النخيل، وكذئاب يناديها الرعب في مسام فريسة يتصبب ابن شيخ آل بنيان ورفيق له في المسيل، يقول أولهما: خذ العلم، ابن صالح قال لرفيقه أمحلت أيدينا ومزارعنا أكلها الجراد، ونتظر فوق الفقر موتاً في الوادي، إن انطفأ آخر سراج في الديرة انطلقنا.

- لم يخرج من العقيق هذالي واحد منذ أشهر، واليوم يخرج جابر لحثفه.

يعرف الآخر أن ابن شيخهم يريد ابن صالح لأنه الرجل الذي ضرب بسبيه في آخر غارة، وإن اختفى أثر عظم الناقة في رأسه فلم يغادر بعد ذاكرة الحي.

- ربما يريدان البحرين.. مذ أخبرتني العيون بنيتهما ولا شغل لي إلا مراقبتهما، اليوم تظاهرا بأنهما يحطبان، لكنني رأيتهما يعقلان بعيريهما وراء حلة عبيد آل فواز، وبعد المغرب - حين أظلمت الدنيا - لم يرجعا مع البقية، رأيتهما يتسللان خلف الجبل، وما إن رقد العقيق حتى خرجا وعادا يحيطان بالمسيل متجهين صوب مريفة.

- يحتاطان لما لا تنفع منه حيلة.. يحسبان أننا إن رأيناهما يخرجان من جهة الجبل حسبناهما فوازين وتركناهما.

أوماً صاحبه برأسه: قومنا أتعبهم حمل الرماح والبنادق، وانشغلوا بالجراد، فلو طلب الهذاليون اليوم صلحاً لعقدوه.

يلحق البنيانيان الغواصين الخارجين من الوادي، يبقيان على مسافة ثابتة بينهم حتى لا يفطن جابر وصاحبه، قبل الفجر كان الأربعة قد تعدّوا مريفة. بعد ظهر اليوم التالي كمن المتربصان لضحيتيهما وراء كثيب فيما استظل جابر ورفيقه بشجرة سمر كبيرة، الرمل الحارق يلسع باطن أقدام البنيانيين العارية، بعد لحظة فر جابر، أدار بصره في الفضاء الساكن ورعشة تسري في ظهره، قبض صاحبه على خنجره فطأطأ ابن الشيخ وتابعه، شفاههما ترتعش وأفواههما مفتوحة وعيونهما تعلوها نظرة قانطة كنظرة ذبيحة وجهها ناحرها للقبلة.

حين لم يلمح جابر أحداً أمره صاحبه أن يتعوذ من الشيطان، عادا يتوسدان صرثيهما بتمرهما القليل، ثم عادت الرعشة لجسد جابر الضخم، لم يسمع صوتاً هذه المرة، لكن الرعشة لم تفارقه، ظن أن الجن في محيط الشجرة شمّ خوفه فقرر أن يعابثه، أما صاحبه النحيل فطوى ذيل ثوبه على ساقين ثناهما داخله، حتى وازت ركبتاه رأسه.

ظل ابن الشيخ البنياني وصاحبه ملتصقين بالرمل خوفاً من أن يفطن لهما الهذاليان، ثم ارتفعا فنبئت خلفهما قامة رجل وماسورة بندق مصوبة، جمدا في مكانهما فأشار لهما شافي بيده ليرجعا للحَي دون كلمة. التصميم الذي كان محل شك قبل لحظات استعاده ابن الشيخ قاطعاً خطوتين صوب جابر فدوت رصاصة عند أذنه. هب جابر وصاحبه بسلاحهما فرفع شافي صوته ويده: تنصيد يا آل هذال فاعذرونا ما رأيناكم؟

حسب جابر الرجال والسلاح فرأى أن من الأفضل أن يصدق حكاية الصيد البعيد عن الوادي، لكن رفيقه بغضب قال: تنصيدون هنا؟!!

ابتسم شافي واعتذر مقبلاً أنفه: وهل بقي في العقيق شيء نصيده؟! ثم صرفه لشأنه: ألتسم هنا للصيد مثلنا؟ أم أنكما على نية سفر؟

ابن الشيخ وصاحبه متخشان والهذاليان يحلان بعيريهما المهزولين، سيران مع تأكيد شافي أنه القرار السليم: سيلحق بنا آخرون الليلة.. وفي الظلمة أخاف أن يصيبكما ما لا نريده.

ركب الهذاليان رواحلهما وابتعدا، وشافي المستند على فوهة بندقه يلتفت في رجلين فكر أحدهما جدياً في نحره، بعد صمت لم يكن فيه ما يمكن أن يقال عاد شافي للحي.

\* \* \*

يرصد الجوعى في العقيق قافلة عمّوش الفوازي العائدة من اليمن، قال شيخ آل بنيان: «الفوازي سيشيع حيه وسيشيع آل هذال من ورائهم، فقد رافقه بعضهم».

قال أحد عياله: وستطول رماحهم علينا مرة أخرى.

تحسس أحدهم بندقه: أخزيناهم من قبل وإن عادوا أريناهم ما جربوه من حرارة طعننا فيهم.

في طرف المجلس تدخّل صوت: الجوع يميّتنا كل يوم وأنت وعيالك تشبّرون أسلحتكم.. لا أوقفتم حرباً ولا أطعمتم جائعاً.

مرة أخرى يأتي جمعان لشافي بأخبار المجلس: جماعتك كاد بعضهم يذبح بعضاً اليوم.. أغاظوا الشيخ وعياله بسيرتك وطالبوه بأن يكسر القفل الذي وضعته امرأته على ما يخزنه فيخرج منه كما تخرج أنت.

أعاد عليه أمره القديم بالألا يأتيه بأخبارهم، ثم ألزمه البيت حتى تغمض

الشمس عينها، قال جمعان: ما دمت لا تريد أخبارهم فإليك أخبار بيتنا.. لم يعد لدينا ما نعشي به أحدًا الليلة.. البهم لم يبق إلا اثنتان ستنتجان بعد أقل من شهر وحلفت عمتي ألا تقربها، وبقيت ناقتك شقحا.. والتمر لم يعد في حجرته غير دبس قليل وليس عندنا إلا صاع بُر.

يعرف شافي أن جمعان يتخير من حكي الحي ما يحفزه به، كان يحبه بقدر ما يغیظه العبد الوحيد الذي يفكر في المستقبل، سأل عبده: ما الحيلة؟ فرد جمعان راحته بجانب صدره: ما به حيلة.. اعتذر من جماعتك إن شئت.. لكنهم لا يطرقون بابك إلا بعد أن يشموا الدسم.

خرج شافي للنخيل، يحرقه منظر جريدها المنهوب، بدت كتالي شعرات في رأس عجوز، لا لونه اللون الذي يعرف ولا يمكنه أن يستر جذوعها، أخذته خطواته إلى الصوت في قلب نخيل جيرانه، كانت بتلا التي ازدادت نحوًا، سترت بمقنعتها شق وجهها فسلم عليها وسألها لماذا لم تعد تأتي لتساعد أمه في الطبخ؟

جرت من جوفها أنه وابتمت له: قبل أمس كنت عند الصانع.. شافي أربكته الإجابة التي يبدو أنها ستكون أطول مما شاء، قال: الهذالي؟ أبو هليل؟

هزت رأسها مؤكدة: الله الله! وأنا راجعة من عنده قلت أبيات شعر لم أخبر بها أحدًا بعد.. أسمعك إياها؟

لو سئل شافي فسيحلف بأن ما تبادلاه حتى هذه اللحظة من كلام يعادل ما دار بينهما مذ لبست بتلا المقنعة، لكنه كان بحاجة لأي شيء يخرج من التفكير في مأزقه، قال: اسلمي.

استدركت: لم أقل شعراً من قبل فإن كان فيه خطأ فاستره.



شجعها بإيماءة برأسه، سمع تندماً على الاقتران بابن عمها فخرج  
وخفض بصره، فكر بأنه لن يفيدها في شيء إيضاحه إنها جبرت على هذا  
الزواج، ظل يهز رأسه وهي تكمل:

«بعت أنا الحجل يوم إنه خلا البيت xx من خوفتي يشمتون أهل  
الوحاني»

أشفق عليها وعلى نفسه فقاطعتها: من يشمت بك اليوم؟ كلنا خلت  
بيوتنا.

ضحكت ودمعة تلمع في عيناها: الحجل بعته قبل الجراد، بعته لأستر من  
لم يشتره لي، ولا أسلمني شره ولا شر أهله «أردت أن أكون له سنداً فغدا  
لي حسرة»

\* \* \*

عاد شافي فنادى جمعان إلى حجرته، لاحظ العبد الهم في وجه صاحبه  
وسكت، بعد لحظة مده شافي بلفائف وأوصاه: رح بهذا إلى قصر وئيل.

يهز الآخر رأسه وهو يكشف كعب البندق، يكمل شافي: لا تخاطب غير  
عمّوش، قل له خذه رهاناً تعطينا به مما جئت به حتى لا يموت ربعي من  
الجوع، ويبقى عندك حتى أعطيك دراهمك.

الأسود عاري الصدر توجس: بعض جماعتك حرقوا موتر أخيه.. ولا  
ندري إن كانوا قد عرفوا أن الفاعلين منا.. قد تطرأ له نية غدر.

- إن رأيت خيانة فلا تسلمه البندق ولو مت دونه.

يضرب جمعان براحتة الصفراء عظام صدره: أبشر بسعدك. يقولها  
ويخرج متجهاً للجبل. يلتفت بعد أن يتخطى محيط نخيل آل هذال فيلوح

شافي بكفه له. يمرق كرصاصة عبر المسيل، يده تضغط البندق الملفوف، ويرتقي سفح جبل آل فواز، بباب قصر وئيل المفتوح ينادي ولا يدخل، يخرج له فيحان، وَيَقْصُرُ الحكي: «معي كلمتان لعمّوش، ولا لي حكي مع غيره»

فيحان يبلغ عمّوشًا ويقف في وجهه باقتراحات حمايته: العبد بوجهه شرّ.. والملفوف في جنبه بندق.. أمر العبيد يكتفونه، ثم يجرونه داخل القصر ونسمع علمه؟

عمّوش يرتب بيده على كتف الشاب القصير: ما به إلا العافية، ويرفع صوته للواقف بالباب: علمك يا ولد.

عرض جمعان البندق الممهود أمامه وحيات عرق كبيرة تتفصد عن جلده اللامع: عمي شافي ابن بنيان يسلم عليك، ويقول الحَمْلة التي جئت بها أعطنا منها بما تُقدّره من قيمة، وارهن هذا عندك حتى نسددك.

من اللفائف أخرج له بندق شافي، تجرّحه نقوشه الفضية التي يعرفها، فيها تاريخ غارات خاضها شافي وأبوه قبله، يتحسسه وجمعان قابض عليه. يتذكر عمّوش ما سمعه عن إطعام شافي للحبي فيسأل عبده: أليس مع عمك غيره ليرهنه؟

يسكت رجل لا يكذب ولن يُطلع عدوهم على ضعف.

يزفر عمّوش: سلم على شافي، وقل له إنه وقبل أن يمسي ذا الليل سيصله نصف ما أتيت به، وقل له إن السداد من عسره ليسره.

يسلم جمعان البندق للفقوازي ويستدير، الهمة التي يسير بها لا توافق ألواح كتفه البارزة، بعد خطوتين يناديه عمّوش، يلتفت فيمده باللفائف: رد بندق عمك له.. ونصيبكم سيلحقك.

في المجلس يهمس ابن الرياح في أذن عمّوش ليذكره بيت شعر قاله وهو عائد من الجنوب في زمن مختلف: كنت تود لو ترجع فتقهوى مع جمعان، ها قد جاءك يأخذ نصف قهوتك بلا ثمن.

\* \* \*

يرسل شافي جمعان ليخبر الشيخ بأنه سيولم لقومه، فإن شاء أتى بها لمجلسه، وإن لم يوافق فسيضعها في الفسحة أمام بيته، يفكر الشيخ بجماعة المجلس الذين يسلخون جلده كل ليلة بمقارنته بشافي فيعتذر من مندوبه: قل له بأنها وليمته والأفضل أن تكون في بيته، وسأتيه أنا وعيالي قبل الحي كله إن احتاج معونة.

قبل الظهر كان كل رجل وامرأة وطفل في نخل شافي، يبسط أمامهم ما أعدّه فيتحلّقون حوله بأيديهم وألسن تنني عليه.

واقف هو على طرف البساط الذي مده له وقبل أن تمتد يد للطعام كان عليه أن يقول كلمة: حياكم الله على طعام لا يذقه من لن يجيبني إلى طلبي. - خيراً.

- الخير وجوهكم أوله، أما النعمة فمن رجل قسم حمولته بيني وبينه دون أن يقبض ثمنًا، أردت أن أرهن عنده بندقي وأبى، فحلقت ألا أرفعه في وجهه بعد اليوم، ولا في وجه سواه في العقيق.

توجس الرجال قليلًا، ومن لمس الدسم عاد فمسح يده في ثوبه: من صاحبك؟

- عمّوش.

تجهمت وجوه الرجال: أنت تعرف أن الغارات سلمنا، وتعرف أن أخاه الجبعة كان يريد أن يعين الهذاليين في حربنا.

عجت أصوات الرجال فاتضح بينها صوت لحوح: وتعرف أن جماعته هم من أراد رمي الجيفة في مائنا.

نهض آخر مبتعداً عن الصحن: إن كان لنا عند آل هذال ثأر واحد فلنا اثنان عند الفوازين.

أعلى من الأصوات الموافقة رفع شافي يده: نتحدث عن حرب أخذت أبي فلا تهاجموني وكأنني سلمت منها، لكن الغمامة على عيني قبل فعل عَمُوش انقشعت به، ماذا نتظر لننهي ما بيننا من دم؟

قال الشيخ غامزاً شجاعة شافي: أما ثأر أبيك فسنأخذه.. فإن لم ترد مشاركتنا في الحرب فلن نجبرك..

اقتحم أحد أبناء الشيخ الحوار ساخراً: ثم إننا لا نجبر نساءنا على حمل الرماح.

يضحك القائل وحده على ما حسبه طريفاً وينصب ساقه فتضربه يد بنياني بجواره على صدره: شافي رجل لا يترك الحرب خوفاً.. ولم تضربه في الحرب امرأة.

ابن الشيخ المضروب على صدره يحمرّ وجهه، وتبحث عينه فيمن حوله عن أخيه الذي ضربته فرجة، يغادران مقسمين على ألا تكون لشافي الكلمة الأخيرة في هذا الشأن.

في بيتهم يجتروا أمام أبيهم الحدث، ويلعن الأب حظه مع آل شافي: مات أبوه (رحمه الله) فقلت انتهينا من مقارنتنا به يتلف روحه في الحرب.. ويجيئنا ابنه ليتلف ماله ولا يحاسب ويطالبونا بأن نفعل فعله.. وها قد قفز على عادتنا دون أن يستشيرنا وغداً سيأخذه ربنا بيده ويشيخونه علينا.

صوت الطبول يتبعه الرمي في بيت أهل بتلا، تنقض صبايا آل بنيان صفائهن، ويتناقلن الخبر، على باب بيتهم تقف بتلا بين أمها وأختها خفرة وعمتها أم جابر، يرقصن والقيان يحملن خزانتها الخشبية وبعض أوانيهن وملاحفها عائدات بها لبيت أهلها.

رغم قصر المسافة بين البيتين يستغرق زحف النساء ساعة، تسير الطبول في أعطاف الحي كله، حتى لا تبقى في الحي حمراء ولا سمراء إلا وقد علمت ووقفت بجوار المطلقة.

في أول نخلهم يستقبلهن أبو بتلا هو وابنه وشافي بالبنادق، يقنصون ظنون الهوان في خاطر المطلقة، ويؤكدون أنها تعود في حمايتهم. يقبل شقيقها رأسها ويسمع كل النساء: إن كان قد طلقك فنحن رجالك الذين لا نطلقك.

في وثيل تقف مسيكة تحت سلم روشن نفلا مقطوعة النفس: يا بنت صالح! اعجلي.. بتلا طلقت.. وأمك تناديك.

وراء القينة يقف عمّوش ويحذرهما: لا تذهبي.

تشير للمشاة بأن تذهب على أن تلحقها وتناديه، يستدير ليعود للمجلس فترفع صوتهن: عمّوش.

كانت قد خرجت من أربعين نفاسها وعادت لوثيل من يومين، ظنت أنه سيحتج بذلك، تكتحل وتضع الدبرم على شفيتها فيدخل، يخطف الجذور المشعثة من يدها ويرميها، تخرقه بنظرتها المحايدة، تدني مقنعتها وتتجه لمهد صغيرتها، يجرها لفراشه ويحتضنها.

تعبت به: بك شيء؟

بوجه مشفق على نفسه إن هجرته يقول لها بصدق: بي أنت..

- ألا تريدني أن أرقص اليوم أيضاً؟!

يتمتع وجهه ويصد، بكفيها تحضن عارضيه الخفيفين وتدير وجهه إليها، يضحك ضحكة قصيرة: ستركين بتك أو ستأخذينها، ابقِي معي.. أما كنت تطلبين أن أبقى معك، وأن أرقص معك، فها أنا معك وأنت تريدين الخروج. صمت نفلا أربكه، توقع أن تبكي، ثم ظن أنها ستطيعه، ولم يتنبأ بأن ستذيقه دواءه، جمدت في مكانها تفحص السراج المتأرجح في الجبل الممدود من السقف، فحصد فتيله الذي أكلته النار فسود لهبها حواف زجاجته، بعد لحظات خرج وظلت تسمع خطواته وشيئاً كقرع طبول بتلا في الحي البعيد. علقت المهد الجلدي على كتفها الأيمن ونزلت إلى حجرة عمتها، تشكوه لها فسترضيها العجوز، تعلن أنه مخطئ وأن هذا ليس من حقه، تبكي بنت صالح والعمة تذكر مع ذلك مزايا ولدها، بألم تواجهها نفلا: «كان رجلي وشوقي فقهرني»

تضع أم عمّوش إصبعها على رأس أنف زوجة ابنها: لكني أرجوك يا أم سلمى ألا تعانديه.

\* \* \*

بين نسوتها تحاول نفلا أن تستعيد بسمة سرقها جبل آل فواز، تصل وقد وضعت القينة خزانة بتلا عند بيت أهلها، في ملعب مكتظ بالنساء ترى نفلا أمها ترقص شابكة أصابعها في أصابع ابنة أخيها بتلا، كل أغاني القيان ترفع اسم المطلقة على أي شبهة سوء.

تقبل نفلا بنت صالح فتلمح امرأة خالها تجول بين النساء، تحمل في يدها البخور لتمرره على المساندات لابنتها في وجعها، وتكرر مع كل كلمة مواساة: لعل في الأمر خيراً.. أخذها وهو لا يستحقها ثم طلقها وهي لا تستحق منه ذلك.

تخطف خفرة الطيب كاسرة تسلسل مروره لتبخر به نفلا، ترفع جدائلها ليتخللها البخور، ثم ترفع ذيل ثوبها وتلح على أن تضعه تحتها. تصم أذنها عن ممانعة نفلا وتنحني به تحتها، يتنفس العود والجاي غيومه العطرة تحت ثوبها الأحمر، ويختنق ممره الضيق عند الخصر فتظهر خيوطه المتلوية من جوانب وركيها. خفرة تصب الطيب في مفرق صدر ابنة عمتها ثم تشدها للملعب.

لطالما تمت البنيانيات مشاهدة نفلا ترقص، وقفت وسط الملعب فانسحبين منه ما عدا أمها وبتلا. ترقص النساء الثلاث وتلوم البنيانيات قيانهن فطبولهن لم تكن حية بما يكفي، ويلمن الطلاق لأنه لم يسمح بأن يرين ضحكة نفلا ولفتاتها قبل أن تضيف حركة رقص جديدة كلما اعتدن واحدة، يلمن الطلاق الذي لم يكن يسمح للجزء العاثر فيها بأن يتألق، لكنهن لم يعرفن الصراع الذي كانت تخوضه في مسافة ست خطوات من خارج الملعب لداخله، لم يعرفن أنها رقصت وعمّوش في رأسها ينهاها، لم يفهمين غير أن رقصها الذي لم يفقد براعته اختفى المرح فيه.

تسكت الطبول بعد العصر، فتسعى النساء صوب بيوتهن بعد عشاء متقشف، وتنسل الشمس وراء الجدران آخذة معها خضرة جريد النخيل إلى غدٍ.

تنصرف أكثر البنيانيات فتعلن نفلا أنها عائدة لقصر وثل، تنتبه أمها لتكدر خاطرها ثم تذكر أن بتلا كانت ولا تزال أعز صاحباتها.

خطواتها غير المتعجلة للعودة يثقلها هم مواجهة عمّوش، على عتبة الباب العريض ينقبض صدرها، وفي الداخل تستقبلها وجوه النساء مترقبة، تعرف أن عمّوشاً ينتظرها في الروشن، تقعد هي بينهن فتقوم أمه

إلى حجرتها، ويخفقها لطف الباقيات الطارئ في الحديث معها وتجنبهن السؤال عن تفاصيل الرقص في طلاق بتلا يوجعها.

مر أمامهن متجهًا لحجرة أمه، تأملته نساء يتعجلن مؤشرات غضبته عليها، في إدباره بدا أقرب لهن منه لها.

فرجة بنت راشد قالت لها في الصباح التالي ما حصل في غيابها: عمتي أم فيحان لم تهدأ حتى بعثت من العبيد من تبعك وعاد يخبرها أنك رقصت.. وعمتهم الأرملة قالت «بنت صالح لا تلعب في أعراس عيالنا.. وراحت تلاعب البنيانيين في طلاق» أما فيحان فسألني إن كان بينك وبين عمّوش شيء.. قال إنه لزم المجلس لا ينطق بكلمة ووجهه أسود.

كانت المرة الأولى التي يمد فيها عمّوش يده عليها، لم يوجعها ضربه، أوجعها إحساسها بالغربة عن كل ما حولها، روشنها كان المكان الوحيد الذي تحبه في وئيل، واليوم يلوثه عشيرها وهو يظن أنه يؤدبها.

لم يعد الصمت ضيقًا استثنائيًا في الروشن، صوت عمّوش كان الغريب حين قابلها بعد ليلتين وأخذ يدها: نفلا أنا رجل إذا ضقت..

نزعت يدها منه، ثم مهدت جسدها في ملحفتها، وبترت عذره بين لسانه ورفضها: ما هذا بفعل رجل!



لم تدخل نفلا روشنها حتى غفا عَمَوْش، لا تسلّم ولا تقترب منه، أوصت نفسها بألا تلمسه: لو لمسته فساأسامحه.

نامت عند مهد صغيرتها، وفي العتمة ظل يدرب بصره على تمييز تفاصيلها، ويحزن بقدر الكلام الكثير الذي يريد أن يخبرها به ولا تريد سماعه، يود أن ييوح لها بأن أباه ينازع، وأنه يشعر منذ شهر بأنه يتيم، يريد أن ترضى عنه ليحدثها عن رحلته القادمة بالموتر، يريد أن يعدها بأنها لن تستغرق أكثر من عشرة أيام، وأنه بعد رحلتين أو ثلاث سيأخذها معه للجنوب إن شاءت أو للرياض.

فتحت عينها على جسده يلتصق بها، تنفس مسك مسامه في عنقها فشعرت بإعياء، لَمَّ أصابعها في يمينه وضغطها فرجفت ضلوعها. حدثها فلم ترد. زفر بحسرة: الحال ذا إلى متى؟ وبخلاف أنفاسها التي تسارعت لم يسمع منها عَمَوْش كلمة.

إذا جافى جنب المرأة جنب رجلها اختلفت، ترى ذلك نسوة نفلا كلما التوت بهن في حي آل هذال، تحاول أمها أن تداويها بالطيب، تعجن لها الحناء وتنادي مشاطتها، فتصرف عن ذلك كله، تسألها خفرة إن كانت الصغيرة ترهقها فتتنهد ثم تطري طبع صغيرتها الهادئ.

نساء وثيل لاحظن انطفاء ضحكاتها وغياب البخور عن روشنها، سكت بعضهن وقالت بعضهن: يبدو أن عَمَوْش عاقبها بشدة على رقصها في طلاق بنت خالها.

أم فيحان أشاعت أن سحر الهذالية لجعيرش قد زال أثره. لم تنتظر كلمة السوء نهاراً حتى حطت في أذن بنت صالح، في جلسة النساء بعد العصر على السفح اخترقت حلقتهن، لم تسلّم ولم ترد على تحية. بركت على الأرض ترسم بسبابيتها دائرة حولها، أهالت التراب في حجرها ونظراتها النارية على

أم فيحان: ذا على رأسي منك يا عمة؟! منذ أن دخلت وثلل وأنت تتبعيني بكل كلمة توجع.. ولا يردك عن غيك شيبك (عند هذه الكلمة شدت عمتها مقنعتها على شعرات مصبوغة بالحناء في ناصيتها)

تضم أم عمّوش زوجة ولدها وتلجم فاها مقسمة ألا تشني ما قالت بكلمة.

العمة الأرملة وهي تحرث ذاكرتها بحثاً عما يفسر هجمة نفلا قالت: عيب عليك يا بنت صالح.. أم فيحان لا تخرج من لسانها كلمة معيبة أبداً. تترقب النساء التهمة التي سترمي بها المرأة عمتها، وأم فيحان في ساقها تردد: الله يبهتك! الله يبهتك!

تحضن فرجة صاحبها لتدير وجهها جهة القصر، تدفعها براحتيها إلى داخله: اذكري الله!

تخبرها نفلا بما قالته العمة في ظهرها فتشككها فرجة فيه: أسمعت الكلام بأذنك؟ عرفتك يا نفلا - وأنا طفلة - أعقل البنات، عمتي إن كانت قالته فقد أعطيتها ما أرادت، وإن لم تكن قالته فقد ظلمتها وغدوت لعبة في يد من نقلت لك الكلام.

يقطع الحديث صوت فنيس يبشرها: يا عمة يا نفلا.. أخوك رجع.

يسفر وجه نفلا، وتصفق بنت راشد يداً بيد: والله إن عيني ترف منذ يومين، عرفت أنه سيأتي.

تسابقان للسلام على الغائب، ظنتا أنهما ستهبطان الجبل فإذا به على عتبة وثلل، تضمه نفلا وتساله فرجة عن أحواله، يشير لفنيس بأن ينزل من ظهر بغيره حمولة لعمه عمّوش: ترفق بها، ولا تقرّبها من لهب، ثم الحقني بالبعير في نخيلنا.

لم يكن العقيق قد شفي تمامًا من الجوع لكنه استعاد بعض أمله، سواعدهم التي لقحت نخلًا أكل الجراد أكثر طلعه عادت ترعاه، آل هذال عدّلوا عذوق البلح الخفيفة في نخيلهم، شدوا بالليف أصولها إلى الجريد لتكون على مستوى واحد، ابتهلوا الله أن يبارك في قليلها وأن يفرحوا بها تيجانًا تكلل هامات نخلهم ككل عام، ثم على جسرهم الذي أصلحوه تبادلو نصائح حول ما يجب أن يزرع ليضمنوا كفافهم حتى ينضج الرطب في عذوق النخيل، يطمئن بعضهم بعضًا بأن ما أكله الجراد من خضرتهم وأشجار السمر في شعابهم ستعوضه الأرض بسرعة: «رواها قشاش وهو صادق»

في وئيل كان مجلس عزاء الشيخ فرصة عقد مقايضات خفيفة الصوت لتتاج العام القادم بمؤونة العام الحالي، فغياب الرجل كان مسألة وقت، وقد تهامس بعضهم بأنه غدا جيفة قبل موته بشهر.

في مجلس آل بنيان أتب الرجال شيخهم على غياب شافي: أخونا وابن عقيد حربنا.. وتنفره أنت وعيالك من مجلسنا.. أنتظره حتى يني له مجلسًا ويعتزلنا؟ سنغدو فريقيين في حي واحد.

يأخذه الشيخ من مسجدهم بعد الفجر للمجلس: يا ولدي تتجنبنا ونريدك..

يعتذر شافي بأنه ذاهب للحطب ويقسم الشيخ ألا يشرب القهوة إلا معه. وجوه كثيرة أشرقت في المجلس حين رأته والسلام الذي يتفقون به بعضهم بعضًا بعد كل ليلة ذهب جلّه له، ابتهج شافي وتعامى عن بغض قرأه في عيون عيال الشيخ.

تدار القهوة ويتوجس شافي حين يدخل أصغر عيال الشيخ الذي منعه من قتل جابر، عمامة الشاب معصوبة على رأسه وأكمامه مشمرة، انتزع الدلة من

يد شقيقه ليصبها للرجال، بدأ بمن على يمين الوجار موزعاً قهوته، مصعق سخر من شافي «لن يمدك بفنجان، سيتخطاك ليقول كالعادة أنك لست رجلاً».

وضع ابن الشيخ الفنجان في يد الجالس عن يمين شافي بما يشبه الزعيق: «سَم»، يتناول الرجل الفنجان: «سَم الله عدوك»

مترثاً خطر أمام شافي، صبّ القهوة ثم تعذاه ماذا التالي بالفنجان، انتفض شافي وخطف الدلة من يد من أهانه وصكّ بها وجهه فاخضرت ثياب ابن الشيخ واسودّ وجه أبيه.

التحمت أجساد عيال الشيخ بجسد شافي وهو ينفضها، تعلو مطالبات الكبار بإيقاف العركة، والشيخ يفتور بينهاهم. حين رجحت كفة شافي عزلهم الرجال عن بعضهم بعضاً بحزم، فصاح الشيخ به: «اخرج.. لا تحدث فتنة».

\* \* \*

على لسان أم بتلا الذي يلهج بذكر شافي منذ الجوع مرت عبارة «شافي راعي أصيلة وقصيلة» تقولها فتذكر بتلا حديثهما القصير وسط نخيلهم، تتساءل إن كانت سنابل النصي التي تكلل حواف بركته الصغيرة ستنبت مرة أخرى بعد أن نهبها الجراد.

تحلم بتلا بشافي يطرق بابها، الجوع الذي صنعتة الحرب في حيها كان مضاعفاً في نخل أهلها القليل، ورغم أنها تعمل فيه عن أربعة فما زال البلح الذي يتبرعم في رؤوس النخيل قليلاً، بذرت كل حبوب وجدتها في حجرة أمها، وانتظرت شافي فأبطأ، قالت للمشاة التي تحثها كلما زارتها ألا ترد خاطباً: لن آخذ إلا من يشبعني..

همزت المشاة خاصرتها: عينك على أحد؟

بعد ساعة كانت المشاطة تخطر بين جداول جيرانهم آل شافي، سألت أمه عن عركته الجديدة مع عيال الشيخ في المجلس، فاضطرت الأم لتبرير فعل ولدها: والله ما كان ولدي ممن شره في وجهه لكنهم يغارون منه.. وأسأل الله أن يشغلهم بأنفسهم..

بعد سيل دعواتها على بيت الشيخ سألت أم شافي المشاطة سؤالاً أرقها منذ حادثة الفنجان: وولدي رجل ماذا كان يجب أن يفعل وهم يستثنونه من القهوة؟!

ضحكت المشاطة وغمزت أم شافي: ولدك ليست حاجته لقهوة.. ولدك يريد امرأة.

ضحكة أم شافي كانت أقرب للمباغثة أكثر منها للخجل، أقنعتها المشاطة أن مشكلة ابنها أنه شاب وبه طاقة لا يستطيع تصريفها: وأنت - هداك الله - تربيته كما تربين بنتاً، وتنتظرين من يأتي ليخطبه.

تدافع الأم عن نفسها: والله إني قد فاتحته في العرس..

- فماذا قال؟

تذكرت أم شافي أنه وافق فعلاً، ولم تتذكر ما أرجأ الموضوع مذ أخذت منه الإشارة، استجوبتها لها المشاطة: فماذا قلت له؟

المرأة التي تولت خطبة نصف بنات الحي تستجوبها، فركت أم العريس راحتها بخجل واعتذرت عن كلام بدا في وقته حكيمًا: قلت أنت تريد امرأة مرقد أم امرأة نخل؟

وبختها المشاطة غير مخفية إحباطها: أهذا ما فتح الله به عليك؟ فأنا عندي امرأة المرقد والنخل.. ابنة جيرانكم بتلا.

زاوية الدفاع التي انحسرت فيها أم شافي عادت تنطلق منها مهاجمة: حسبتك ستأتين بعذراء لم يقبل فمها رجل.

لم تأبه المشاطة بالمأخذ بل اعتبرته ميزة: بتلا أفضل له من البنيات.. العذراء ستتعبه وابنك خجول مثلك.. العذراء تفر من صاحبها كغزال وحشية، فإذا أمسكها جمدت كجيفة..

قبل الليل أرادت الأم حسم زواج شافياها: بتلا بنت جيراننا عقل وثقل، وتعرفها وتعرفك.

تستغل الأم سكوته فتسرد على بكرها المهام التي يجب إنجازها في صيغة أسئلة: أنبني روشنا في أعلى البيت أم نحجب حجرتك هذه لعروسك؟ ماذا يجب أن ندفع لهم؟ هل يجب أن نعجل بالدفع لنعينهم على حالهم؟

\* \* \*

ذاكرة العقيق التي تؤرخ الزمن بالأحداث على وشك أن توشم بنفلا، موت أبي عمّوش أرجأ قراراً اتخذته، الهذالية الأخرى في وثيل شعرت بأن صاحبها انسحبت من كل اهتماماتها فجأة، ثم قلقت فرجة أكثر حين رأت نفلا ترد مسيكة التي جاءتها في موعد المشاط الأسبوعي.

عمّوش جمع الفوازين على عقيقة ابنته قبل أن يغادر للجنوب. توقد نفلا التنور وتومئ أم فيحان لفرجة بألا تعينها في إعداد الوليمة، همست فرجة وساعدها في إناء العجين مع نفلا: عمّتي تحوم «كعز في مخاض» لا تريدني أن أساعدك.

نفلا التي ملّت ذلك كله لم تضحك، لم تقل في حق العمة كلمة ولم تكرر تعجبها من كرها لها بلا سبب، من بين عسبان النخل المجردة من

خوصها في الزاوية التقطت واحداً، سألت بنت راشد: أظنين أنه جف بما يكفي لأستخدمه؟

قبضت عليه فرجة بيديها الاثنتين، يجب ألا يكون عرضه أدق مما تريد المرأتان فينكسر ولا أعرض فيدي أيديهما، بعد أن اطمأنت له عرّضت قاعدته للهب ثم فكرته براحة يدها ليكون أملس لا يتفتت منه شيء في أقراص خبزهن الحارة.

تلصق المرأتان بحواف التنور الحامية عجبنهن، الصمت الجنائزي الذي فرضته نفلا أخرس صاحبتهما، ولم يتخلل فترة انتظار نضج المخبوز كلمة، أخرجتا عشرة أقراص ناضجة، وفي الميعة الخشبية ضغطت فرجة بالعسيب الأطراف الخارجة من فوهة الإناء الخشبي للداخل.

بركت أم سلمى على ركبتيها، قابلت فرجة وثبتت مثلها الميعة بفخذيها، غرزت العسيب في القرص الذي يتشكل بجهدهما كتلة عليهما أن تليناها قبل أن تبرد، سوّتا وجهها وبقبضتها حفرت نفلا فوهة ملأتها بالسمن، ثم رصت قطع اللحم الكبيرة حولها.

بعد أن حمل العبيد إنائين كبيرين من بر وسمن ولحم قررت فرجة أن تحكي لصاحبتهما سيرة عشق، فهي الحكايات الوحيدة التي تنبهر بها نفلا، روت بنت فيحان سيرة هذالية تحفظها، تقول لنفلا: قالت أُمّي عنها وعن رجلها رحمهما الله ما كانا ينأمان إلا متعاقبين.. يدللها إن ناداها، وتلبيه داعية بأن يسبق يومها يومه ولو بلحظة، لا يجلس إلا بجوارها أو رأسه على صدرها.

نفلا جثم على صدرها شوق لعمّوش لم تشعر به في أطول غيابه، بلعت غصصها ودارت في باحة البيت، تصل جدار الشرف وترجع، قبضت فرجة على يدها: والله إن بك شيئاً.. والله ما هو بالأمر الطيب.

بريق الدمعة في عينها بدده صوت فوازي يسأل عمن أعدت الطعام ليثني

عليها باسمها، عرفت أن سبحتهم ستنفط وأن أعجلهم سيخرج، انفلتت من يد صاحبها واقتحمت المجلس، انخرس صخب رجاله، ارتعش جسدها كله وغشاوة على عينها تعمي بحثها عن صاحبها، طأطأ عُموش حين انسكب ظلها على كتفه، بردت عظامه وهي ترمي مقنعتها في حجره: «طلبك فلا تردني»

عمي الرجال عنها، تمنى بعضهم لو نهض ورجاها ألا تطلب. رفع عُموش قناعها الذي حجب عنه وجهها ليالي طويلة، فركته أصابعه بخيبة، فثار منه عنبر سيشمه كلما سمع اسمها أو لمحها فجأة، رفع رأسه والحسرة بحلقه الجاف تشقه: طلبك مجاب يا أم سلمى.

- رقتي.

- أنت طالق.

\* \* \*

خمدت طبول حملت حاجات نفلا من وثيل ما إن وصل العبيد حي آل هذال، لم يكن بأحد طاقة ليدعي عدم الحزن نيابة عنها. تركوا نفلا تحرث ذاكرتها، تراجع ما يجب أن تكون عليه المرأة لرجلها، واجبها تجاهه وتجاه أهله، وكيف تحبه، وكيف تقول ما تريده حين تغضب، الصداق الذي يفتك برأسها تخففه بالتوكيد بأن أي معرفة لم تكن لتتفعها مع عُموش وأهله؛ ألسنتهم توجعها على كل لفظة، أما هو فظل يدرّبها لسنوات على ألا تشبه في شيء البنت التي اختارها واختارته.

بين لومها لنفسها واتهامها لوثيل لعنت القصر الذي يعد الإفصاح عن الحب أو الطرب خطيئة، ألمها لم يكن له من حل غير أن تدفن أطلال وثيل في خيالها، لم تعد سيرتهم تأتينا إلا من خلال فرجة، ومع حذر بنت راشد



ألا تنطق بكلمة كان وجودها يذكر نفلا بهم جميعاً، كلما التقت الصديقتان صمت الكلام بينهما، حتى السلام بينهما ينبر قبل أن تسأل صاحبتهما عن فيحان لأن ذكره سيفتح باباً يعيدها لروشنها بسرعة.

أما طليقها الفوازي فقد أمطر الكمد على قلبه طويلاً، حزن عمّوش حين مات أبوه، لكن طلاق نفلا هو ما يتمه، المرأة الوحيدة التي أحبها لا يفهم كيف تغيرت؟ كيف ابتعدت حتى صار الطلاق عندها أمنية ترميه بها مع مقنعتها عند الرجال!

يراهن رجاله على الأيام لتشفي جرحه، ويصارحه أخوه فيحان بقلقه: حالك لا يسر.. وانطواؤك يخيفني.. من خلق بنت صالح خلق غيرها، بدل المرأة ألف امرأة، إن كانت عينك على واحدة سمها وأنا أخطبها اليوم، وأدخلها عليك غداً إن أردت.

يأتي الأخ بعروضه في الوقت الذي يصوغ عمّوش قصيدة للحبيبة. يبتسم في وجه أخيه نصف ابتسامة، يعود لروشنه الخالي من ثيابها وضحكتها، يفكر بأن يبعث أحد عبيده ليأتيه بسلامي، لكنه لم يرد أن تشك نفلا ولو للحظة أنه سيساومها بها، بعد أسبوعين ودّع أمه وأوصى فيحان بابتته، ثم اتجه للجنوب، أقسم أخوه أن يرافقه، فحسم الأمر بكلمتين: بل تبقى، وبعد ذي الرحلة لن يذهب بتجارتنا إلا أنت، أنا تعبت.

يتذكر كيف كانت تحند وتبكي وتنتظره ليسألها عما يزعجها، ويندم لأنه كان يتغابي عن إشاراتها في كل حكاية، يتذكر كيف يتكدر وجهها ويظلم حين يمنعها من الرقص، لكنه لم يفكر بأنها قد تبتعد. في دربه صوب الجنوب هذه المرة يُحزن بصمته مرافقيه، لا يغني ولا ينصت لحداء، وفي السراب المتراقص على حواف دربه لا يرى أملاً.

خبزة السلطة رَغِيف حُلْم مالح، حتى لو أشبعت تظمئ؛ من يقضم منها تجثم على صدره برؤى مختلفة، الشيخ فيحان يدخل مجلسه، يقعد في المحل الذي شغل من عَمُوش وأبيه، تدار مع القهوة أخبار العقيق، يحكون عن صيف يتصرَّم وخريف سيقبل ويتساءلون إن كان آل بنيان وآل هذال سيأتون على الموعد لمعاهدة الغوص عند مريفة.

- أخي عَمُوش معه حق.. هذا العهد لا مبرر له.

تعج الأصوات في وئيل لتصيح له فكرته: عَمُوش أكثر من في العقيق حرصًا على ألا نحارب بعضنا بعضًا، ولو وجد شجرة تلزمننا بعهدٍ ستتناكلها لفعل.

بعد أن يغادر الكهول تنوَّخ ألسن رفاقه في طرف نخيل أبي هليل، قال صاحبه. الأعرج: حظ الصانع طيب، نخيله سلمت من قشاش ثم من الجراد.

- إن حلَّ صرامها نصبَّحها ونقطعها.

سهولة نطق الفكرة أخاف بعض من في المجلس: كيف نقطع نخله؟ هو جار آل هذال وصانعه، لن يدعونا وما نريد.

يتوجس بعضهم ويسخر عاقلهم: هذه سنة سوء إن ابتدعتها غدت عارًا علينا.

- هو جار آل هذال، وعاره في وجوههم، وهم بعد كل ما مر بهم في حربهم مع آل بنيان لن يدافعوا عنه.. الغارات أنهكتهم..

لم تكن النوايا المصحوبة بالضحكات جادة، لكنها باتت جزءًا من روح مجلس وئيل. سكّت رفاق فيحان لحظات فعاد يشجع صاحب الفكرة: إن كنت بحاجة فاصرمه وقل للصانع سأرده له حين يرزقني الله.

بعض من في المجلس قدموا نصيحة لفيحان باطنها تحد لصاحبه: دعه  
عنك يا فيحان: صاحبك رجل نواياه أطول من فعله.. الرجل الذي سقط عن  
ظهر موتركم وكاد يفقد رجله لن يرتقي نخلة ولن يقطع عذوقها..

هرم من رفاق الأب الذي لم يجف قبره نهرهم: لا يكن الرجل فيكم  
كالعنز التي تبحث عن مذبحها..

طمأنه بعضهم: نمزح يا عم.

فرجة أيضًا لم يعجبها مزاح فيحان ورفاقه حين سرده لها، أكثرت على  
فيحان فاحتد لاعتنا الصانع «ضائع الأصل» الذي يحذره الكل أن يكدر  
خاطره.

قالت له امرأته: لا يهمني الصانع قدر ما يعينني ألا تستسهل قول كلمة لا  
تحسب لها حسابًا ثم تجرك إلا ما لا تريد.

نبوءتها كانت مختلفة جدًا عن رد فعل حيها لما وصلهم وعد فيحان  
لرفيقه بنخل أبي هليل، جاء الصانع يشكو إليهم: أنا جاركم إن صرموا  
نخلي فكيف أردهم وأنا لا حول لي ولا قوة؟! فضحكوا وطمأنوه: اصبر  
حتى موعد الصرام، لترى أن كلام فيحان «خطبة قريع في قلبه»

ينسى فيحان حكي المجلس حتى يعود صاحبه الأعرج بعد أيام ليذكره  
بوعده: تعرف يا شيخ ألا نخل عندي، وأني كنت أعين جيرانني في نخيلهم  
فيعطونني صرام أربع نخلات.. وهذه السنة لم أستطع إعانتهم (وهنا  
وضع يده على فخذه ليذكره بالإصابة القديمة) وقد وعدتني ونحن نشترى  
الموتر بأن أكون معاونك في تجارتك، وها هي الأيام والشهور تمر ولم  
نخرج من العقيق مذعدنا إليه.

تعزل نظرات آل فواز فرجة فتصقل ولأهلها، يظنون بها ظناً ويخشونه، في طوق التحفظ الذي يضربونه حولها تشتاق الهذالية صاحبها نفلاً، وتفهم كيف كان الحكيم يوجعها حين كانت تسمعه وحدها.

تقرر فرجة أن تزور حيفا فيستجوبها فيحان، تخبره أن جابراً عاد وأنها ستذهب للسلام عليه. بدل أن تتجه لنخيلهم تذهب للجسر، ويفز لها الرجال ويتلقاها جابر وهو ينشد مرحّباً، يراقصها رافعاً يداً كعنق راحلة باتجاه الضيفة، وتقابله فرجة بابتسامة وبراحتها المفتوحتين. تأخذ الجمع نشوة طرب فيغني بعضهم ويطلب آخرون، ثم تخفت الأصوات حين تصله، يقبل رأسها وتقبل جبينه.

يتحاشى رجال الحي ذكر آل فواز أمامها ويأخذونها للمجلس، يحيي أحدهم ناره، ويطبخ آخر قهوة، يمدونها بفنجان فتقول بجدية: أهل الجبل ورائي شرهم في وجوههم.. وقد سمعت في لفظ عيالهم ما لا يرضي فخذوا حذرکم.

يفرز القاعد بجوار النار ملقط الحديد في قلب الجمر فيزفر جوفه ذهباً على وجوه الجلاس، يطمئنهم شيخهم بأن شيئاً لن يحدث، محاذراً ألا ينال رجلها بكلمة.

تعود لوئيل وقلقها أعظم، والكلام الخشن يغزل صوف الكراهية بين جسر أهلها والجبل، تعلق في حبال الخصومة أرجل كثيرة، في الانتظار المحبط لموسم صرام يثقون بأنه سيكون شحيحاً يروي أحد البنيانين أن فيحان قال: «فرجة عليّ مثل أمي إن لم نصرم نخل الصانع وإبليس يرقص بمشعابه» وحين يصل القسم للهذالين ينسج شاعر هذالي تهديداً أقوى للشيخ الفوازي الغر ليغنيه الصغار في المسيل:

«لأبد من يومٍ على راعي وئيل لا أصبح إلى أمه تصفّق من غلاه»

فئيس عند بئر في سفح الجبل يملأ قرب قيان القصر، يقبل عليه ابن قويت مبتسمًا وعلى لسانه سلام طويل، لم يتركه فئيس ليطمه، دفعه بكتفه ونهر قينة يفيض الماء من قربتها. تذكر ابن قويت سرقاته من القصر ونخيله الأسابيع الفاتئة، خشي أن يكونوا قد علموا، لكنه أثر أن يتأكد مما يعرفه عبدهم منها، سأله: علمك؟!

شمخ فئيس رافعًا ذقنه وطبول الحرب تقرع في صدره: اليوم أو غداً نتقابل وإياكم في المسيل وتسمع علمي.

يتلفت الحبشي في وجوه القيان فلا تتبرع إحداهن بتوضيح، يفهم أنه يتحدث عن الوقعة المنتظرة، يتسم لقينة مغادرة ثم يمط شفثيه ويدلي رأسه وبصوت أجش يشد يقلد فئيس: «نتقابل وتسمع علمي.. شايب وخبل».

تضحك القيان ويغتاز فئيس: رح لأعمامك وقل لهم إن لم نصبحهم مسينا هم.

تنفضّ القيان بقرب ممتلئة وأخرى خاوية ويتخذ ابن قويت هيئة جادة وهو يقترب منه مصوبًا مع سبابته أخواتها نحو رأس صاحبه: «أنت مثل الذي كسر شداده وأرنه في الهشيم»، ثم أشار بكلتا يديه صوب المسيل بين الحيين: الآن تسقيهم فإن لحقت الشر فلا تبخل بمجهودك.

- أيعني ذلك أنك لن تفرع مع أعمامك؟!

- ليسوا أعمامي.. إن كانت أمك ولدتك عبدًا فلا يغرّنك لوني.

رأس فئيس المتعرق صدّعه التفكير في الرابطة التي حلّها مناظره بين اللون والعبودية، يقترب منه ولهائه يفضح إصراره، يزعق بصوت أجش: فلن تفرع معهم يا الرخمة!

يدرك ابن قويت ألا مفر من صاحبه، وأن عليه أن يتصرف بسرعة؛ انحنى

وكأنه سيرفع دلّواً عند البئر، وبسرعة صكه به بقوة فأوقعه ثم زفر: ها قد كفيتم نائبتك أنت هنا.

تتخطب يد فنيس بحثاً عن جذادة حطب قريبة، يصيح: «في ذمتي لألعن والديك» وقبل أن ينهض التقط غريمه قطعة السمر وشج رأس فنيس بها، ثم نظر له سابقاً في دمه: ها أنت ذا أخذت نصيبك من فزعتك لأعمامك وقد كنت في غنى عنها.

\* \* \*

خبر وقعة فنيس وابن قويت تناقلته ألسن أهل الوادي كطرفه، لكنه ثور في حلة عبيد آل بنيان كالرمي في ضحى العيد، ثم تنازعوا حول أصل ابن قويت: أهو من العبيد أم لا؟

تبعوا سيرته باحثين في جذر نسبه القصير مثلهم فقال بعضهم: هو عبد ولو شمش بأفنه الرهيف علينا.

أكد كبار السن فيهم ألا أحد في الهذالين يملكه، قالت مشاطة الحي: من سوء حظّه، فهو إن جاع لم يجد من يطعمه، وإن اعتدى عليه أحد لم يجد مدافعاً عنه.

وافق كثيرون على كلامها فسخر منهم جمعان: أما أخذ قشاش حلتنا هذه فما وجدنا من يعيننا في بنائها؟ ثم من ترجونه ليدافع عنكم؟ أسياذكُم لن ترجو مرات من خيرهم غير أن يكفوكُم شرهم.

عارضه أحدهم: هذا جحودك وأنت ترعى في بيت شافي فكيف لو كنت لا تزال بين عيال الشيخ يصبحونك بضربة ويمسونك بأخرى؟

أضحكتهم الضربات المتخيلة فهز جمعان رأسه: شافي - بيض الله وجهه

- لن تسمعوا مني فيه كلمة سوء، لكن حسن فعله لن ينسيني أني عبد وأنني كنت معكم أمس نغني لأجل خاطر هذه حسرتها القديمة على ولدها الذي باعه سيدها، يشير بيده لقينة بينهم، بالبياض على بؤبؤ عينها التفتت جهة صوته وغنت:

«كل ما قبل يا سالم فز قلبي لطاريه  
جعلها تلحق الظالم مامعه حشمة ليّه»

قال جمعان: من منكم يرد عن نفسه مشيئة سيده إن أراد بيعه؟

ضحك مجاوره: يا رجل باعك عمك وكان لك في الأمر خير.. أما ابن قويت فهو عبد وإن لم يشأ أن يفهم.. يتكبر علينا بجده الحبشي، وهو في نخيل آل هذا لا يرحل عنها، ولا يستطيع أن يخدم غيرهم ويجب أن يرضى بما يعطونه وهو يعيش ويسكن بين عبيدهم فهو عبد ولو لم يملكه أحد.

\*\*\*

يقبل أبو هليله على نخيل آل راشد، وتلكأ أم فرجة في النهوض للسلام عليه، تعرف أنه سيفاتها في مشكلته مع فيحان، كيف تخبره أنها تحدثت من قبل مع زوج ابنتها الفوازي فلم تسمع منه ما يرضيها؟

- أمس - يا عمه - كنت في حي آل بنيان أنقل خزانة عروس أعددتها، وسمعت عندهم حكاية.. ترافق اثنان منهم خارجان من العقيق يقصدان الرياض، سمعا عن المال الذي يمنحه ابن سعود لمن يقصده، ضاعا في الديرة أول يوم، وما وجدا القصر إلا بعد صلاة العشاء في اليوم التالي، ووجدوا أبوابه مغلقة. كانا قد قابلا بعض «الحرفية» في البطحاء، وقد سمعوا منهم عما يشتغلون فيه من أعمال تنهب عافيتهم ولكنها تأتيهم بمال، قالوا لم لا نعمل صباح الغد فإن أعطينا في الليل عدنا لديرتنا، وإلا فسيكون معنا ما

نعود به لأهلنا بعد أيام.. أخذهم عتيبي معه لينوا لامرأة حجرة في بيتها. قالت لي صاحبة الخزانة إن صاحبة البيت كان تقطع نهارها بمشاكستهما، مدتهم بلبن وقلبت بصرها بين الرجال وباغتتهم بصوت ترققه: «الحرفية لهم أهل؟» ضحك الحرفية والطين في أيديهم، ثم أجاب أحدهم: «لا.. الحرفية فقَّع ينبت بعد السيل»

رغم أن أم فرجة فهمت مغزى الحكاية إلا أن أبا هليله أكمل: يا عمة نسيكم فيحان تجبر علي وعلى نخيلي.. لأنه لا يعرف اسم جد جدي فهذا يعني ألا أصل لي؟ رفيقه الأعرج يسارحني ويمارحني في نخلي، يخرف منه ما يشاء ويأتي بعييد يريهم ما سيصرمونه إن نضج التمر.

دموع الرجل التي يكتبها لحقها نسيجه، ولم تعرف أرملة راشد كيف تسكته، حوقلت عدة مرات مترددة في أن تخبره بما دار بينها وبين فيحان، ثم قررت صرف عتبه لناحية أقرب: أين رجال آل هذال؟! أنت فيهم ومنهم، كيف يتركونك تواجهه وحدك؟!

يفصح عن حسرته: شكوت لهم فلم أسمع إلا تطمينات بأن ما يقوله لن يستطيع تنفيذه، لكن..

الصانع الذي حاول التماسك حتى الآن استعبر فلم تعد أم فرجة تفهم منه كلمة.

\* \* \*



تعرف المرأة عشيرها كما لا تعرفه أمه، في ظلمة الرواشن المحجوبة تتعري حاجاته فتصفح المرأة روحه، فإن حجب لسانه عنها نية أو موها عرفت ذلك في نظرتة ونبرته ولمسته.

جاءها فيحان بخطوة ثقيلة، نظرتة المراوغة وإغلاقه البطيء المحكم للباب وشى به، تأكدت أن نية الإغارة على نخل أبي هليل صحت. دخل فراشه بثوبه وأغمض، فتذكرت الماء: ريقى جاف وظننت أنك ستأتي معك بماء، يتركها تخرج فتجري صوب باب القصر، تحاول أن تفتحه فتأكد أنه محكم الإغلاق.

تعود لحجرتها فتجده قد أغمض عينيه، بعتب تقول: ستنام قبل أن تحكي لي أحداث يومك؟

يتذرع بالإجهاد وبالمجلس المكتظ وبالنخيل، فتركه ليرق نفسه بسرد الحجج وتتجه لخزائنها الخشبية، فوقها ماعونها المطيب، رفعت الرداء الذي يغطيه، حركت بأصابعها خليطه الدبق ففاح نبع طيبه.

تشم فرجة الرداء لتخفف برينحه ضربات قلبها، أشارت لفيحان بأن يخفض نور السراج، وبأطراف أصابعها رفعت ذيول ثوبها، وانسلت منه، قميصها الأحمر القطني تواطأ مع قدّها على فيحان، استدارت لتعلّق مقنعتها فتوسد يده يتأملها، يقرصه إحساسه الدائم بتضاؤله أمام قامتها الفارعة، أما هي فتبدو لها مخدتها الطويلة جثة هذالي تجتهد ألا تضع لها وجهًا.

ابتسمت له فمد ساقه المثنية، حلت على مهل ضفائرها وعينها عليه، نشرت خصلات شعرها على صدره، ارتبك فهو يعرف خاتمة هذا التقارب، شد خصلة ونفضها كما ينفض عنان فرسه، عند هذا الخاطر تجهّم وجهه، وعرفت هي أن خاطر الغارة عبر رأسه، قبلت عنقه فأداره بعيدًا عنها، غضبت نياية عن حي آل هذال الذي يريد صاحبها أن يغدر به فجرًا.

في حضنه تندس ويتباعد، أصابعها تعبث بلحيته القصيرة المشدبة، وتغطي وجهيهما برداء الطيب.

حين يخر على وجهه تهدأ، وجهها لباب حجرتهما المغلق، وأذنها تنتظر أول شخير، تصبر حتى تعتاد عينها ليل الحجره الحالكة، ثم تمد يدها لثوبها، تنسل حاملة ملحفاً، تفتح الباب وعينها عليه، ثم تجري صوب أقصر جدار للقصر عند الثور، ترمي الملحف على الجدار وتصعد حوافه الطينية المسودة، بيديها ترفع جسدها الفارع على الجدار، تعتلي الجدار ثم ترمي الملحف خارجاً وتلقي بنفسها عليه، تتلفت في ليل بهيم ثم تشق قلبه منحدره من جبل آل فواز صوب أهلها. من أول النخيل تخلع مقنعتها، تلوّح بها: يا أهلي.. يا أولاد هذا!

قلب الحي ينبض بأقدام رجال ورماحهم، يركضون ناحية الصوت، تصافحهم جدائلها بطيب الليلة: جاؤوكم.. جاؤوكم.

- خير؟ خير؟ من؟ فرجة؟.. علمك؟

تعطي الرجال والرماح العلم في كلمتين، دوي البنادق يرتقون الأبراج، ويصطف الرجال برماحهم أمام النخيل.

ينهض فيحان فلا يعرف كيف يخبر جماعته بأن امرأته سربت خبره، يسكت ويقبل معهم يسابقون الفجر فيلقاهم البارود، وتتخطف نواياهم الرماح، فيرتدون للجبل في ساعة.

\*\*\*

في مجلس آل هذال ضحى يتجادل الرجال فيما يجب أن يفعلوه، يقول بعضهم إن فيحان لن يكرر فعلته، وإن عمّوش الذي يوشك على العودة لن يرضى فعله، ويقول آخرون أن عليهم أن يؤدّبوه حتى لا يجرؤ على التفكير في نهبهم مرة أخرى.

لم يغادر جابر مع الرجال نخل أبي هليل، ترك الصانع ينوح حسرة على نخل إن لم يصرمه الفوازيون اليوم صرمه غدًا، وسار في النخل يفحص من أسفل الأحواض عذوق النخيل التي توشك أن تغدو تمرًا، بعد لحظات ناداه: ربنا سيظلون متأهبين ليلة أو ليلتين، وفيحان لن يرجع ليحاول مع رجاله نهب نخلك قبل عدة أيام، أحضر كل ما لديك من خيش لنكمنه.

- لماذا؟

- لينضج أسرع.

فجر اليوم الثالث جمع جابر من يستطيع من عبيد ووقف بأول نخيل أبي هليل يغني:

«من لا يعجينا والبلاد مخيفة لا خير في جيته والدنيا عوافي»

تحزم كل من سمع النشيد من الهذالين، حملوا رماحهم وتقلدوا بنادقهم، سابتهم النساء بالحصر والزنايل، وأوقدت مسيكة نازًا بناحية تطبخ عليها غداء للصارمين.

تهدر أصواتهم بنشيد يرحمون به أهل الجبل:

«غرس أبو هليل حنّا نظام له نصرمه والردى عينه تخايل»

بعد العصر كانوا قد انتهوا من صرام نخيل قصيرهم كله، أدخلوه حجرة تمره، وأهازيجهم تصعد للجبل وتخرج فيحان.



## (10)

تغير المرأة في الرجل قليلاً أو كثيراً، بإرادتها أو دون أن تدري، وأحياناً دون أن يعرف هو أن كلمتها غيرته. في موضع تناوب عليه جده وأبوه وعموش قعد فيحان، ومع حاشية لا تشبه رجال أخيه يخلط لسانه وألستهم معروفًا بمنكر، يتوعدون الهذاليين: غداً أوقد عليهم أطراف حيهم، ويعرفون من الرديء، صدورهم تغلي، ويربّون بوادر غارة على آل هذال .

غضبته على فرجة كانت مضاعفة، فالفحلة التي اختارها على بنات الجبل انحازت عنه لأهلها، قرر أنه سيؤدبها وسيحبسها إن عادت لكنها لم ترجع لوئيل حتى صرمت نخيل الصانع مع أهلها.

وجدها في حجرتهما تلك الليلة فارتبك، لعن آل هذال جميعاً وتوعد بأن يوقد في نخيلهم حرباً يشيب رضيعهم دون أن ينساها. تستمع له وهو يزبد ويحوم في الحجرة ولا يصدر عنها نفس، سيل اتهاماته ولعناته يخف تدفقه فتطول الوقفة بين جملة وأخرى ولا تنطق رفيقته، بعد أن يجف جدول الحكي في لسانه يظل ينظر لها وأنفاسه تشق صدره، تقترب منه خطوة فيرتد للباب ليخرج، تحول بينه وبين الخروج ثم تقبل أنفه: غاضب مني؟

يخطط الباب الذي غافلته وخرجت منه: أردتك عوناً فانقلبت عليّ..

- عوناً على أهلي؟! نهيتك من قبل ولم تطعني، ولو فكرت يا فيحان فيما حصل لعرفت إنني أعتك على نفسك..

- جعلتني في ألسنهم.

دافعت فرجة عن نفسها: أنت جعلت نفسك في ألسنهم حين أحطت  
نفسك بأخس رفقة وما أحسنت وزن الرجال في حيي.. فإن فاتك فعل دنيء  
مرة فلا تجعل الفعل الطيب يفوتك كل مرة.

ارتد فيحان لمجلسهم فوجد فيه شافي بن ببيان، انخرس المجلس الذي  
لم يدخله بنياني بعد قشاش، يدخل فيحان وأصوات رفاقه تقاطع البنياني:  
ألا تعرف عاداتنا؟!

يقرع أحدهم بقاع بندقه الأرض: إن سالمناهم اليوم تكن سبة يذكر بها  
أحفادنا (يعلو صوته وهو يرفع البندق ويشير بماسورته تجاه شافي) وأول  
من سيعايرنا بها حيك.

يهز شافي رأسه: الكلّ معروف يا آل فواز، العاقل يعرف، والجاهل لا  
يجب أن يشغل أحدًا، أنا أول من وضع بندقه في حربنا وحربهم فهل أنا في  
عيونكم أقل بعد ما فعلت؟!

سؤاله فرض صمتًا تامًا، حتى أنفاسهم التي كانت أشبه بالفحيح قبله  
هدأت، لم يعد في المجلس غير صوت النار في وجارهم، تلتهم حطبه  
ويفرق كتباشير مطر خفيف على رمل ريان.

بعد لحظات نطق كهل فوازي: «تكرّم ويكرّم شيخ جاء بك يا شافي» ثم  
يذكر المجلس بالحادثة: بندق شافي راحت لمن يقدرها، راحت لعمّوش.

يقف شعر فيحان حين يذكر أخاه الغائب، بين البطلين عمّوش وشافي  
يضع فيحان نفسه، ينتصب كعمود خيمة، يستند لرمح أرفع منه، يشدد على  
كلماته: فعلى آل هذال السلام، والله ألا يأتيهم من جهتنا شر بعد اليوم.

في العقيق إذا رغبت امرأة عن رجل طارت بسيرتها مقانع النساء ومجالس الرجال ورفوف الليل، فإن لم تكن جميلة فتمردها وحده يكسبها جمالاً، فكيف إن كانت أجمل نساء الوادي نفلا بنت صالح قد عافت نصيبها من شيخ وثيل وتاجر آل فواز عمّوش؟ وصل الخبر شافياً في ضجيج أحاديث عن فيحان وأبي هليله والصرام.

يفحص عذوق نخيله فيراها ضروع شياه عجاف، يذهله عن صرامها حنين لا يعرف البنياني كيف يصفه، لو جرب السفر لقال بأنه يشبه شوق عائد إلى بلده من غيبة سنين، سمع الخبر ففر به لمريفة، أشجار السلم تشبه مخاوفه؛ جذوعها الصفراء الخشنة كجلد ضب لا تستر عن أي عين خضرة الحياة في قلبها، متفرعة من منبتها متشابكة، وأشواكها الطويلة موجهة لفروعها، أزهارها الصفراء تومئ له، وهو يبني لساناً يليق بنفلا، وكلما رفت هذه الأمنية بصدره خارت قواه، ويعي ساعتها أن عفاريت الشوق فيه أعجمية.

أراد أن يستوعب الحدث وحده، بلا مشنت ولا خيال يشوش صورة الهذالية التي سيفرج عنها بعد طول حبس في ضلوعه.

حين تخيل أنه يقابلها صدفة خفق قلبه بعنف، ضغط براحته صدره ليهدأ وجيبه، بدأ يستعد للقاء لا يعرف إن كان سيحصل، يجهز كلمات يواسيها بها: يفداك من روعك؟! لا لا لا.. كيف روعها وهي التي طلبت خلاصها منه؟! فأقول «أبشري بالعوض» هز رأسه باستنكار: لا.. أمضيعة لها ناقة لأعوضها عنها؟!!

يقبل جمعان وشيطان الرمل يتلوى عن يساره، لا يبطئ ولا يتحدث حتى يقف على رأس عمه: عمتي أم شافي فقدتك، وأوصتني أناديك.

- العلم؟

- الروشن! أما وعدتني أن تبنيه اليوم؟!

الروشن استدعى في ذهنه العرس وبتلا وأمه، تفجّع على حظه: لو تقدم طلاق نفلًا أسبوعًا.. دفعت مهر بتلا.. وتقول أُمِّي إن أهلها ينتظرون الروشن ليتم فيأتوا بظعنهما.. «كم مرة سيبعدني حيي عن بنت صالح؟!»

ظلّ الرجلين يمتدان أمامها، والعبد يحكي لعمه حكاية طويلة من نسج خياله، لا يلفت العم، فيئد جمعان حكايته فجأة، يستدير مواجهًا شافي، يصدح صوته وهو يتمايل مغنّيًا: «قيدوني بالسلاسل والسلاسل قوية» ينتفض جسده كله محطّمًا قيودًا غير مرئية.

شافي يضحك: حضروا؟!

يتلفت جمعان حوله: من هم؟ أين هم؟ يرفع أقدامه لينظر تحتها، يشد جيب ثوبه ليفحص داخله، ثم يضرب براحته ركبته ليؤكد لشافي أنه فهم قصده: «على نار عرسك إن شاء الله يعاونونني».

تنكسر الضحكة على شارب شافي، ويقف جمعان في وجهه: أقول لك كلمة؟

- اسلم.

- كل شيء يأتي به العزم.. إلا القلوب لا يمكن أن نعسفها.

الفكرة التي لم يسبقها تمهيد خوِّف شافيًا، سأل عبده: وما يدريك أنت عن الحب؟

ارتد جمعان خطوة كمن يتفادى رمية غير متوقعة: ألأنني لا أحكي تحسبني لا أحس؟!



في الرمل البعيد يسير عمّوش، حسرة النبذ تقضم ضلعه، ينظم برأسه قصيدة ويختل وزنها، ينتبه أن لمسيرهم الحضرمي وجهًا مختلف، كلامه الكثير قلّ، يخشى التاجر الفوازي أمرًا ولا يجد وسيلة لينبه رجاله دون أن يفطن الآخر.

تشدد الريح في ساقاتهم، ويدرس عمّوش احتمالات لا تبشر بنجاته، يتوقف فجأة ويغير اتجاهه، وهذوء المسير وعينه التي تروغ لأعالي الهضاب المحيطة تكفي ليعرف الفوازي أن في الرمل من يطمع فيهم. يتأخر عن المسير ويقترب من أنه رجاله، يده التي تقبض على البندق يفهم الآخر إشارتها، يحيطان بالمسير من جانبيه، يدفعه الآخر صوب عمّوش الذي يخلعه من ركابه، ويضعه أمامه على ذلوله والخنجر على عنقه، يشتعل الفضاء حولهم بالرصاص، فتخرق أولها خاصرة صاحب عمّوش، ويشير له صوب غار بعيد: رح.

يحز الخنجر الدامي عنق المسير، يصبح لعمّوش بشرح لا ينجيه: يريدون الركائب والسلاح والمال، أعطهم ما يريدون ويتركونك.. ويتركونا كلنا. بيديه يدفع قبضة عمّوش: غصبًا عليّ.. غصبًا عليّ.

ينسل موقعًا نفسه عن ظهر الناقة، يلتفت له عمّوش لحظة وثلاثة في إثره، ويد المسير على رقبته وعظمها ظاهر.

يلوذ عمّوش بغار رأى اثنين من رجاله يلجانه، يقف مطاردهم بعد أن يردهم الرصاص، في ظلمة الغار متسع ليراجع الفوازيون الكثير، بعد أن تصمت الأصوات ينظر كل منهم في عين صاحبه، لم يكن هناك ما يقال فالحكي في حضرة الموت فضلة.

في ذاكرة عمّوش تصطف الدلال وألوان الأباريق في مجلس وثيل،

تزاحمها سلمى وأمها، يحزن لأنه عاهد نفسه قبل أن يغفو البارحة بأن يسترد نفلاً ولو عسكر في نخيلهم سنة حتى ترضى عنه.

لن تسمع قصيدته التي ما اكتملت، واللصوص حول الغار يشعلون ناراً ستأكله هو وشعره. فجأة هجمت عليه ذكرى بعيدة صافية، أبوه ينفرد به ويغريه بأن يأخذ فرقة من رجاله ويلحق بجيش ابن سعود المتجه إلى جيزان، لا يعرف لم جاءت هذه الصورة، مسحها بوجه أمه وتذكر رائحة ساق أبيه.

الدخان الأبيض يتلوى كلسان أفعى في الشق الصخري، ويتجمع كغيمة في أعلاه، يفرغ باقي رصاصه تجاه فم الغار فيسمع أنه يتيمه، يشاركه صاحبه الرمي، وحين يفرغ الرصاص يلوي كل منهم عمامته على أنفه وينبطح مواجهاً اللهب الذي يدنو. لسان الدخان يدوخه فيثقل رأسه وترتخي عضلات جسده، بصعوبة يرى وجوه صاحبيه، آخر ما لمح في زرقة وجه أقربهما زبدًا خفيفاً على شفته، يتأمله بعيون محتقنة وحلقه يحرقه ويغمره حنين للأمان في حضن أمه.

\* \* \*

تتحسس بتلا خزانها القديمة، الخزانة التي صنعها أبو هليل لتزف قبلها لبيت ابن عمها جابر، ثم حملتها القينة مرتين من بيت أهلها وإليه، مرة تلعب بها داعية بطيب الفأل، ومرة مواسية ولسانها بالنشيد يرفع اسم المطلقة، وتنفي حزنها على الرجل المفارق.

مر شهر على خطبتها لشافي، والقينة تنتظر من يناديها لتحمل حاجات العروس إلى بيت آل شافي، وحين تمل الانتظار تزور بتلا مستفهمة، تصغي لأعذار أمه مصفوفة على لسان العروس، لم يكمل بناء الروشن بعد، ولم يصرم نخيله، و...

تستدعي المشاطة اسم الجنية المخيفة «أم الصبيان» ميزان العدالة وحامية صغار العبيد - المجلوين من وراء البحار - من نوايا طغيان أسيادهم، يرتفع صوتها فاردة أصابع يمينها الخمس مشيرة بها صوب نخيل آل شافي: أم الصبيان تكسر رقبتة! أشبع حي آل بنيان أيام الجوع ويعجز عن بناء حجرة؟!!

بعد أن تذهب المشاطة لتصيد بتلا جمعان، تشير له بيدها من بعيد، عند طرف ظلها يقف خافضاً بصره: لبيك يا عمة!

فكرتها الصعبة غدت حال تنفيذها أصعب، بلغت ريقها مرتين قبل أن ترتفع لها شفة عن شفة: بعض الحكي صعب، وأصعب منه السكوت به، أريد أن أسألك عن عمك شافي.. قالتها ثم سكنت، كل عزمها تبخر عن إتمام سؤالها، وهو وإن فهم بعض قصدها بادرها بالأعذار المعتادة: الروشن سنبيه يا عمة..

تهدج صوتها: وغير ذا العلم يا جمعان؟

شيء في حرقه صوتها حفزه، فكر بأنه ربما يصنع خيراً في اثنين سائرين صوب هاوية، قال: غير ذا العلم أقوله إن عاهدتني ألا يسمعه أحد.

تمسح بسبابتها وإبهامها جانبي وجهها تحلف له، و يشير لجدول آل صالح: عمي شافي قلبه في نخيل آل هذال.

يسكت عن باقي الكلام، ونظرها ينصب حيث تشير يده، فتذكر تفاصيل عشقه القديم لابنة عمتها، تتأكد: نفلا؟

يهز رأسه وينصرف. في مكانها قعدت، حفرت بيدها الرمل ودفنت قدميها وبعض همها، سحت دموع ساخنة على وجنتها فظهر لها وجه جابر. فكرت بأنها لم تعشق غيره، تذكرت كيف حاولت أن تبغضه، وكيف كان يباغتها في أحلامها بين فترة وأخرى.

اتجهت إلى نخيل آل شافي، من أوله يرحب بها صوت أمه: «يا مرحبا.. ألف هيل وألف كيل وألف تحدى على الخيل»

الترحيب الحار يربكها، لكنها ما جاءت لتتردد، قالت للمرحبة: كنت سأبعث مندوباً عني يا أم شافي، ثم قررت أن أحكي معك من الرأس للرأس.

تبهت الأخرى، وتعتذر ممن ستكون زوجة ابنها: بيني الروشن، والحال - من عقب قشاش والجراد - على الله.. اصبري يا بنتي..

تذكر بتلا الليالي التي قضتها تحني شعرها وتعل أظافرها وتخيل كل كلمة حلوة ستسمعها شافياً، قبرت آخر آمالها: «الظاهر يا عمة إن ولدك قلبه عند غيري.. سلمى عليه وقولي له الله يستر عليّ وعليه.

- يا بنتي لا تكوني منزوعة عقل مثله.. يا بنتي والله ما طرأ على باله غيرك.. والله ما قعد به إلا قلة ما في يده.. اصبري ويفرجها ربي.

تأخذ بتلا عمتها صوب أطراف نخيل آل بنيان، يريانه على أعلى جدول جهة آل هذال: «يا عمة هذا حب».

تحوقل العجوز، وتفرك يديها، ونظرتها المنكسرة تدور بين البعيد الباحث عن ظل نفلا وبين الباكية عندها. تجادلها مرة أخرى: يا بنتي بنت صالح (حتى ولو إنها ابنة عمتك) فهي ما رغبت عن عمّوش يلاقي بحبها ربه لتأخذ ولدي الذي يقعد ويقوم دون أن نشعب من حكيه.

\* \* \*

على أرض كانت ملهى هذال وإخوته تسير نفلا، في درب حرثته أقدام النساء وآمالهن، باب بيت جيرانهم آل راشد يشرع أضلاعه الخشبية وألوانه الزاهية بهتت ولا يبدو أن أحداً يفكر في تجديدها.

تنته أنها فقدت فرجة مرتين، مرة حين أخذت فيحان، ومرة حين نجحت صاحبتهما في ما فشلت هي فيه فبقيت في القصر ولم تتغير لإرضاء أهله.

تدور بين النخيل كما دار ظعنهما، رأسها تثقله أحلام البارحة التي كان فيحان فيها مكسور الثنية. بكت عمّوشاً وظلت مع كل خطوة تنزع عن روحها أشواك قصر وثيل، وكلما أغمضت انطبع وجهه بين جفنها ورمشها، تذكر خطواتها الأخيرة من مطبخ وثيل إلى مجلسه، تذكر شكاً رافق خطواتها وصدقت بأنها ستطرحه مع مقنعتها.

ظلت بعد طلاقها تروغ من كل سؤال عنه، تحتج بأنه صفحة انطوت وأنها كما تتمنى ألا يذكرها بكلمة عند أحد فهي لن تحكي عنه كلمة، لكنها لم تعرف ماذا تقول لمن يسألها.

كل نهار تقضيه بعيداً عن عمّوش لا ينسيها إياه، فكيف تفسر لهم هجرها له؟ كيف تقول أن منعها من الرقص لم يوجعها فوق ما أوجعها أنه اعتبره حقه كما يعتبرها هي مُلكه؟!

على جدول مائهم الكبير تقف فترفف حمامة وتهبط على جريد نخلة،

رائحتها أحييت في ذاكرة نفلا حمامًا ربه مع جابر صغيرين. متى اختفى الحمام من بيتهم؟ بعد ذهابه للغوص أول مرة؟ فيم اختلف عن أخي؟! هو اتبع ما يملأ عليه وبدل حبيبته تزوج أختها وها قد بدأ يقع في غرامها، أما أنا فقد اخترت حبيبي.. كيف لم يعد اسم عمّوش يذكرني بغير الألم؟!

تتجه إلى المسيل، تجهش وهي تذكر وصية عاشرت بها أمها يومًا بالآ تدفن إن ماتت: أكره المكان الضيق والصمت والظلمة.. ضعوني على رأس شجرة سمر.. لأرى الشمس والمطر وأسمعكم.

- بنت صالح؟ تبكين؟!

الصوت الجهوري أفرعها، رفعت رأسها صوب الرجل الواقف، للحظة أنكرت مظهر شيب العارضين، لكنها تحت اللثام المرتخي عرفت وجه شافي البنياني، تثني مقنعتها لتستر شفيتها.

يقعد بجوارها صامتًا، يحاول أن ينطق بكلمة مما حفظ، أنفاسها تشتت، وضع رأسه بين قوائمه وخطط الرمل بسبابته، تذكر شعرها المحنى ورقصها، تذكر المرة الوحيدة التي سمعها فيها تغني.

من تحت أحزانها سحبت نفسًا ثقیلاً والتفتت إليه، يده اليمنى مرتخية في حجره بسبب طلاقة في حرب الحيين، دمعة سقطت من عينه على خطوطه في الأرض جعلت فكه يرتعش، صدت متظاهرة بأنها لم ترها وطمس شافي ما رسم.

الثقل في فكه السفلي يكاد يخلعه، زاده القليل من الكلام اختفى.

لا تعرف نفلا كيف بادرت: حلمت به البارحة.. عمّوش مات.



## | الكتاب |

أبو خفرة قابض على كمها، يقودها بين النخيل وأمها تتبعهما برداء نقعته في  
الطيب يومين، وتعذله: عرس هذا أم زنا؟! تروح بينتي لا يسبقها ظعن ولا  
تلحقها دفوف؟!!

للرجل من مهده للحده سبعة أوجه، وللحرب وجه واحد يلبسونه جميعاً؛  
سحنهم تصطبغ بلون الأرواح التي يقامرون بها. بندق شافي على عاتقه، وفخر  
أمه به يعكره خوفها عليه.

في العقيق تستيق البُنَيَات عودة الغواصين بالنشيد:

«نطويك يا ذا الشهر طي القراطيس ذا الليل م الداخل يجون الغواويس»  
فرجة بوجه أنضجته الشمس، وبضفائر مشعّنة تغني لمن لن يعود في الشهر  
الداخل، فوالدها بلعه البحر قبل سنوات.

في باحة البيت تقعد القينة، تُعجن مسحوقها بالطيب. تُقبّل نفلا صفراء من  
نقيع العصفر، وجسدها فوّاح بالورس، تقعد في حضن المشاة التي ينطلق  
لسانها بتنبؤات عن طيب حظ العريس، تغني وأصابعها تغزل شعر نفلا ثلاثين  
أحبولة عشق.

عمّوش يذهب للعرافات لا ليصدقهن، بل ليعرف متى يصدقن ومتى يجهلن،  
وكيف يدارين جهلهن؟

يزورهن التاجر ليتعلّم. وضع أجراها وخطا مغادرًا فنادته: لو كان الحذر يمنع  
القدر لوصّيتك بأن تتجنب الغار.

ISBN 978-614-418-318-6



9

788144 183168

Jadawal جداول  
www.jadawal.net